SHAKIR NOURI

حوارات
INTERVIEWS

شاكر نوري

روجيه غارودي

هذه وصيّتي للقرن 21

حوارات مع
وقائع جلسات المحاكمة
كما تفرّد بتسجيلها
شاكر نوري



هذه وصيّتي للقرن 21

حوارات مع وقائع جلسات محاكمة

روجيه غارودي

كما تفرّد بتسجيلها

شاكر نوري

هذه وصيّتي للقرن 21 : حوارات مع وقائع جلسات محاكمة غارودي / حوارات
روجيه غارودي / فرنسا ◆ حاوره : شاكر نوري / العراق
الطبعة الأولى ، 2007

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : 9157 ، هاتف 5605432 ، هاتفاكس :5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com
الإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ : مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-959-3

حوارات
INTERVIEWS

هذه وصيّتي للقرن 21

حوارات مع وقائع جلسات محاكمة

روجيه غارودي

كما تفرّد بتسجيلها

شاكر نوري

الإهداء

إلى كنان . . .
يحرس الحياة بكل هذا البهاء
إلى محمد الدرّة . . .
يحرس ضمائرنا من النسيان

لقاءات امتدت على أكثر من ٢٠ عاما

كانت آخر زيارة لي للمفكر الفرنسي روجيه غارودي قبل قرابة العام وقد تدهورت صحته . وعلى الرغم من ذلك ، لم يكن يتوقف عن التأليف ، حيث سرعان ما أخرج لي مخطوطة كتابه الجديد المعنون «الإرهاب الغربي» Le Terrorisme Occidental وسلمني نسخة إلكترونية منه - مطبوعة على (الفلوبي) حيث قرأت أجزاء منه . وكان حائرا في نشره كعادته مع كتبه الأخيرة ؛ لأن دور النشر الفرنسية لا تريد نشرها أو الالتزام بترويجها ، فهو في عداد «الكتاب المغضوب عليهم» لأنه وببساطة لا يشارك الأطروحات الفكرية المهيمنة ، التي تعلنها وسائل الإعلام بسائر أشكالها . هكذا قاطعته كبريات دور النشر الفرنسية بعد أن أصدرت له نحو ٤٠ كتابا في شتى ميادين الفكر . ومن المعروف أن صدور كتبه الأخيرة مثل «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» و«الولايات المتحدة : طليعة الانحطاط» و«الإرهاب الغربي» وكتب أخرى ، وضعته على قائمة الممنوعات . وكان غارودي ، في زيارتي تلك ، يعاني من جلطة دماغية أقعدته الفراش . وعند وصولي في بداية شهر آب / أغسطس ٢٠٠٤ لباريس قادماً من أبو ظبي ، كان أول ما قمت به هو الاتصال به للاطمئنان على صحته التي تضاربت بشأنها الأخبار . وهذا أمر طبيعي بالنسبة لشيخ في عمر الـ ٩١ عاما ، وللعمر استحقاقاته . ومن الطرف الثاني من السماعة جاءني صوته ليخبرني بأنه بخير ، على الرغم من أنه ما يزال يعاني من بقايا آثار الجلطة الدماغية . هنأته على صدور كتابه ثم طلبت منه السماح بزيارته فرحب بيّ ووافق على الفور . وحدد لي موعدا في اليوم التالي . وقبل الذهاب تحدثت عن اللقاء الموعود للصديق غسان الرفاعي ؛ فأبدى حماسة شديدة لرؤيته ، فترافقنا في الطريق الذي يصل إلى الضاحية التي يسكن فيها «شيفنيير سور سين» . ومن هناك طلبنا سيارة أجرة بالهاتف لعدم توافر سيارات الأجرة في تلك المنطقة .

***

في منزله ، حيث تتوزع بعض التحف العربية والإسلامية ، قلت له : «سيد غارودي إننا نعرف كتبك منذ عشرين عاما ، وكنا نقرؤها بالعربية ، مثل كتابي

(النظرية المادية في المعرفة) و(واقعية بلا ضفاف) فقال لي : والآن تترجم كتبي إلى اللغة التركية . فقلت له : لكننا كنا نقرأ كتبك في سنوات الغليان الماركسي في السبعينات ، فضحك قائلا : ولكن من العجيب أن الترجمات في العالم العربي تتم بدون حقوق نشر ،فقلت له : أجل هذه حقيقة مؤلمة بالنسبة لكثير من الأدباء الفرنسيين الذين أعرفهم ، ثم أضاف غارودي : المؤسف في عمليات قرصنة الترجمة أن دور النشر لا تجهد نفسها حتى بإدسال نسخة من الترجمة لمؤلفيها ؟ لكنه سرعان ما ابتسم قائلا : ولكني لا أعير أي اهتمام لحقوق النشر . المهم أن يطلع القراء العرب على ما أكتبه ، كما هو الحال مع كتابي الأخير ، (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) ، الذي كما علمت ، نشرته صحف عربية عديدة بشكل متسلسل .

ثم أضاف ، وكما ترى أنني طبعت كتابي على نفقتي الخاصة ؛ لأن العديد من دور النشر رفضت نشره . قلت له : لم أكن أتصور أن ثمة إرهابا فكريا في فرنسا بهذه الدرجة من الحدة . فأجابني : حرية الفكر موجودة إذا كانت تصب في منهج السلطة بشتى أنواعها .

ما يزال المفكر غارودي متألقا ، سواء في تفكيره أو في حركته أو في نباهته . وفي خضم أحاديثنا اكتشف بأن هذا المفكر الكبير يتميز بروح متقدة من الفكاهة والنكتة الساخرة ، ولم أر مفكرا يتحلى بهذا التواضع الكبير وبهذا الأدب الجم ، الذي ينم على روح إنسانية كبيرة كما تجسده أعماله الفكرية .

وفي أثناء حوارنا لم يكن الهاتف ينقطع عن الرنين . وكأن غارودي استقدم إلى منزله كل قضايا عصرنا اللاهبة ، وبعد أن تجاذبنا أطراف دردشة ودية ، شعرت بأن هذا المفكر اللامع بدأ يفتح قلبه وفكره ، وبدأ يتدفق بحديث متواصل ، وهو تكملة لأحاديث دامت سنوات طويلة .

***

استقبلتنا زوجته بوليت ، وسرعان ما سألناها عن حالة غارودي الصحية ، في حين كان هو ينتظرنا في الطابق الأول من منزله . فقالت لي زوجته : «لم نكن نصدق بأنه سيفيق من غيبوبته التي دامت شهرا ونصف الشهر . . حياته معجزة» .

كان يجلس على أريكة جلدية ، يتأمل الأشجار الظاهرة من مكتبه الزجاجي . ففي غضون عام واحد تغيرت ملامح وجهه كليا ، وكانت آثار الجلطة الدماغية واضحة على محياه . وعندما رآنا نهض ، مرحبا بنا ، ثم عاد للجلوس إلى أريكته

معتذرا ، وهو محاط بالكتب المبعثرة هنا وهناك .

المعروف أن كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) أثار ضجة كبيرة في الوسط الثقافي والفكري الفرنسي ، البعض قدم هذا الكتاب على أنه عمل من أعمال (الشيطان) أو مستوحى من (هتلر) . وبعض الصحف اعتبرت هذا الكتاب بمثابة انتحار رجل كان من الممكن أن يكون شاهدا على عصره . والبعض الآخر اتهمه بمعاداة السامية . وصحيفة رصينة مثل (اللوموند) قالت بأن هذا الأحمر القديم انتقل إلى الضفة الأخرى من المرآة : والمقصود بذلك أنه انتقل إلى اعتناق النازية ، وآخرون وصفوه (بالنازي الجديد) ، كما أدى نشر هذا الكتاب إلى محاكمته وتغريمه ٣٠٠ ألف فرنك فرنسي آنذاك ، أي ما يعادل ٥٠ ألف دولار لأنه كشف أكاذيب الأسطورة التي تستند إليها إسرائيل ، ولأنه أيضا كشف عن اللوبي الصهيوني الذي يحرك خيوط السياسة العالمية والفرنسية . لقد كان غارودي ، وما يزال ، يعتبر الفلسفة والتاريخ واللاهوت صراعا ضد كل أشكال التزمت integrisme ، فقد دافع عن ماركس ضد الاتحاد السوفيتي ، وناضل ضد التحجر حتى تم فصله من الحزب الشيوعي عام ١٩٨٠ ، ودافع عن المسيح ضد كل لاهوت الهيمنة ، ودافع عن الإسلام ضد الاسلامويين من جهة ، وخيانة السلطات له من جهة أخرى ، كما دافع أيضا عن كبار الأنبياء اليهود ضد الصهيونية القبلية .

وقد أثيرت كل هذه الضجة المفتعلة ضد غارودي على الرغم من تأكيداته بأنه يدين التعصب الصهيوني وليس المعتقد اليهودي . وقد أكد على الدوام بأن المرض القاتل لنهاية عصرنا الحالي هو التزمت ، سواء كان في الإسلام (الإسلاموية هي مرض الإسلام) وفي المسيحية قال بأن (مسيح جان بول ليس هو المسيح) ، وأدان الهرطقة الصهيونية التي تريد استبدال إله إسرائيل بدولة إسرائيل .

كانت زوجته ما زالت تجلس بجوارنا أثناء تلك الأحاديث . وكان يطلب منها تارة كأس ماء أو صورة أو كتاباً أو فنجان قهوة تارة أخرى . فهو لا يستطيع العيش بدونها ، فقلت لها :

– منذ متى تعرفت على غارودي ؟

– عرفته في عام ١٩٥٢ عندما كنت أرملة ، ثم انتقلنا إلى باريس . ولم يتعرف ابني الأول على أبيه لأنه أعدم في الحرب العالمية الثانية ، وتبناه غارودي وأصبح ابنه المدلل ، بل والأكثر دلالا بين جميع أبنائه وبناته . والآن يملأ الأحفاد دنيانا بالبهجة .

– كيف كانت حياتك مع غارودي ؟

– حياة مثيرة ومتعبة في آن واحد . كنت أعمل في مجال التعليم ، واستمررت في عملي لأن غارودي لم يكن يتقاضى سوى راتب عامل ماهر في الحزب الشيوعي . كنت أعمل من أجل أن أعينه على الحياة الصعبة ، ولم أتوقف عن العمل حتى سن التقاعد . وبالإضافة إلى عملي ، كنت أساعده حين يحتاج إلى وثيقة أو مصدر أو كتاب . كنت وما أزال ، ذاكرته الحية ، لأن لا أحد يعرفه مثلي . وفي نهاية المقابلة ، اقترحت علي أن أرى المكتبة الكبيرة التي يمتلكها في الطابق السفلي من منزلهما . وقد رأيت هذه المكتبة للمرة الأولى على الرغم من زياراتي المتكررة له طيلة أكثر من عشرين عاما . وفضلا عن مكتبته في الطابق الأول ، فهذه المكتبة تتوفر على كتب هائلة جمعها طيلة رحلته . وقد زودها بمدافئ خاصة حتى لا تتعفن في سرداب منزله الذي يبلغ عمره أكثر من مائتي سنة .

***

اللقاء بالمفكر الفرنسي روجيه غارودي ليس بالأمر السهل ، إذ إن المرء سرعان ما يجد نفسه أمام رجل إشكالي ، ترك بصماته الواضحة على عصره . حوارات عديدة أجريت مع هذا المفكر ، إلا أننا توخينا من هذه الحوارات أن تكون صريحة للغاية ، دون التفكير بالممنوعات والخطوط الحمر والضغوطات الأخرى . وكان بودنا أن نلقي عليه أسئلة شخصية حول حياته الحميمة ، لكنه سرعان ما أخرج كتابه «طوافي المتوحد حول العصر» ، وقال لي : «بإمكانك أن تترجم هذا الكتاب لأنه يتضمن جميع تفاصيل حياتي ، كما أنه لم يترجم بعد إلى اللغة العربية» . رأيت في غارودي هذا الكاهن الذي لا يفترق عن كتبه بموضوعاتها الساخنة ، التي انطلق بمناقشتها . وبعد أن تجاذبنا أطراف دردشة ودية ، شعرت بأن هذا المفكر اللامع بدأ يفتح قلبه وفكره ، وبدأ يتدفق بحديث متواصل ، ولتكريمنا ، أعطانا صورا شخصية نادرة . كما سمح لنا بتصوير منزله وشخصه بصورة تلقائية .

- ٢ -

محاكمة مفكر

كان من الممكن أن تُحدث محاكمة روجيه غارودي ضجة كبيرة في الوسط الإعلامي الفرنسي لو كانت وسائل الإعلام تتمتع حقاً بالروح الموضوعية . ورغم التضييق الإعلامي ، سرعان ما بدأ الناس يفكرون : مَنْ هو الذي يجسد العدالة : قوانين الثورة الفرنسية أم قانون غيسو؟ ويوجهون الأنظار إلى قصر العدالة ، المطل على نهر السين ، في باريس ، حيث كانت الأقدام تتزاحم في تسلق المدرجات الإسمنتية الهائلة في مدخله طيلة أربعة أيام- مدة المحاكمة .

لم يخطر ببالي أبداً أن أسجل بقلمي مباشرة محاكمة جارودي ، ولم أخطط لهذا المشروع مسبقاً ، إلا أن اندماجي واعتيادي في عملي الصحفي على تسجيل كل شاردة أو واردة في دفاتري ، هو الذي جهزني بمادة لم أبخل بها على القارئ ، بل أردتها أن تأخذ طريقها إليه ، فكنت كالمجذوب الذي لا يسقط من يده قلم الحبر الجاف في تسطير النقاشات وتسجيلها وتدوين مداولاتها ، وكنت أعرف حقيقة واحدة ، وهي إما أن تسجّل بقلمك كل التفاصيل أو أن ترمي القلم جانباً ، وتضع يدك على خدك ، وتنصت إلى مجريات هذه المحاكمة ، لكنني اخترت الحل الأول مادامت آلة التسجيل ممنوعة منعاً باتاً داخل قاعة المحكمة . لم تكن في حوزتي سوى مادة غيابية ، كلمات وتراكيب وتعابير الوجوه وحركات الأيدي الصادرة من الشهود والمحامين و«المتهم» وفريق الادعاء : «المنظمات اليهودية : ليكرا ، مرآب ، كاب إنتير ، محامون بلا حدود ، رابطة الرياضة والثقافة» أو من طرف المدعى عليه : «غارودي وبيير غيوم ، ناشر كتابه» ، فالطرف الأول يسعى إلى إدانة غارودي وتجريمه ، بينما كان الأخير يدافع عن رأي وقضية ، ويسعى إلى إقناع المحكمة بالمسألة الفكرية العادلة ، فكان مسلحاً بنظرته غير الرسمية للتاريخ ، الماضي والحاضر ، لذلك فهو متهم منذ البدء بـ «جنحة» إعادة التفكير بتقييم التاريخ اليهودي وكتابته ، إلاّ أن فريق الادعاء كان مسلحاً بدوره بقانون- غيسو- الذي كان القصد الظاهري منه ردع كل أفعال العنصرية ومعاداة السامية وكراهية الأجانب ، لكنه يضمر في طياته أهدافاً أخرى .

كنت أؤمن ، على الدوام ، بأن هناك مسارح أخرى ، بالإضافة إلى المسرح

المحترف والحلبة السياسية ، أبرزها قاعة المحكمة ، وما تضفيه من أجواء ، وهذا يعني أن شهود هذه المحاكمة يجلبون معهم مسارحهم ، لكن جو المسرح الذي تفرضه محكمة فكرية سرعان ما يتغلّب ، ويفرض طابعه الخاص في التحقيق والاستنطاق والاستجواب . كان غارودي حزينا ، ولم يكن قادراً على الوقوف أمام منصة القاضي ، بل طلب بكل احترام ووقار كرسياً ليجلس عليه ويقلب أوراقه ، ويتهيأ للمحاكمة . وكان الحدث محصوراً في داخل قاعة المحكمة ، إذ لم تنقل وقائع الجلسات على الصحافة الفرنسية إلاّ بشكل عابر . ومثلما في مسرحية الممثل الواحد ، لم يكن الممثلون يخاطبون بعضهم بعضاً بل يخاطبون أفكاراً مجرّدة ، وهم يحدقون في سقف القاعة المزخرف بلوحات القرن الثامن عشر ، وكأنهم يريدون تحاشي النظر في وجوه بعضهم البعض . وكان فريق الادعاء حذراً من الجمهور الذي وصفه أحدهم بأنه خاص جداً ، إشارة إلى تضامنه وتعاطفه مع المفكر المتهم ، عبر انفعالاته التي تجسدت مراراً بالتصفيق ، الذي كان القاضي يردعه بموجب مراسيم المحاكمات وقوانينها الداخلية الصارمة . كان الجمهور يرى في غارودي بطلاً ، وهو هكذا حقاً ، إذ لم يتزعزع عن الدفاع عن أطروحاته وأفكاره بانسجام منقطع النظير ، وخصوصاً عندما أوجز رأيه قائلاً : «الديانة اليهودية أحترمها ، لكن الصهيونية أحاربها» . كانت جميع الآلهة حاضرة : آلهة الهولوكست والمحرقة والإبادة ، وضحايا الحروب وغرف الغاز ومعسكرات الاعتقال النازية ، ويوشع ودموع التماسيح . آلهة تصلح خميرة لمئات المسرحيات الدرامية التي تقع أحداثها داخل غرفة واحدة . ومن المهم ألا نفكر في الجلسات بوصفها دراما الشهود والمحامين ، بل دراما شخص واحد هي دراما غارودي . حتى كان هذا المفكر يحوّل غضبه إلى حكم ومقولات ، مثل قوله ردّاً على أحد محامي فريق الادعاء : «إنني لا أقيم تجارة على عظام أسلافي» ، وهنا صعد النسغ الدرامي إلى أوجه . كان من المفترض أن تحتفي به الأوساط الثقافية والسياسية الفرنسية لتأليفه ٤٥ كتاباً معرفياً ، دون استجواب واستنطاق في مواجهة فريق ادعاء شرس وصلف وعنيف للغاية في نغمة حديثه ، بحيث تجرأ أحدهم أن يخاطب غارودي قائلاً : ألا تخجل أن تؤلف مثل هذا الكتاب؟ وكأنّه يوبّخ تلميذاً غبياً اقترف ذنباً! عندما كان القاضي يسأله عن اسمه ، عمره ، سيرة حياته ، مؤلفاته ، كأنه يقدم اعتذاره الباطني لهذا المفكر ، ويخفي خجله ؛ لأنها أسئلة يمكن أن تطرح على أي مذنب اقترف جنحة في لائحة القوانين . . وكان ذنبه وجنحته أنه لم يسلم بالحقيقة

الرسمية التي تجمّد التاريخ .

فالمحاكمة الحالية تفوق الحواجز كلها ؛ لأنها اعتمدت على لهجة الصوت أو الإيماء أو الوقفة ، وهذه الإشارات لا تكذب أبداً وتصبح المسألة مسألة القدرة على قراءتها .

كان الشك سيد القاعة حيث استحضرت محاكمة غارودي فولتير وديكارت ، وفيما أصرّ فريق الادعاء على التزمت والالتزام بالتاريخ الرسمي المقرّر ، معتبراً أن أية إعادة قراءة جديدة هي بمثابة تبرير للجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، كان الفكر الفرنسي بأسره في قفص الاتهام ، إكراماً لقانون غيسو .

لا نبالغ إذا قلنا إن أهمية هذه المحاكمة بالغة للقارئ والمثقف العربي ، ففي الوقت الذي تتقلص فيه حرية التعبير في بلادنا ، وتتصاعد الاتهامات ضد المفكرين والأدباء والعلماء ، تكون قراءة وقائع محاكمة روجيه غارودي بمثابة العودة إلى الأصل . . نبع تقييد الأفكار وتجريم المعارضة .

وفي محاولتنا تقديم هذه الدراما التاريخية للقارئ ، احتفظنا بنصوص التحقيقات التي ترجمناها ترجمة فورية داخل قاعة المحاكمة . نأمل من خلال إضافة آرائنا ومشاهداتنا إلى هذه النصوص إضاءة بعض الجوانب المعتمة من هذه القضية . « . . . هل يهدّد شبح المكارثية فرنسا؟!» هكذا اختتم المحامي الشهير جاك فيرجيس ، المدافع عن القضايا الإنسانية ، المرافعة الأخيرة في هذه المحاكمة ، وأضاف : «إنّ أهمية هذه المحاكمة تكمن في أنها تضع الثقافة الفرنسية برمّتها موضع تساؤل . . هنا تكمن الأهمية والخطورة في آن واحد» . (وكرّر) بأن «قانون غيسو خطر على القانون الفرنسي نفسه . . ومهما كانت نتائج محاكمتكم فإننا لن نتراجع عن معركتنا من أجل حرية الرأي والتعبير» .

في ١٦ يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٩٨ اختتمت الجلسة الأخيرة من الدعوى القضائية ضد غارودي ، وسط تصفيق الجمهور والحراسة المشدّدة على المفكر الفرنسي أثناء خروجه من قصر العدالة ، وكأن ستاراً أسدل على دراما تاريخية سيخلدها تاريخ الفكر الفرنسي المعاصر لأجيال عديدة قادمة .

- ٣ -

هل يُعدّ روجيه غارودي فيلسوفا؟!

«هل يعدّ روجيه غارودي فيلسوفا»؟!

هذا سؤال يراود أذهان عدد كبير من المهتمين بشؤون الفكر والثقافة .

قرأت مقالة بهذا العنوان كتبها السيد روبير ريديكير في صحيفة «اللوموند» العدد ١٦٥٢٤ في ١٣ مارس/أذار ١٩٩٨ ، وهو خريج فلسفة وعضو هيئة تحرير مجلة «الأزمنة الحديثة» .

قبل كل شيء يحتج كاتب المقال على قرار المحكمة الذي صدر بحق روجيه غارودي وتغريمه ١٢٠ ألف فرنك . . . إنه لا يحتج على القرار بل يحتج على كيفية اعلان المحكمة صيغة بيانها :

«أدين الفيلسوف روجيه غارودي لإنكار الجرائم المقترفة ضد الإنسانية» ! وأعترض أيضا على صحيفة «اللوموند» ذاتها ، لنشرها بأن «الإيديولوجي المشكك»- أي الذي يشكك بوجود غرف الغاز في المعتقلات النازية - «هو «فيلسوف معاد للصهيونية» ويؤكد الكاتب هنا على ضرورة توخي الدقة في اللغة ، ويواصل قائلا : «لماذا نستمر في مكافأة غارودي ومنحه تسمية الشرف وهي «الفيلسوف» ، في الوقت الذي أدينت كتاباته «الحقارة» ، محتوياتها ومضامينها ، بل وإنها تعد جنحة؟ خسر الفيلسوف وربح غارودي» ! ثم يذهب كاتب المقال إلى أبعد من ذلك ، واصفا أفكار غارودي بـ«الهذيانات» . ويضيف : «يجب ألا نحول غارودي إلى ضحية لمحاكمة الفكر؟ لأننا بذلك نسجل اسمه إلى جانب الكتاب والمفكرين المحترمين الملاحقين بسبب يتعلق بحرية الفكر ، من سقراط إلى سبينوزا ؛ وصولا إلى سلمان رشدي ، مرورا بكانط والمنشقين في الكتلة الاشتراكية السابقة .»

ويطرح السؤال التالي : «هل أن التشكيكية negationnisme - التشكيك بغرف الغاز- تعد فلسفة؟» إن اعتبار غارودي فيلسوفا يعني الاعتراف بـ «التشكيكية كفلسفة . . . والمدافعين عنها شهداء للحقيقة! وكذلك الأب بيير هو الآخر نموذج في

مجال تاريخ البشرية . . . وهنا نربط التاريخ بالفلسفة في ملاحقة هذين الشخصين ! وفيما يخص موضوع التشكيكية فإننا لا نتعامل لا مع التاريخ ولا مع الفلسفة بل مع اللصوصية الفكرية» .

ينبغي أن نرفض منح غارودي وسام «الفلسفة»

ويختتم السيد روبير ريديكير مقاله قائلا : «من الأفضل أن تستخدم المحكمة تعبير الأيديولوجي المشكك روجيه غارودي الذي أدين بسبب أفكاره المناهضة للجرائم ضد الإنسانية ، وبذلك نتجنب رفع غارودي إلى مستوى الفلسفة ، ونمنع بذلك أن يبعث في روح القارئ التشكيك بوجود الضحية نتيجة جنحة الفكر .»

قبل كل شيء فإن السيد روبير ريديكير ، وهو خريج الفلسفة ، يؤلب الرأي العام على غارودي ، ويطالب بتجريده من لقب الفيلسوف . . . هل نحن في فرنسا بلد فولتير وديكارت أم في أي بلد من بلدان العالم الثالث التي تصدر القرارات والأحكام الجائرة؟ والأدهى من ذلك أن كاتب هذا المقال لا يرضى عن تسمية المحكمة لغارودي بالفيلسوف . روجيه غارودي فيلسوف ، شاء السيد روبير ريديكير أم لم يشأ . . . فإذا كان هو خريج فلسفة فليعد إلى مؤلفات غارودي ١) في تاريخ الماركسية : كتاب «المصادر الفرنسية للاشتراكية العلمية» و «الإله قد مات» ، و«فكر هيغل» و«كارل ماركس» الذي ترجم إلى إحدى عشرة لغة . ٢) في مشكلات الماركسية : «النظرية المادية للمعرفة» ، و «الحرية» و«آفاق الإنسان» و«ماركسية القرن العشرين» و«من أجل نموذج فرنسي للاشتراكية» و «الماركسية والوجودية» ٣) في الدين : «الكنيسة والشيوعية والمسيحيون وغيرها» ٤) في الأخلاق : «الماركسية والأخلاق» و«ما الأخلاق الماركسية» و«الإنسانية والماركسية» ٥) في علم الجمال : «مسار أراغون» و«واقعية بلا ضفاف» وغيرها ٦) في حوار الحضارات . ولا مجال هنا لذكر أكثر من ٥٤ مؤلفا في شتى ميادين المعرفة .

السيد روبير ريديكير ، صاحب مقالة صحيفة اللوموند- الشتيمة- ويناصره في ذلك كثير من المفكرين ، وللأسف الشديد ، يضمر في أعماقه أغراضا أخرى ، وهو يتذكر جيدا كيف تمت صناعة المذنب منذ محاكمة غارودي الأولى في عام ١٩٨٢ ، لا لشيء إلا لأنه أدان الغزو الإسرائيلي للبنان في صحيفة اللوموند ذاتها ، وقال إن هذا الغزو إنما هو خطوة في المنطق الصهيوني . . . في الوقت الذي رفض بعض كبار المثقفين الفرنسيين إبداء آرائهم بهذا الغزو . . . ويعرف السيد ريديكير كيف أن وسائل

الإعلام ، بسائر ميادينها ، فرضت حظرا على المفكر والفيلسوف روجيه غارودي منذ نشره لكتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ، حتى إنه حرم من حق الرد في الصحافة الفرنسية ، لا لشيء إلا لأنه اجتاز الخطوط الحمر في إدانته للصهيونية ، التي تتخوف منها الغالبية هنا بعد أن كانت كبريات دور النشر الفرنسية «غاليمار» «وسوي» و«فيار» وغيرها تنشر له .

لماذا لا يتجرأ السيد ريديكير ويقول بأننا نجرد غارودي من لقب الفيلسوف لأنه هاجم الصهيونية؟ !

إن غارودي لم يأت بشيء جديد ، فإن كتابة «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مبني على آراء وأقوال كثير من المؤرخين اليهود الجدد ، أمثال إسرائيل شاحاك وآري شافيط وغيرهما ممن يدينون السياسة الإسرائيلية .

كاتب المقال يؤكد على «حقارة» محتويات كتب غارودي ومضامينها ، في الوقت الذي أشار فيه القاضي جان-غيف مونفورا ، عندما حاول فريق الادعاء أن يتهجم عليه في المحكمة ، قائلاً بأن هذه المحكمة لا تحاكم غارودي ولا كتبه بل تحاكم مقاطع معينة جاءت في كتابه «الأساطير» ، وهذا يعني أن رؤية القاضي كانت أكثر انفتاحا من رؤية خريج الفلسفة السيد روبير ريديكير . . .

والأدهى من كل ذلك ، أنه يضع سلمان رشدي في مصاف الفلاسفة والمفكرين ، وينكر على غارودي هذه الصفة . سلمان رشدي يندرج في إطار حرية الفكر بينما يندرج غارودي في إطار تجريم الفكر . أين المنطق في كل ذلك؟ ففي الوقت الذي أصبح فيه سلمان رشدي الطفل المدلل للغرب ، أصبح غارودي في شيخوخته المتألقة «النازي الجديد» و«الفيلسوف الخطر» . . . ولا ينتمي لا إلى التاريخ ولا إلى الفلسفة بل إلى «اللصوصية الفكرية» ، على حد تعبير السيد كاتب المقال !

هكذا ، وفي رأي السيد ريديكير ، أن غارودي لا يستحق وسام الفلسفة ، لأنه أدان الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ، كما أدان جريمة قانا واعتبرها جزءا من الجرائم المقترفة ضد الإنسانية . وهكذا ينصح السيد ريديكير المحكمة باستبدال كلمة «الفيلسوف» بكلمة «الإيديولوجي المشكك» ، خوفا على القارئ لكي لا يكوّن انطباعا بأن غارودي راح ضحية لاضطهاد الفكر . . . وأكثر من ذلك ، يطالب كاتب المقال بضرورة إبعاد الشباب عن أفكار غارودي الخطرة !

على أية حال ، إن السيد روبير ريديكير عبر عن آرائه بكل صراحة ، إلا أن بعض

مثقفينا العرب يفكرون مثله لكنهم لا يفصحون عن آرائهم . وقد قابلت أحد الزملاء الصحافيين المغاربة ، العاملين في الصحافة الفرنسية ، الذي أخبرني بأنه قام بالاتصال بعدد من المثقفين العرب الكبار المقيمين في باريس ليستطلع آراءهم حول محاكمة غارودي ، فلاذوا بالصمت ورفضوا الإفصاح عن آرائهم . . . فهل ينبغي إحراق مؤلفات غارودي لكي نتخلص من أفكاره؟

شاكر نوري
باريس ٢٠٠٥

القسم الأول

الحوارات

الإرهاب الغربي

– نود أن نسألك عن مبيعات كتابك «الإرهاب الغربي» في فرنسا لأنك طبعته على نفقتك الخاصة؟

– بعت من هذا الكتاب ٣٠ ألف نسخة بطريقة سرية ؛ لأن غالبية المكتبات – كما تعلم – ترفض عرضه وبيعه في واجهاتها . ولعلك تتذكر كيف كسروا واجهة المكتبة الكائنة في الحي اللاتيني ؛ لأنها عرضت كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» .

– كيف تقضي يومك ؟

– كما تراني ، بعد تعرضي للجلطة الدماغية لا أخرج من المنزل ولا أسافر ، وأكرس جل وقتي للقراءة ، فلم تعد لي مشاريع طويلة الأمد وأنا في عمر الـ ٩١ عاما .

– وما هو كتابك الجديد ؟

– قبل كل شيء ، أود أن أخبرك بأنه الكتاب الأخير الذي أقوم بتأليفه هو الكتاب الـ ٥٢ في قائمة مؤلفاتي . أما خلاصته فإنني أريد أن أقول فيه إننا لو استمررنا على الطريق ذاتها ، فإننا سنذهب إلى انتحار كوني مؤكد . والعصر يحمل لنا نتائج كارثية . لا يمكن للأحزاب الوطنية السياسية أن تقدم لنا الحلول ؛ لأن المسألة تكمن في جوهر العلاقات الدولية . هذه هي الأزمة الحالية التي لا يمكن حلها إلا عن طريق الثورة . يعني ذلك أنها تتطلب وسائل السلطة بسائر أشكالها من أجل إيقاف ما يحدث . وانبعاث الجنس البشري يأتي من خلال معركته الكبيرة في العصر . وأعتقد أن الدين سيكون له دور كبير في هذا المجال . ولعل وصيتي تكمن في إيجاد تحالف بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي ، من أجل إحلال السلام العالمي . كما أنني أريد أن أقول كل شيء في هذا الكتاب وأشرح أبعاد النظام العالمي ، وعلى الخصوص ، الأميركي . وفي نظري أن أوروبا لا تجد مصالحها إلا في هذا التحالف ، لكن أوروبا حاليا أميركية وليست أوروبا التي كنا نحلم بها .

– أما زلت تكتب باليد ؟

– أجل كنت وما أزال أكتب باليد ،لكن زوجتي تقوم بطباعة مخطوطاتي ونصوصي على الكومبيوتر بعد إنجازها .

– وما هي ، أبعاد ما يحصل من تدخل أميركي خطير في الشرق الأوسط ، وهل يمكن أن تحقق أميركا حلمها في الشرق الأوسط الكبير ؟

– كان ذلك ممكنا في عهد شاه إيران . والآن أصبحت إسرائيل البيدق الأساسي في السياسة الأميركية . على أية حال ، يجب ألا نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الطوفان الأميركي ؛ لأن الأمر يعتمد على ما نفعله نحن أيضا . أنا لا أفهم لماذا لا نضرب الأميركيين في نقاط ضعفهم ، مثل الميزان التجاري الذي يدعون بأنه الأقوى في العالم ،لكنهم في حقيقة الأمر ، ومهما جاءوا به من إحصائيات وأرقام ، لا يقدرون على خسارة مليار زبون . والوسيلة الوحيدة لمحاربتهم هي مقاطعتها وإسرائيل في آن واحد . والأخيرة لا تتمكن من الاستمرار ستة أشهر بدون دعم الولايات المتحدة . أما ما يخص التكنولوجيا الأميركية فيمكن أن يعوضها اليابانيون .

– ألا تعتقد أن فرنسا تنتهج سياسة مغايرة عن السياسة الأميركية ؛ لأنها ما زالت تؤمن بنظرية «الاستثناء الثقافي» ، الذي لم تتوقف عن الحديث عنه ؟

– هذا صحيح إلى حد ما ؛ لأن الضغوطات الأميركية كبيرة على فرنسا . ومعروف أن فرنسا خسرت في حرب العراق ، حيث حصلت الولايات المتحدة على ٩٠ بالمائة من عقود ما يسمى بـ«إعمار العراق» . وتمت إقالة وزير الخارجية الفرنسي السابق دومنيك دوفيلبان ، الذي رفض إرسال قوات عسكرية إلى العراق ، وقام بتهزئة كولن باول في اجتماع الأمم المتحدة . إن الضغوطات الأميركية على فرنسا تترجم من خلال السعي لتحطيم الزراعة الفرنسية ؛ لأن الأميركيين يمنحون الدعم الضخم لزارعة القمح من أجل تمكينهم من منافسة المزارعين الفرنسيين ، مما حدا بأحد قادتهم إلى القول بأن منافسة الأميركيين أمر مستحيل .

– ما هو رأيك بالأزمة العراقية ؟

– الأميركيون فرضوا أعوانهم على الواقع السياسي العراقي . وفي نيتهم أن

يحولوا العراق إلى قاعدة لاحتلال الشرق الأوسط بكامله .

– هل ثمة اختلاف في سياسة الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة ؟

– دعني أقول لك بصراحة : سواء جاء الديمقراطيون أم بقي الجمهوريون في سدة الحكم ، فستبقى السياسة الخارجية الأميركية على حالها دون تغيير .

– ما هي جدية التهديدات التي تصدرها الإدارة الأميركية ضد إيران وسوريا ؟

– يعتبر الأميركيون مقتدى الصدر ، الثائر حاليا ، امتدادا للإيرانيين . وورطتهم تنبع من المقاومة التي يواجهونها . ورئيس الوزراء العراقي هو الذي أعطى الأوامر بقصف الفلوجة وتدميرها . هكذا وجد الأميركيون حكومة تقوم بتنفيذ إرادتهم في حين هم يغسلون أيديهم من الدماء . وهذا ما يريدونه بالذات . أحد المسيحيين العراقيين قال من على شاشة التلفزيون بأنهم كانوا محميين في العراق حتى وصول القوات الأميركية .

– و بالإضافة إلى المسيحيين ، ما هو دور الأكراد في السياسة العراقية في نظرك؟

– الأكراد تابعون للسياسة الأميركية منذ زمن طويل ؛ لكنهم يمتدون على رقعة كبيرة في سوريا وإيران وتركيا ، ولا نعرف بماذا يتنبأ لهم المستقبل .

– ما هو رأيك بمحاكمة صدام ؟

– إنها فضيحة . إنهم يعيبون على صدام مطالبته بالاستقلال الوطني . لو كنت محاميا لدافعت عن صدام ، ولكنت من خلال هذه المرافعة أحاكم السياسة الأميركية في عصرنا والعصور الماضية . لكني في الوقت نفسه ، لا أقصد من ذلك إبداء المديح الشخصي لصدام ، لأن هذا الأمر لا يخصني بقدر ما يخص العراقيين . ولكن يمكن القول إنه رجل كافح ضد الأميركيين دون أن يفلح .

– ألا تعتقد بأن ميلوسوفتش كان أكثر شجاعة وجرأة من صدام ، حيث

رفض الأول الاعتراف بالمحكمة ، في حين قدم الثاني اعترافا ضمنيا بها ؟

– صدام أيضا رفض التوقيع على لائحة الاتهامات إلا بحضور محام ، وهذا يعني أنه رفض الاعتراف بها .

– ما هو رأيك بانتقال السلطة إلى العراقيين ؟

– انتقال السلطة إلى العراقيين ما هو إلا خدعة ؛ لأن الأميركيين خلقوا من أعضاء الحكومة العراقية المؤقتة مجرد أعوان وخدم لهم . وهذا يذكرني بما كان يقال عن نقل هتلر للسلطة إلى الحاكم الفرنسي بيتان أثناء الاحتلال النازي لفرنسا . وهذا وهم ؛ لأن السلطة الفعلية ما زالت بيد الأميركيين . كما أثبت الواقع ، على مدى أكثر من عام من الاحتلال ، بأن السياسة الأميركية لا تؤدي إلا لمزيد من المجازر والضحايا في صفوف العراقيين ، في حين يحاول الأميركيون أن يضعوا جميع الشرور في شخصية صدام .

– ما الذي تتمناه لهذا البلد ؟

– أتمنى أن يصبح العراق مقبرة للأميركيين . وهذا هو بداية لإفلاسهم ؛ لأنهم سيضطرون إلى مغادرة العراق آجلا أم عاجلا كما اضطروا لمغادرة فيتنام من قبل . ولكن هذه الفكرة ليست واضحة في أذهان الكثيرين .

– ما هي أبرز مظاهر هذه الحرب ؟

– أهم مظاهرها أنها حرب استعمارية كولونيالية . فهي لا تنتمي إلى الحروب الدينية ولا الحروب السياسة . وكما كانوا يطلقون صفة «الإرهابي» على المقاومين في عهد الاستعمار الكولونيالي ، هكذا يطلقون هذه الصفة على المقاومين سواء في العراق أو فلسطين . ومؤسس الصهيونية تيودور هيرتزل أعطى المفتاح لجميع قادة إسرائيل حين كتب في عام ١٩٠٢ «إننا نشكل قلعة متقدمة من الحضارة الغربية ضد بربرية الشرق» . ماذا تعني هذه السياسة ؟ إنها تعني تشريد المواطنين الأصليين وتهديم منازلهم ومن ثم زرع مستعمراتهم . ويريدون جعل فلسطين مستعمرة يطلقون عليها تسمية إسرائيل الكبرى من خلال تكثيف سكانهم .

- ألهذا السبب وجه شارون مؤخرا دعوة لرحيل يهود فرنسا إلى إسرائيل ؟

- بالتأكيد ، لكن لم يسمعه إلا عدد ضئيل ، ولم يغادر إلى إسرائيل سوى ٢٠٠ شخص من بين مئات الآلاف من الجالية اليهودية . ولعل الخطأ الذي وقع فيه كل من شيراك وريفران هو اعترافهما بوجود معاداة السامية في فرنسا . وهذا ليس صحيحا لأن العنف لا يطال اليهود فقط بل يطال جميع المواطنين بدون استثناء . ولا يمكن أن ننسب أي فعل من أفعال العنف إلى معاداة السامية .

من إمبراطورية الشر إلى محور الشر

– بعد مرور ثلاثة أعوام على أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر كيف تقيم هذا الحدث ؟

– من المعروف أن مركز التجارة العالمي والبنتاغون هما من الأهداف الإشكالية التي ترمز إلى خمسين عاما من الهيمنة الأميركية على العالم . ومنذ اندحار هتلر وحتى الوقت الحاضر ، يسعى الأميركيون إلى أن يثبتوا قوتهم الجديدة للتدمير والقضاء على أي منافس لهم في مجال فرض هيمنتهم . ومنذ تلك الفترة ، اقترفت الولايات المتحدة جرائم عديدة بحق الإنسانية ، نذكر منها الجرائم في هيروشيما وناكازاكي وفيتنام والعراق .

– ما هو رأيك بمصطلحات «إمبراطورية الشر» و«محور الشر» وغيرهما مما تروج له السياسة الأميركية ؟

– منذ اليوم الأول الذي أعقب تفجيرات مركز التجارة العالمي والبنتاغون ، سعى البيت الأبيض إلى إعطاء تفسيراته الرسمية لهذه الأحداث . وملخص هذا التفسير أن بن لادن قام بتنظيم شبكة إرهابية تتألف من الأفغان والمسلمين من جميع الدول ، ومن ضمنها المهاجرون من أميركا وأوروبا ، جميعهم قرروا أن ينقلوا «الحرب المقدسة» إلى الأراضي الأميركية . واستخدموا في ذلك أربع طائرات تحولت إلى صورايخ من أجل تحطيم مركز التجارة العالمي والبنتاغون . وهذا التفسير المحدد يبرر أمام الرأي العام البحث عن بن لادن ومحاولة القضاء عليه ، كما يبرر تكثيف القصف الجوي على أفغانستان . كما يسمح لتعبئة حقد وكراهية الأميركيين ضد الإسلام بصورة عامة وخلطه بالإسلاميين . ولهذا نلاحظ أن مصطلح «إمبراطورية الشر» ، والتي طرحها الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان ، تحولت في مفهوم الرئيس الحالي جورج بوش إلى «محور الشر» . وكل ذلك يستهدف الإسلام وتوسعه في العالم أجمع ، وهذا ما يسمح للأميركيين أن يتدخلوا في جميع أصقاع العالم ويبرروا تدخلهم ، ليس في الشرق لأوسط فحسب بل في آسيا وأفريقيا ، كما فعلت الولايات المتحدة في الانقلاب على سوهارتو في عام ١٩٦٥ واقترفت مجزرة بحق ٨٠٠ ألف ضحية .

– ما تزال أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر غامضة ؟

– إن تقديم الولايات المتحدة لتفسيرها للأحداث ، كما قلت لك قبل قليل ، واتهام بن لادن ، أطروحة لا يمكن بالضرورة الدفاع عنها بل هي قابلة للنقاش والتمحيص ، حتى من الناحية التقنية والعملية ، كما أوضح ذلك ٢٠٠ مدني وطيار وعسكري في ندوة نقاش معمقة ، لأن مثل هذه العملية المنفذة بدقة عالية لا يمكن أن تتم إلا على أيدي طيارين محترفين من أجل السير بسرعة ألف كيلومتر في الساعة نحو هدف محدد . كما أن عملية ناجحة ، مثل هذه العملية ، تتطلب معرفة قوانين الممنوعات ورموز التشفير السرية في الفضاء ؛ لأن كل متر مربع فيه مراقب من قبل الاستخبارات العسكرية وجهاز المخابرات الأميركية سي . آي . إيه . إضافة إلى أن كل طائرة مشتبه بها يتم رصدها من قبل طائرات القنص ، ولكن مثل هذه الأوامر لم تصدر أبدا . والنقطة الأخرى تؤكد على أن الولايات المتحدة تملك نظاما يسمح لها بشل خطة الطيران عن طريق التحكم عن بعد «تيليكوموند» ، إما بضربها أو بفرض طريق جوي عليها . وهذا كله لا يتطلب استخدام أي طيار .

– أنت تشترك مع المحلل تيري ميسون ، الذي حاول تفنيد الأطروحة الرسمية لأحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر ؟

– نعم ، أقول إن هذه العملية المعقدة لا يمكن أن تتم إلا من خلال تواطؤ جهاز الدولة ، الجيش وأجهزة المخابرات . وهنا نجد أنفسنا أمام قضية تتعلق بالخيانة العظمى أو بالمؤامرة . وهذه ليست المرة الأولى التي تقوم فيها المخابرات المركزية الأميركية أو يقوم بها القادة العسكريون أو رجال السياسة بمثل هذا العمل الاستفزازي ؛ لإجبار السكان على قبول فكرة إشعال الحرب خارج حدود الولايات المتحدة .

– ثمة نظرة أحادية الجانب ذات أبعاد دينية قومية إلى العالم . . هل يلخص هذا النظرة الأميركية؟

– كانت الولايات المتحدة تدعم حرب بن لادن ضد «عدو الله» ، الذي كان يتمثل بالاتحاد السوفيتي سابقا ، ولهذا أقام الأميركيون علاقات تحالفية مع الطالبان . وهذه المرة ، اقتنع الطالبان ، مع ذات الذريعة الدينية ، بالدخول في حرب ضد عدو الله من نوع آخر ، هي الولايات المتحدة . وعن النظرة ذات الأبعاد الدينية للولايات

المتحدة ، يمكن أن نذكر بوش ، الابن الذي غير لهجته منذ شباط / فبراير من عام ٢٠٠٢ وبدأ ينذر كل من العراق وكوريا الشمالية وإيران بالحرب . ومنذ أكتوبر / تشرين الأول ، كان بوش يتحدث عن «حرب صليبية حقيقية» ، مستوحيا ذلك من نظرية هانتنغتون عن «صدام الحضارات» ، وحسب هذه النظرة ، فإن الحضارة الغربية اليهودية - المسيحية مهددة من قبل «التحالف الإسلامي - الكونفوشيوسي» . وفي لغة المؤلف ، يعني ذلك أن إيران والصين أعداء أساسيون . على أية حال ، قدم بوش هذه السياسةِ على أنها «حرب صليبية» ، التي من شأنها أن تجمع حول الولايات المتحدة جميع القادة الأوروبيين من المستعمرين القدماء . ولكن هذه الحرب الصليبية استثنت الدول المسلمة التي تحتوي على احتياطات البترول ، التي تحتاجها الولايات المتحدة . لذلك سرعان ما قام بوش بتغيير تسمية «الحرب الصليبية» إلى «الحرب ضد الإرهاب» . وأصبح اضطهاد المعارضين ، من قبل جميع الحكومات ، يأخذ شكل «الصراع ضد الإرهاب» . أما الدول التي رفضت الانصياع إلى سياسة الهيمنة ، سرعان ما بدأ بوش بتهديدها ، مثل العراق وإيران وكوريا الشمالية ، التي وصفها بأنها دول «إرهابية» . وبعد مرورِ أشهر على ذلك ، قام بتهديد بعض هذه الدول بتوجيه ضربة نووية إليها .

- ما هو في نظرك سر الحملة المعادية التي شنتها الحركة الصهيونية من جهة وبعض الأوساط العربية من جهة أخرى ضدك؟

ثمة فارق بين الاثنين أو الجهتين ، في الأساس إنها الحملة المسعورة التي شنتها عليّ الحركة الصهيونية وبدأت بإشاعة أكذوبة ، كانت وراءها حركة تسمي نفسها L.I.C.R.A لمكافحة العنصرية ، ورفعت دعوى قضائية ضدي متهمة إياي بالعنصرية ومعاداة السامية الخ . . . وعندما استدعاني الحاكم أخبرني بأنه لا يمتلك الحجج لإدانتي ، إذ إن هذه الحركة ادعت ، دون أن تقرأ كتابي ، في بيانها الذي أصدرته ، بأن غارودي انضم إلى الحركة المعادية للصهيونية . وهذا شيء يبعث على العجب ؛ لأنها ليست المرة الأولى التي تحاربني فيها الصهيونية . ففي عام ١٩٨٢ كتبت مع الأب ليلون والقس ماتيو ومدير صحيفة اللوموند صفحة كاملة لإدانة الغزو الإسرائيلي على لبنان . قلت بأن هذا الغزو ليس مجرد إحساس بل يندرج ضمن منطق النظام الصهيوني . وقد رفعت ضدي دعوى قضائية متهمة إياي بالعداء

للسامية والعنصرية . وقد رفعت هذه الدعوى من قبل L.I.C.R.A. (الرابطة العالمية لمكافحة العنصرية ومعاداة السامية) ، وهي مركز اللوبي الصهيوني في فرنسا . والنتائج كانت متميزة للغاية في محكمة باريس الكبرى ، وقد دحرتهم ثلاث مرات ، فقد اعتبر القاضي بأن النقد الجائز لسياسة دولة ما والإيديولوجية التي تستوحيها أي الصهيونية ، ليس لها علاقة بمعاداة السامية والعنصرية ، وهذا هو كل ما كنا نصبو إلى تحقيقه في هذه المحاكمة . واليوم يكرر التاريخ نفسه ، لأن كتابي هو كتاب سياسي محض ، لا يسعى إلى مهاجمة الديانة اليهودية ، ولا يتهم حتى الدولة الإسرائيلية وإلا لقلت بكل بساطة «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» . إذن الكتاب عبارة عن كتاب سياسي بالدرجة الأولى ، وأريد أن أوضح بأن الصهيونية هي هرطقة وبدعة في الديانة اليهودية ، كما تعبر عن ذلك العبارة الأولى في الكتاب : هذا الكتاب عبارة عن تاريخ هرطقة وبدعة . والهرطقة أو البدعة الصهيونية تعتمد على استبدال إله إسرائيل بدولة إسرائيل . وذكرت بأن هذا الشيء تم تطبيقه منذ تأسيس إسرائيل . والمؤسس الذي هو ثيدور هيرتزل قال بنفسه : (إن المسألة اليهودية ليست بالنسبة لي مسألة اجتماعية ولا مسألة دينية بل هي مسألة قومية) ، وكلمة Negasion أي نفي وجود غرف الغاز لا وجود لها في القاموس الفرنسي ، بل هي جزء من الرطانة Jargon ، وما أطلق عليه السيد بولياكوف «الصهيونية ، الحقد الحقيقي» . وكلمة النفي تنفي ماذا؟ لم أنف أبدا وقوع مجازر لليهود في عهد هتلر ، لم أنف ذلك ، بل أنفي ما تدعيه إسرائيل وعما تشيعه من معتقدات ، بأن اليهود وحدهم تعرضوا للنفي والإبعاد . أنا نفسي تعرضت للنفي والإبعاد ، وأحمل وسام النفي والإبعاد ، وأمضيت ٣٣ شهرا في معسكرات الاعتقال ، وكنت من أوائل الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم لمقاومتي هتلر بتاريخ ١٤ أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٤٠ ، أي في وقت الاحتلال تقريبا ، احتلال فرنسا ، والآن يريدون أن يلصقوا بي تهمة «النازي الجديد» وهذا شيء صعب . وكما قلت إنني لا أنفي وجود المجازر اليهودية ولكن أرفض أن يحتكر اليهود حق النفي والإبعاد لأنفسهم فقط ، وقد وصلوا إلى مرحلة يغيرون فيها جميع الكلمات . على سبيل المثال ، في لحظات تحرير فرنسا كلمة deporte أي (المبعد) و (المنفي) تعني المقاوم ، والآن عندما نستخدم كلمة (المبعد) و (المنفى) تعني اليهودي . المبعدون المقاومون الفرنسيون كانوا أكثر من المبعدين اليهود ، هذا ما حاولت قوله . وإضافة إلى ذلك ، يقال عني بأنني أنفي (ضخامة الجريمة) . كلا فإن

الرقم ٦ ملايين الذي أعطته السلطات السوفيتية في (محاكمة نورمبرغ) مبالغ به ، ولهذا هم يهاجمونني ، لأن قانون (غيسو-فابيوس) يحدد قرارات العقوبة بعام من السجن القاطع ، وبغرامة قدرها ٣٠٠ ألف فرنك . وثمة فصل في كتابي مخصص لهذه المحاكمة بعنوان (أسطورة عدالة نورمبرغ) . على ماذا أعتمد في نقدي؟ أولا إن (محكمة نورمبرغ) ليست محكمة عادية ، بل أنشأها بشكل أساسي المنتصرون ، ورئيسها كان رئيس المحكمة الأمريكية العليا ، السيد (جاكسون) قد أوضح بأن هذه المحكمة هي آخر فعل حربي للحلفاء . إذن هي محكمة استثنائية لا يمكن أن تتشكل ، شأنها شأن المحاكم العادية . وثانيا تؤكد دساتير هذه المحكمة بأنها لا تلتزم بالقواعد الأسلوبية للبراهين ، المادة ١٩ والمادة ٢٠ تنصان على أن جميع التقارير التي يقدمها الحلفاء ينظر إليها باعتبارها حقائق . على سبيل المثال قدم المدعي العام السوفيتي (رودينكو) تقريرا يقول فيه إن الألمان قتلوا ١١ ألف ضابط بولوني . وقد أثبت فيما بعد أن السوفييت أنفسهم قاموا بذلك ، لكن المحكمة سجلت ذلك لأنه جزء من تشريعها ، ولا يمكن الاعتراض عليه . ولأن السوفييت هم أنفسهم الذين حرروا معسكر (أوشفيتس) ، قالوا أيضا بأن ثمة ٦ ملايين قتيل . وقد تم تسجيل ذلك أيضا . ومنذ ذلك الحين أكد جميع المؤرخين ، الذين اشتغلوا على هذه المسألة ، بأن تلك الأرقام لا تعتمد على أسس علمية جادة ، وقد انخفضت تلك الأرقام بشكل متواصل ، إلى اللحظة التي قال فيها (بيناريدا) مدير مركز البحث العلمي ومدير مركز التاريخ المعاصر ، بأن المصادر الوثيقة تحصر عدد الموتى بمليون شخص . وما نفيته أيضا هو مصطلح ال (هولوكوست) لأن هذه الكلمة لها معنى لاهوتي ، عبارة عن تضحية تقوم بها من أجل الله . وهنا فإن اليهود يعتبرون (شهداءهم) فوق الجميع . نحن كنا مجرد مقاومين وهو فعل إنساني ، ولكن بالنسبة لهم يجري ذلك ضمن إطار الهي مثل صلب المسيح عند المسيحيين ، ولكن اليهود يضعون أنفسهم فوق الجميع ، وهذه إرادة الله ، وأنه لا يوجد ضحايا غيرهم ، الأمر الذي سعيت إلى نفيه ، إنهم غاضبون لأنني قلت بأن (الهولوكوست) عبارة عن أسطورة لا تعني ضحاياهم ، إنه لشيء أسطوري أن يعلنوا بأنها من إرادة الله . عندما كنت في معسكرات الاعتقال كنت أشعر بأنني أقوم بمهمة إنسانية ، المقاومة ، ولم تنتابني مشاعر بأن الله اختارني أو عينني لهذه المهمة ، لست نبيا ، والآن يهاجمونني بصدد ما أثرته في قضية نورمبوغ .

- إذن الضغوطات الصهيونية هي التي أثارت القضية ضدك؟

- لقد أوضحت بأن الحركة الصهيونية في العالم أجمع عبارة عن جهاز تابع لدولة إسرائيل ، وأعطي في كتابي المراجع ، وقد ذكرت تلك المصادر في كتابي (فلسطين . . . أرض الرسالات المقدسة) . في القوانين الأساسية في إسرائيل حول قانون العودة ، ثمة توضيح يشير إلى أن جميع المنظمات الصهيونية في العالم مسؤولة أمام الدولة الإسرائيلية ويحددون المهمة في خلاصتها : الجميع يخدم نموذج الدولة ، وفي الولايات المتحدة تبدو هذه الظاهرة بصورة ملموسة أكثر ، إذ إن هناك اللوبي المسمى A.I.P.A.C (لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية-الأمريكية) وفي كتابي أشير إلى أن جميع الرؤساء الأمريكيين يضطرون إلى إقامة صلات وعلاقات مع هذا اللوبي الصهيوني . وعندما أراد رئيس الهيئة الأجنبية في البرلمان ، السيناتور فولبرايت ، الرجل الثاني في السلطة ، أن يجري تحقيقا حول اللوبي الصهيوني سرعان ما سقط في الانتخابات اللاحقة ، وكان واحدا من الرجال الأقوياء في الولايات المتحدة .

- نشاط اللوبي الصهيوني معروف بسلطته وهيمنته ، هل يمكن لك أن توضح لنا أبعاد هذا اللوبي في فرنسا؟

- ظاهرة اللوبي الصهيوني في فرنسا لا تظهر بشكل ملموس كما في الولايات المتحدة . على سبيل المثال فإن الحاخام الأكبر الحالي عندما زار إسرائيل في عام ١٩٩٠ كان اسحق شامير آنذاك رئيسا للوزراء . وهو الذي اقترح تحالفه مع هتلر في عام ١٩٤١ . أعلن (بأن كل يهودي في فرنسا يمثل إسرائيل مضيفاً بأننا ندافع عن كل ما تدافعون عنه) . وفي اليوم التالي عندما عاد إلى فرنسا قال إن تصريحه لا يعني الولاء المزدوج . وثمة مثال آخر أثناء المحاكمة الحالية عندما دافع عني الأب بيير ، سارع هاجدنبر وهو رئيس الجالية اليهودية إلى طرد الأب بيير من كنيسة فرنسا . وفي اليوم التالي أصدرت كنيسة فرنسا قرارا بطرده ، هذه سلطة خارقة أليس كذلك؟ السيد جاك شيراك رئيس الجمهورية الفرنسية ، ألقى خطابا في إحدى مناسبات استعادة ذكرى نفي وإبعاد بضعة آلاف من يهود فرنسا إلى ألمانيا ، قال فيه : إن الدولة الفرنسية ، (وهو يتحدث عن حكومة فيشي ، والشعب الفرنسي الذي سار معه آنذاك) اقترفت جريمة . ومن المعروف أن الجنرال ديغول لم يعترف بفيشي كحكومة شرعية ، وأنها لم تكن سوى رغوة فوق جسم ظل سليماً ، والدليل على ذلك تحرير

باريس وثورة عمال السكك الحديد ، التي ساهمت بشكل فعال في تحرير فرنسا . فإذا كان ماقاله جاك شيراك صحيحاً ، فإن ديغول يُعدّ هاربا من العسكرية ، ونحن الذين تم إلقاء القبض علينا كمقاومين ، نُعدّ خونة وإرهابيين . إنها سلطة اللوبي التي فرضت هذا التفكير على جاك شيراك . وكما قلت قبل قليل عندما طلب الحاخام الأكبر من كنيسة فرنسا طرد الأب بيير فعلت الكنيسة ذلك ونفّذت أوامره .

وزير العدالة الفرنسي الأسبق هو الذي قام بتدبيج قانون (غيسو) ، أحد النواب في حزب شيراك بأن كل ذلك جرى في ظروف صعبة للغاية ، لأن التاثير الخارجي مارس تهديدا ابتزازيا واضحا ، على النواب ، حسب تعبيره ، ويقصد بذلك اللوبي الصهيوني . لا أحد يتجرأ حالياً على مراجعة هذا القانون ، لأن مراجعته تعني الآن مساندة غارودي ونزع تهمة نفي وجود غرف الغاز عنه ، وهذا يدل دلالة واضحة على تاثير هذا اللوبي . إن اللوبي الصهيوني الفرنسي عبارة عن جهاز من أجهزة الدولة الإسرائيلية . وسواء في الولايات المتحدة أو في فرنسا يفرض اللوبي الصهيوني رأيه على هرم السلطة ، ابتداء من رئيس الجمهورية والمجلس الوطني والكنيسة ، إلى الصحافة ، لأن جميع الصحف والمجلات نشرت الأفكار ذاتها ، يعني أن هناك قائد أوركسترا والجميع يطيع هذا القائد ويخضع لأوامره . وكما قلت إن السيد فولبرايت خسر مقعده كسيناتور ؛ لأنه قال بأن ٨٠ بالمائة من السيناتورات يتحركون حسب أوامر اللوبي الصهيوني وليس حسب المصالح الأمريكية .

- ما هي الأسس التي يعتمد عليها البعض في اتهامك بأنك (مرتّد) عن الإسلام ، وهل الغرض من هذه الحملة معروف؟

- (مندهشا) لا أرى أي ارتداد في حالتي ، إنني في هذا العمر ، بقيت مخلصا لأحلامي عندما كنت في العشرين ، يعني ذلك ربط الإيمان الإبراهيمي (اليهودي-المسيحي-الإسلامي) بالفعل السياسي ، وفي أحسن تحليلاته هو التحليل الماركسي ، ولا يوجد هناك خمسون منظرًا للرأسمالية ، بل هناك اثنان هما آدم سميث وكارل ماركس . كان آدم سميث يقول إذا كان كل شخص يجري وراء مصالحه فإن المصلحة العامة تتحقق آنذاك ، واليوم نرى اختلال التوازن بين الشمال والجنوب ، وحتى اختلال التوازن في داخل المجتمع الأكثر غنى مثل الولايات المتحدة ، حيث قال كلينتون في حملته الانتخابية إن ٢٠ بالمائة من السكان يمتلكون ٧٠ بالمائة من الثروة

الوطنية . وماركس قال وهو معجب بآدم سميث : صحيح أن الرأسمالية ذات غنى كبير وتعطي دفعا كبيراً لتقنية العلوم ، ولكنها تسبب أيضا العطالة والتهميش ، من هو على حق آدم سميت أم كارل ماركس؟ ولهذا السبب فقد تمسكت وما أزال بالماركسية .

- هل ثمة عودة في نظرك إلى الماركسية في ظل ظروف ما يسمى بـ (النظام العالمي الجديد)؟

- لسنا بحاجة للعودة إلى الماركسية ، بل ينبغي علينا أن نعثر على ماركس وليس ترديد مقولاته فقط ، إذ إن ماركس حلل بشكل رائع الرأسمالية في القرن التاسع عشر ، وفي البلد الأكثر تطورا ، إنكلترا آنذاك ، واليوم لسنا بحاجة لترديد مقولاته بشكل غبي ، بل علينا استخدام منهجه في تحليل الأوضاع الحالية ، كما كان يفعل الراحل جورج مارشيه ، رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي لسنوات طويلة ، مؤكداً على أن تناقضات الرأسمالية تختفي وراء قناع . هذا صحيح ، ولكن التناقضات ليست كما كانت في الماضي ، ثمة شيء متواز لما يحصل في الإسلام . في تقاليد السنة هناك الشافعي وأبو حنيفة ، ولكن أين تكمن عظمة أبو حنيفة؟ إنه عاش في بلاد فارس التي كانت فيها التجارة مزدهرة وتقاليد الحلكم راسخة ، وكل هذه المظاهر لم تكن متوافرة في المدينة التي عاش فيها محمد ، وقد أوضح أبو حنيفة لنا كيف يمكن العيش حسب المبدأ القرآني في مجتمع مختلف تماما ، وهذه هي العبقرية . وإذا ما رددنا مقولات أبي حنيفة في عصرنا الحاضر نبدو أغبياء تماما ، إنها تماماً كما لو نردد مقولات ماركس . وبالرغم من عبقرية أبو حنيفة لا أجد في فكره إجابات عن مشاكل عصرنا مثل : القنبلة النووية ، الشركات المتعددة الجنسية ، والإمبريالية الأمريكية ، إنه شيء لا معقول ، وهكذا فإن الشافعي يقول لأبي حنيفة بأنك لا تقول هذا الشيء في مصر بينما كنت تقوله عندما كنت في بلاد فارس ، فيجيبه بأن الأوضاع التاريخية هي التي تقرر ، وأعرف بأنني بذلك أضع كل شيء على عاتق السنة (يضحك) .

- لديك مشروع يحتوي على ثلاثة كتب تحلّل التطرف في الديانات التوحيدية ، بعد كتابك هذا ، هل ثمة مشروع لدراسة المسيحية والإسلام؟

– كانت الدراسة الأولى ضد التطرف الكاثوليكي ، وهو انتقاد لاذع للبابا نشر في عام ١٩٩٢ ، وقدم له الأب بيير . والثاني ضد التطرف الإسلامي . وعندما قلت بأن التزمت هو مرض الإسلام أحدث ذلك فضيحة وهاجموني في مطبوعة (سعودية) ، فقد قلت في كتابي (عظمة وانحلال الإسلام) الذي أدنت فيه بؤرة التزمت الإسلامي ، وشخصت الضلوع في الغزو الأمريكي في الشرق الأوسط بمثابة (العهر السياسي) الذي يجعل الإسلاموية مرضا للإسلام ، وهذا شيء لا يغتفر . أعرف ذلك ، خصوصا من الملك فهد الذي سلمني بنفسه جائزة فيصل منذ أكثر من عقدين ، ولا يوجد أي سبب لأبدل رأيي بما قلت ، وهذه هي المسألة عندما نقول تطبيق الشريعة ، كما يقول الإسلاميون ، وحتى (جبهة الإنقاذ الإسلامية) ، وأقول (جبهة الإنقاذ الإسلامية) لأنهم الأقرب إلينا نحن الفرنسيين ، لهم الحق في رفض كل شيء ، إنهم يرفضون العائلة ، التأثير الفرنسي ، والتأثير الأمريكي ، أقول لهم : «برافوا» ولكن ليس كل شيء إيجابي في برامجهم ، فقد أرسل لي بن بلة برنامجه ، لم يذكر أشياء حول العطالة ومشكلة السكن والجيش ، وهي من المشاكل الأساسية . لا أهمية للنقد عندما لا نطرح البديل ، وهو يصبح مشروعا عندما يكون هذا النقد هو المشروع . ليس ثمة مشروع ، بل هناك ترديد أعمى يقول ، ماهو تطبيق الشريعة؟ قل لي هل هو قطع الأيدي وإجبار النساء على ارتداء نوع معين من الثياب . . . وتطبيق قانون الإرث الذي يعطى بموجبه للرجال ضعف ما يعطى للنساء ، هذه قوانين كانت تستجيب للعصر الذي عاش فيه النبي محمد ، في زمن القمح ، والجمال ، واليوم لسنا بحاجة إلى ذلك . يمكن إخبار السكرتيرة لتحويل مبلغ مائة ألف دولار من البنك الفلاني إلى البنك الفلاني ، وأنت بذلك تقوم بسرقة أجور عشرة آلاف عامل لمدة عشرة أعوام . لم يتطرق القرآن لذلك لأن هذه الحالة لم تكن موجودة ببساطة ، كيف يمكن أن نطلب من النبي محمد تنظيم القوانين المصرفية في القرن السابع؟

– إذن نفهم من ذلك أنك تسعى إلى إسلام حديث يستجيب إلى العصر الحاضر بكل متطلباته الحضارية ، وهو يختلف عن الإسلام التقليدي؟

– مفهومي للإسلام ليس مختلفا ، فهو ليس إسلاما قرآنياً محدداً ، وقد فتح الله الطريق ذاته أمام إبراهيم وموسى وعيسى ، ماذا يعني ذلك : إن الله هو الذي يملك كل شيء وهو بمثابة ثورة اجتماعية ، لأن الأمر كان مختلفا عن القوانين الرومانية قبل قرن

من مجيء النبي محمد . وعندما يكون الله المالك الوحيد ، يعني أن الإنسان هو المسؤول في التصرف بالأموال أمام الله . في الأيام الأولى للإسلام كانت الأرض تعطى للفلاح الذي كان يزرعها ، وإذا كان ثمة نجاح للإسلام في إسبانيا فلا يعود ذلك إلى القوة العسكرية فقط ، لأن الإسلام جاء كمحرّر لأن الإقطاع كان يستولي على جميع الأراضي ، وقد أعطاها الإسلام لمن كان يزرعها ، والشيء الثاني الله وحده الذي يأمر ، ليس بالمعنى الثيوقراطي المسيحي للقرون الوسطى ولمنطق الرهبان الذين يتكلمون باسم الله . وهذا يعني أنه لا يوجد في الإسلام وسيط بين المؤمن وبين الخالق . ثالثا ، الله وحده الذي يعرف كل شيء ، وهو أفضل علاج ضد الدوغمائية ، أي أن كل ما كان يقوله الإنسان عن الله وعن الطبيعة هو صادر عن الإنسان ، وهو شيء مؤقت ، ويمكن مراجعته في التاريخ ، إلاّ أن ذلك لم يطبق وللأسف الشديد . . . ولهذا السبب فإنني ضد مفهوم السنة التقليدي ، وأن أكون مسلما لا يعني أن أكون موضوعا عباسيا في القرن الثاني عشر .

ما هي مهمتنا كمسلمين في الوقت الحاضر؟ انطلاقا من المبادئ الثلاثة التي ذكرتها ، ينبغي أن نبدع القوانين التي تتلاءم ومتطلبات عصرنا الحاضر .

– أي مذهب قدم الاجتهادات في الإسلام بنظرك ؟

– إن فكرة الإمام الغائب هي في مركز المذهب الشيعي ، وهذا ما يسمح ربما بمراجعة وتحديد أمور كثيرة . ولكن للأسف الشديد ينبغي القول بأن الأمور لم تتطور بهذا الشكل . عندما أطلق الخميني (شعار الله أكبر) كان عملا تمرديا ضد الشاه الذي كان يريد أن يطرح النموذج الأمريكي على إيران ، لكن بعد ذلك لم يتمخض عن ذلك ولادة قوانين جديدة تتلاءم مع متطلبات القرن العشرين .

– مازال الغرب يضع إسرائيل في مواجهة العالم العربي ، ويمدّها بالمال والسلاح ، بحجة أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط . ما هو رأيك بذلك؟

– عندما نقول إن الدولة اليهودية ، هي الديمقراطية الوحيدة الموجودة في الشرق الأوسط ، فهذا شيء لا معنى له ، فماذا تعني الدولة اليهودية؟ هل تعني أن المواطنين الآخرين غير اليهود من المسيحيين والمسلمين هم مواطنون من الدرجة الثانية؟

تضع الديمقراطية في التعريف العلمي الناس على قدم المساواة ، وفي الوقت نفسه لا أعرف دولة تسمي نفسها دولة إسلامية أو دولة مسيحية . لا يحق للمسيحيين في المملكة العربية السعودية أن يشيدوا كَنائسهم . الدولة الديمقراطية تعني الدولة التي يشيد فيها المسيحيون كنائسهم واليهود معابدهم ، كما هو الحال في العديد من الدول العربية الأخرى ، حتى في ظل خليفة قرطبة كانت الكنائس والمعابد مفتوحة .

– ما هو رأيك بالمرأة المعاصرة التي يروج لها في وسائل الإعلام حالياً؟

– إن استخدام الجنس الأنثوي أو العري الأنثوي في الإعلانات ليس شيئا جديداً ، لدينا ثمة ما يمكن أن نطلق عليه إعلانات تحت (البطن) ، مما أدى إلى ردود أفعال عنيفة لدى الشخصيات النسائية المرموقة . وهدف أغلب الأفلام القادمة من هوليود هو تحطيم الثقافة في جميع بلدان العالم ، وهي تتعامل مع المرأة كـ (موضوع جنسي) فقط ، وتستخدم في تلبية رغبات الرجل . أعتقد أننا نبالغ كثيرا فيما نطلق عليه حرية المرأة . أنظر إلى فرنسا على سبيل المثال ، لا يوجد سوى ٣ بالمائة فقط يشغلن منصب مدير شركة ، وأنا أتحدث عن الشركات الكبيرة وليس تلك الصغيرة التي تمتلكها نساء . أما إذا نظرت إلى البرلمان فلا تجد سوى ٧ أو ٩ بالمائة من العنصر النسائي ، وإنني أتحدث عن تجربة حيث كنت نائبا برلمانيا طيلة أربعة عشر عاما ، وعلاوة على ذلك كنت عضوا في حزب يضم كثيرا من الأعضاء النسوة ، وهو الحزب الشيوعي الفرنسي ، وهن نساء استثنائيات مثل مدام ما تليد دي بيري وأرملة غابريل بيري ماري كوتوريبه ، التي كانت تشغل منصب نائب رئيس المجلس الوطني ، ولا يمكن أن نقول إن هذه الوضعية تكشف عن مكانة المرأة ، والآن يحاولون تخصيص نسبة معينة للنساء . أعتقد أننا نتوهم كثيرا حول سلطة المرأة في مجتمعنا الغربي . وعلى النقيض من ذلك ، أكرر بأن جميع أشكال النظرة الدونية لوضعية المرأة ، آتية من تقاليد الشرق الأدنى ، على سبيل المثال إن دور المرأة في الإنجيل يكاد يكون ملغيا ، وحتى في المجتمع المسيحي في عهد القديس بول ، الذي يقول بأن النساء يجب أن يلزمن الصمت في البرلمان ويطعن أزواجهن ، أي يوافقن على كل مبادئ المجتمع اليوناني حيث يقدم نموذجا إنسانيا ، وموستيل هومين صنف النساء حين قال إنه يجب أن تكون لنا نساء لإنجاب الأطفال ، وعشيقات للمتعة ، وعاهرات للرغبة ، هذا هو المفهوم الغربي للمرأة الذي استقاه من الإنسانية اليونانية بمعنى من المعاني ،

وفي صلوات اليهود يقولون : يشكر الرجال الله لأنه لم يخلقهم نساء ، وهذا هو أيضا جزء من تقاليد الشرق الأوسط . وعندما يتم الحديث عن تعدد الزوجات في الإسلام ، ينبغي ألا ننسى أنه يقال في الإنجيل إن سليمان كان له ثمانمائة زوجة إضافة إلى العشيقات . ثمة مبالغة في ذلك ، ولكن هذا يدل على أن ذلك يعبر عن التقاليد الغربية مثلما يعّبر عن التقاليد الشرقية .

– ما هو رأيك بـ (نسوية الكتابة)؟ كمعيار في التقييمات وخصوصاً في ميدان الكتابة؟

– كل أشكال اضطهاد المرأة متأتية من تقاليد الشرق ولا دخل للإسلام فيها ، فوضع المرأة في القرآن أفضل مما هو عليه في المسيحية ، فالقرآن يؤكد على أن الله خلق الرجل والمرأة في الكائن نفسه . ثمة عدالة ، حتى أقول عدالة لاهوتية ، لا يوجد ميثلٌ لها في مكان آخر ، وجميع الأشكال الأخرى ، مثل النظرة الدونية والعنصرية ما هي إلا جزء من تقاليد الشرق الأوسط . كل التقاليد محترمة ولكن شريطة ألا تفرض على أحد .

– وما هو رأيك بالكتابة النسوية بالذات؟

– هناك مختصون بهذا المجال ، وقد كتبت عن ذلك ، حتى إنني لم أكن متفقا مع M.L.F (حركة تحرير المرأة) ، لأنني أعتقد بأن ثمة مفهوماً مزيفاً يتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة ، وليس الهدف أن نصنع من المرأة رجلا . منذ ستة آلاف عام ، كل القوانين والتشريعات والدساتير صنعها الرجال لصالح الرجال في جميع أنحاء العالم . والرجال هم الذين ابتدعوا الحروب ، إذن ليس الهدف أن نصنع من المرأة رجلا ، لذلك لا علاقة لسياسة السيدة (تاتشر) بالمرأة ، فأي رجل محافظ غبي كان يسلك سياستها نفسها ، لا تكمن المشكلة هنا بل على العكس ، إنها تكمن في تأنيث كل العلاقات الاجتماعية ، هذه هي الأطروحة الأساسية في كتابي حول موضوع المرأة ، وللأسف الشديد ، لم يظهر لي سوى مثال نموذجي واحد وهو مدام دولوردس التي (شغلت) منصب رئيسة الوزراء في البرتغال ، وأعتقد أن تأنيث السياسة بدأ منها ولم أجد في السيدة أنديرا غاندي نموذجاً كذلك .

- تشغل قضية المرأة ، استلابها وحقوقها ومكوناتها ، ذهن غالبية المفكرين سواء في الشرق أو في الغرب ، إلا أن الغرب الأوربي كثيرا ما يستخدم هذه القضية لأغراض سياسية ولتحريف الحقائق ، ما هو رأيك بذلك؟

- أصابتني الدهشة أن أرى هذا العدد الكبير من النساء اللائي يتولين مسؤوليات إدارية كبيرة في العالم الإسلامي . على سبيل المثال ، أجريت معي حوارات تلفزيونية ثلاث مرات ، اثنان من المحاورين كن نساء يجدن اللغة الفرنسية ، وقد أكد لي خامئتي ، وهو مرشد الثورة الإيرانية ، بأنه لا يوجد في إيران قانون يحرم أي منصب تتبوأه المرأة ، وهذا يبدو لي على جانب كبير من الأهمية ، كما أشار خامئتي أيضا إلى الحقوق الاقتصادية للمرأة ، على سبيل المثال وضعية ملكيتها للثروات ، وهذا الحق لم تتمتع به المرأة . الفرنسية إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وهذا الحق يعود تاريخه إلى زمن النبي محمد على سبيل المثال ، حق المرأة في طلب الطلاق من زوجها كان مطبقا في الإسلام ولم يتحقق ذلك في إيطاليا إلا منذ عدة أعوام فقط ، وكان هذا الحق موجودا في زمن محمد . إذا ما رأينا أوضاعنا سيئة مثل الخضوع وغيره بالنسبة للمرأة المسلمة ، فهذا يعود إلى التقاليد التي ترى تكريس هذه الأوضاع للمرأة . والتقاليد الموجودة في الشرق الأوسط لا علاقة لها بالإسلام . وحتى يمكنني الذهاب إلى أبعد من ذلك : من هو أو من قال بأن المرأة التي ترفض وضع الحجاب يجب أن تعدم؟ والعقوبات نفسها تُنزل بالعاهرات . من قال ذلك؟ إنه القديس بول .

- ما هو نموذج المرأة الذي أثار انتباهك في التراث العربي الإسلامي ؟

- إحدى أهم رائدات الصوفية رابعة العدوية في البصرة ، وما هو هام أننا نجد عندهن موضوعات كما نجدها عند النساء الكبيرات في المسيحية . ثمة سمات مشتركة بين رابعة العدوية والقديسة تيريس ، كما أن هناك سمات مشتركة بين شعر ابن عربي وشعر القديس جان لاكروا ، وأعتقد أن الإسلام الأندلسي كان الأكثر انفتاحا . نجد الشاعرة ولادة التي كانت تدير أكبر صالون أدبي عندها ، إنها عبارة عن استثناء لأنها ابنة خليفة ، ولكن شعرها كان جريئا للغاية ، وخصوصا علاقتها مع الشاعر ابن زيدون ، والتبادل الشعري بينهما كان مذهلا . وذلك يعني أن للمرأة مكانة كبيرة ، على الرغم من تشويه بعض الفقهاء لهذه المكانة .

- لماذا كل هذه الضجة التي أثيرت حول طالبة عربية مسلمة كانت تضع الحجاب في مدرسة فرنسية؟

- أجل . . . إن مدرسا للرياضيات في مدرسة فرنسية رفض أن يلقي محاضرته لأن طالبة عربية مسلمة كانت تضع الحجاب في غرفة الصف . هذا يدل على أنه يخون مسؤولياته كمدرس . ماذا تعني له أو للآخرين الملابس التي ترتديها هذه الطالبة أو تلك؟ لا توجد ضرورة لافتعال فضيحة عامة من ذلك . على سبيل المثال إن طالبا يهوديا يضع على رأسه قلنسوة لم يكن يمنعني من إلقاء محاضراتي ، عندما كنت أستاذا في الجامعة ومساعدتي في الجامعة كانت امرأة دينية ترتدي ثوب الرهبنة ، لا أهمية لذلك ، كما أن هناك إيحاء في أمريكا بأن الصراع بين العراق والكويت أمر داخلي لا يهم الأمريكيين ، وفجأة تذكروا بأن هناك قانوناً داخلياً ، في الوقت الذي اخترق فيه الصهاينة هذا القانون الدولي ٢٣٨ مرة دون عقاب . وعندما ضمت إسرائيل القدس أدينت لكنها لم تتعرض للحصار ؛ لأن أمريكا تقف بجانبها . ولكن عندما يدخل صدام حسين إلى الكويت ، تحدث الجزرة ، لماذا؟ لأن القدس مدينة مقدسة ، لكن الكويت مقدسة ألف مرة ، لأنها احتياطي بترولي ، وبترولها يعادل نصف البترول العراقي ، والكويت (دولة) لا يوجد أي سبب لوجودها ، لأنها حتى أثناء حكم الإمبراطورية العثمانية كانت محافظة تابعة لإقليم البصرة . وفي عام ١٩٦٢ تم تأسيس الكويت ؛ لأن الزعيم عبد الكريم قاسم أعلن عن تأميم نفط العراق ، المتمثل بالشركة الاحتكارية ، (عراق بتروليوم) ، التي كانت تستغل ٩٨ بالمائة من الأراضي العراقية التي تحتوي على البترول . وأنذاك هدد الإنكليز بالتدخل العسكري ، فاضطر عبد الكريم قاسم للإذعان . وحكامها ما هم إلا دمى متحركة ، إنها منطقة غنية بالبترول ، وكان لا بد من تقطيعها وتقسيمها من أجل الهيمنة عليها .

- لماذا ما يزال العالم العربي والاسلامي يعاني الكبت ، ماذا تأمل في كفاحك ضد الصهيونية؟

- الأصح أن تقول كفاحي ضد التزمت ، سواء كان يهوديا أو إسلاميا أو مسيحيا ، لنعود إلى تطبيق الشريعة كما يرسمها القرآن وليس كما يرسمها غارودي . ذلك موجود في القرآن ، لنطبق القرآن على المملكة العربية السعودية ، الله وحده الذي يملك ، ماذا يفعلون بهذه الثروات الطائلة الضخمة عندما يستخدمون الناس

كعبيد مثل البنغاليين والفلبينيين والآخرين ، السعودية هي المركز العالمي للتزمت ، والبترول السعودي يتحول إلى المستنقع الأسود للإسلام . ولنطبق المبدأ الثاني ، الله وحده الذي يأمر ، الملكية المطلقة هي التي تخلق الدساتير والقوانين في المملكة العربية السعودية . ولنطبق المبدأ الثالث ، الله وحده الذي يعرف والسعودية تفرض علينا عقائد دوغمائية يطلقها بعض الشيوخ ، هل هؤلاء يعلموننا؟ إنها أسس المملكة ، ولهذا السبب يوجهون انتقاداتهم إلي . وعندما قلت بأن الفسق السياسي يتمثل في استقدام نحو نصف مليون ألف جندي أمريكي إلى السعودية ، أثار ذلك مجادلة حامية على صفحات (اللوموند) بين القس باردا والسفير السعودي ، فقد سأل القس باردا عن سبب عدم بناء كنيسة أو معبد على أرض المملكة العربية السعودية ، فأجابه السفير السعودي بأن هذه الأرض مقدسة ، لذلك لا يوجد مكان للكنيسة ولا للمعبد . وأنا أقول إذا كانت هذه الأرض مقدسة فلماذا استقدموا هذا العدد الهائل من الجنود الاميركيين لمحاربة العراق . وعندما انفجر تمرّد في مسجد مكة استقدموا الجنرال باريل مع قواته لاقتراف أكبر مجزرة بشرية لإحلال النظام . وعندما وقعت مشكلة مع الإيرانيين ، استقدموا الجنرال غوندفيردنر ، ووضعوه على رأس الحرس الوطني السعودي . هل هؤلاء هم حراس الأماكن المقدسة؟ ولذلك قلت بأن السعودية تمثل (الفسق السياسي) . الشيء نفسه حصل مع حسني مبارك ، فقد حذف الأمريكيون ٥ مليارات دولار من ديونه شريطة أن يدخل في الحرب ضد العراق ، وهو ما معناه ، أنا أدفع لك وأنت تفعل ما أريد ، هذا هو الفسق بعينه ، أن ننظر إلى كل هذه الأشياء من خلال ارتباطاتها بواقع ممارسة السياسة . إن عصب الازدهار في الغرب هو البترول ، لذلك أصبح هدف الأمريكيين هو الهيمنة على البترول في جميع أنحاء العالم .

وأعتقد أن هذا ينطبق على الصحافة العربية أيضا وقد جرى ذلك مع الأب ببير ، الذي هددوه بعدم دعمه ماليا إذا اتخذ موقفا لصالحي .

- الممارسات التي تقوم بها المملكة العربية السعودية ، والتي ذكرتها قبل قليل ، تحاول أن تجد لها دعائم فكرية سواء في تراثنا العربي- الإسلامي أو فيما ينتجه الغرب من تقنيات جديدة ، ماهي هذه الدعائم في نظرك؟

- المملكة العربية السعودية تفهم الإسلام في أضيق مفاهيمه ، في الوهابية .

وفي رأيي أن الوهابية كانت في بادئ الأمر حركة إصلاحية على يد عبد الوهاب محمد . إنها في الحقيقة تسير في تيار ابن حنبل ، أي في التيار الأكثر انغلاقا ، الذي يضع التقاليد في الدرجة الأولى ، يقول ابن خلدون إن أبا حنيفة استخدم بضعة أحاديث ، فيما استخدم ابن حنبل أحاديث كثيرة . . من أين جاء بها؟ وبعد الوهابية هناك ابن تيمية ، الذي يمثل ظل السلطة الكبيرة . لماذا كل هذا الاحترام لابن تيمية ، لأن هذا الرجل كان يقول بما معناه (من الأفضل أن نقوم بثلاثين عاما من العبادة على ساعة واحدة من التمرّد) . كما أن السعوديين يستعبدون المتصوفة؟ ولأول مرة تحدثت فيها عن ابن عربي ، كانوا يقولون لي إنني أتحدث عن الشيطان ؛ لأن المتصوفة كانوا يتمتعون بالحرية وأنا أحب ابن عربي كثيرا لأنه لا يفرق بين المسيحيين والمسلمين . والقرآن يتحدث عن المسيح ، وأولئك يصورون القرآن تصويرا كاريكاتوريا . أتذكر أنني قرأت جميع الآيات القرآنية أمام خمسمائة مؤمنة مسيحية ولاهوتية في إسبانيا وهي تتحدث عن المسيح ، بشكل رائع . والقرآن لا ينكر العذراء . ابن عربي يقول إن محمداً هو أصل التوبة بينما المسيح هو أصل القداسة ، ولهذا كان ابن عربي يظل مندهشا لإهمال هذه التقاليد .

– ثمة اتهام يوجه ضدك بأنك تعمل على تحريف الإسلام ، كأن تختصر الصلوات الخمس إلى ثلاث صلوات . ما صحة هذا الادعاء؟

– لم أختصر شيئا ، وهذه أكذوبة أخرى ، قلت إن القرآن يجب أن يذكر في الصباح . ينبغي الصلاة ، أي التفكير بما نقوم به طوال اليوم ، وفي الظهر ، نفكر بما قمنا به في اليوم ، وفي المساء نعمل الحساب . لا يوجد في القرآن تحديد للصلوات ، قلت بأن الصلاة تعني التفكير بأشياء عامة وليس التفكير بأشياء خاصة . ثمة صلاة واحدة في العالم حتى لو اختلفت من شعب إلى آخر .

– ما هو في نظرك البديل الحقيقي لما يسمى حاليا بـ(النظام العالمي الجديد) وهل تتوقع ظهور أقطاب جديدة تقلب الهيمنة الأمريكية على عقب وتخلق توازنات جديدة ، وتؤثر بالتالي على مصير الشرق الأوسط؟

– إننا في قلب حروب دينية ، الدين المهيمن حاليا ليس هو الإسلام ولا المسيحية ولا اليهودية ، بل هو ما أطلقت عليه (وحدانية السوق) . وهناك إله واحد هو

الدولار . وحرية السوق الآن تعني أن القوي يأكل الضعيف ، كالمثل الشائع إن الثعلب حر والدجاجة حرة أيضا ، إنه الشكل الجديد للاستعمار . الأب لكوردير كان يقول بين القوي والضعيف الحرية هي التي تضطهد ، هذا شيء نموذجي الآن ، أنظر إلى الأمريكيين وما يحدثونه من قلاقل للصينيين ومقاطعة بضائعهم بحجة أنها مزيفة ، على سبيل المثال تذهب إلى المغرب وتشتري بضائع تقلد ماركة كريستيان ديور أو كارتييه أو هيرميس أو إيف سان لوران . إنها مصنوعة طبقا للأصل ، حتى إن ابنتي تشتري هذه البضائع لأنها رخيصة الثمن . الأمريكيون يجعلون من أنفسهم حماةً لهذا العالم من أجل الترويج لبضائعهم . الحرية هنا تعني تماثل العالم مع الولايات المتحدة ، ومن السهل التنبؤ بما يحدث ، ولا حاجة بنا أن نصبح أنبياء لنعرف أن الهدف التالي سيكون إيران والثاني سوريا والثالث السودان ، وبعد ذلك يصبح بترول العالم بأيديهم ، أي ٩٩ بالمائة من بترول العالم .

- ما هو رأيك بالحصار الذي اضطهد الشعب العراقي طيلة أكثر من عقد؟

- الحصار شيء وحشي (صارخ) وإذا ما عدنا إلى حقوق الإنسان فإن مائة ألف طفل يتوفى في العراق سنوياً ، وفي العالم ثمة ١٥,٥ مليون طفل يموتون سنويا من سوء التغذية والجوع ، وإذا أضفنا إليهم الكبار فيصبح العدد ٦٥ مليوناً ، وعملية التطور في الغرب تكلف بلدان الجنوب ما يعادل قنبلة هيروشيما كل يومين ، هذه هي الخطورة ، الشعب العراقي هو الذي يدفع ثمن هذا الحصار مهما فكرنا بصدام حسين سواء أحببناه أو كرهناه ، هذا أمر لا يعنيني لأنني لست عراقيا ، أنت عراقي ، ولكن لدي رأي فيه ولست مجبرا على قوله . الشيء المهم أن هذه الحرب هي حرب استعمارية ضد العراق وليس هناك ما يبرر استمرار هذا الحصار الآن ، وأقول لك بصراحة إن خطأ صدام حسين هو (سذاجته) ، فقد تم خداعه مرتين ، في المرة الأولى أوحت له أمريكا بأن إيران خالية من الجيش والحكومة وبإمكانه احتلالها في خمسة عشر يوما ، فاعتقد بذلك ، وكلفته حرب الخليج الأولى غالياً . . . والمرة الثانية كان السبب هو البترول ، وبعد ذلك يسعون للهيمنة على البترول الخليجي . وظيفة إسرائيل الأساسية أن تكون محمية المرتزقة ، والمدفوع لها بشكل أفضل ، وذلك من أجل الهيمنة على البترول الخليجي . السيد آلن بيريفيت ليس صديقا سياسيا ، هو ديغولي وينتمي إلى حزب شيراك ، قال إن اللوبي الصهيوني أول من وافق على حرب

الخليج وكذلك اللوبي الصهيوني في أمريكيا هو الذي قام بحرب الخليج ، والنتائج هي أولا : إعطاء الأموال والسلاح إلى صدام حسين من أجل الحرب ضد إيران ، والخطوة الثانية دفعه من أجل تحطيم نفسه ، ثالثا : وفي (شرم الشيخ) يعلن شمعون بيريس بأن إيران هي الهدف التالي وخصوصا حزب الله ، في الوقت الذي يعتبره جميع اللبنانيين ، مسلمين ومسيحيين ، الجهاز المسلح للمقاومة . هذا كل ما في الأمر ، ويدعي الإسرائيليون بأن هذا الحزب تابع لإيران ، هذا ممكن ، ولكن اللبنانيين لا يعتبرونه هكذا ، ولننظر إلى الأحداث الأخيرة في لبنان ، إنها بدأت بموت جندي إسرائيلي ، ولكن ليس في إسرائيل بل في داخل الأراضي اللبنانية ، في الشريط الذي تحتله إسرائيل ، ففي اللغة العادية كان من الممكن أن نقول عن هذه الحادثة بأن ثمة محتلا تم اغتياله من قبل المقاومة ، ولهذا قلت لك قبل قليل إن رئيس الجمهورية الفرنسية ، والصحافة والسلطة ، تابعون إلى توجيهات اللوبي الصهيوني ، هنا على سبيل المثال لا تجد في أي صحيفة سواء في (اللوموند) أو (الفيغارو) وغيرها أي مقال يتحدث عن مجزرة قانا باعتبارها جريمة ضد الإنسانية ، وهي هكذا في الحقيقة لأن الهجوم ضد ثكنة عسكرية يُعدّ فعلاً من أفعال الحرب ، بل إن إسرائيل تقصف ، كما أوضحت تقارير الأمم المتحدة ، مكانا مدنيا ، لذا فهو جريمة ضد الإنسانية . لم يتجرأ أحد أن يستخدم هذه العبارة ، وهم يقومون باتهامي أنا ويعتبرونني (نازيا جديدا) لأنني أدين هذه الجريمة ضد الإنسانية ، ولهذا السبب غضب الصهاينة . أخبروني بأن مجلة (المصور) نشرت كاريكاتيراً عني في المتحف الذي اسسته في قرطبة وهدفه هو توحيد الأديان . ثمة تماثيل شمعية كما هو متحف كريفان بباريس ، لكنها تتكلم عن ابن عربي وعن الفيلسوف اليهودي الكبير دافيد رويس والملك الفونس العاشر ، وضعوا في الكاريكاتير هذه التماثيل الثلاثة ، ووضعوني بجانبها . وهناك طفل صهيوني يرميني بالحجارة ، وهناك في أعلى الصورة ثمة عربي نائم ويشخر (يضحك) . إنني سعيد أن أحصل على هذا الكاريكاتير . أقول لك إنني التقيت بصحافي إيطالي يعمل في صحيفة إيطالية كبيرة لا أريد أن أذكر اسمها . سألته : (أي اتجاه تمثله صحيفته؟ قال لي : إنها تابعة إلى بيرلسكوني) ، ثم أضاف أن الصحيفة طلبت مني أن أكتب مقالا عن كتابك ، وأنا متفق معه كلية ، ولكنني إذا عبرّت عن رأيي الصريح فإنني أفقد وظيفتي في القناة التلفزيونية الثانية ؛ لأن عمليات المونتاج من شأنها تحريف الكلام عن سياقه .

– تحدثت في كتابك عن الإرهاب الفكري الموجود في فرنسا ، كيف يمكن أن يحصل ذلك في بلد متطور مثل فرنسا؟

– يفرض علينا الآن التفكير الواحد ، صحيح أنت حر ، لكن إذا كنت تسير في اتجاه السلطة ، وإذا ما رفضت ، فالأمور تختلف . وما حصل في العراق شيء نموذجي ، ذهبت لزيارة العراق أثناء الحرب ، فكتبت الصحف تقول (غارودي ذهب لرؤية صدام حسين) وهذا الخبر بحد ذاته يعني أن غارودي خائن . جميع الصحف نشرت الخبر ذاته ، يعني أنها تتساءل لماذا أقدمت على هذه الزيارة ، وما هي الأسباب الكامنة وراءها وهكذا . شخص واحد فقط امتلك الجرأة فقط أن يجري معي حواراً مباشراً ، لأنني كنت أرفض الحوارات المسجلة ، وخصصوا لي أربع دقائق فقط على القناة التلفزيونية الفرنسية الثانية فقلت ، (إن شخص صدام حسين ليس هو المشكلة ، والنظام العراقي أمر يخص العراقيين ، ولكننا نشن حربا استعمارية ضد هذا البلد) وفي اليوم الثاني تم فصل الصحافية التي أجرت معي الحوار من وظيفتها ، وقد تعاطفت معها النقابة ، فاتصلت بهذه السيدة وقلت لها لا أعتقد بأن قرار الفصل سينفذ ، فقالت لي النقابة لا تستطيع أن تفعل شيئا من أجلي ، لأن قرار الفصل صدر من قصر الرئاسة الفرنسية في (الاليزية) ، والآن كما ترى أن حرية الصحافة هي أكذوبة أخرى ، لأن جميع الصحف لم تسمح لي بحق الرد باستثناء صحيفة (الفيغارو) التي خصصت لي بعض السطور ، ولا يمكن أن أرد بشكل مباشر .

– ما هو رأيك بمصطلح (العولمة) في التطبيقات الأمريكية والفرنسية ؟

– العولمة هي عبارة عن شكل للاتحاد العالمي ، ولنقل الهيمنة المطلقة للولايات المتحدة . عندما كانت إنكلترا أكبر قوة اقتصادية في العالم اقتنعت بأن السوق الحرة هي الوسيلة الفضلى للهيمنة ، على سبيل المثال كان أبناء مستعمراتها يحاولون التحرر ، تماما مثل الولايات المتحدة التي رفعت منذ نشوئها الأول قانون التبادل الحر ، لأنه من خلاله يتمكن الأكثر قوة من التهام الأقل قوة . لا أعرف من هو صاحب (نظرية الثعالب الحرة) بين (الدجاج الحر) أي الساحة الحرة التي يتمكن أحدهم فيها من أكل الآخر . كما أخبرتك قبل قليل إن نظرية العولمة الأمريكية هي الهيمنة ، وهكذا تعمل الولايات المتحدة على سن قوانين تريد تطبيقها على العالم بأكمله . أفكر بقانون هيمس بيرتون الذي فرض الحصار على العراق وكوبا وإيران وليبيا ، وهم

يسعون إلى جعله قانونا عالميا . والعولمة في الوقت الحاضر هي (الأمركة) او التأمرك للعالم بأكمله ، وهذه الأمركة والتأمرك خطيرة للغاية . على سبيل المثال ، يوجد في العالم ما يقارب المليار من الناس الذين لا يجدون الطعام الكافي لإشباع جوعهم ، وحتى في أغنى دول العالم ، على سبيل المثال ، في أميركا توجد نسبة ١ إلى ٨ من الأطفال لا يجدون الطعام اللازم . فقد أوضحت مدام سوزان جورج في كتابها المعنون (غارق في الديون) وهو كتاب حول الديون ، تشرح أن نموذج التطور في الليبرالية الغربية يكلف العالم الثالث حوالي ما يعادل قنبلة هيروشيما واحدة كل يومين . والحصار على العراق في الوقت الحاضر يقتل ٥٠٠ طفل عراقي في اليوم . أعتقد أن هذا هو تأثير العولمة ، والليبرالية التي تطالب الولايات المتحدة كل العالم بتطبيقها دون ان تريد تطبيقها على نفسها ، إنها لا تريد تمويل المزارعين الكبار ، ولكنها تطالب فرنسا بترك ١٢ بالمائة من مساحة أرضها بدون زراعة . هذا ينطبق على المعلوماتية والطيران وصراع البوينج ضد الإيرباس . . إلخ . وهذا شيء نموذجي ، الجميع يشجع الصناعات الكبيرة وأساليب الزراعة الأميركية .

- ما هو تأثير العولمة على الثقافة؟

- إذا أخذنا فرنسا كمثال ، نرى بأن نسبة العروض السينمائية الفرنسية في الولايات المتحدة هو (٥) بالمائة ، والأكثر من ذلك أن هذه العروض السينمائية الأميركية هي الأكثر انحطاطا ومعظمها أفلام العنف . ذات مرة كنت في زيارة للولايات المتحدة ، بدأت أشاهد القنوات التلفزيونية البالغة خمس عشرة ، خصصت دقيقة لمشاهدة كل قناة ، وفي غضون خمس عشرة دقيقة ، سمعت ٧٣ إطلاقة رصاصة ، وحفيدتي وهي طالبة تدرس الطب في عمر الثامنة عشرة رأت أحداث الموت العنيف أكثر مما رأيت أنا طيلة عمري ، رغم أني خضت الحرب . أصبح الموت العنيف ظاهرة طبيعية بالنسبة لأولادنا ، وليس عن طريق الصدفة أن الولايات المتحدة تتصدر البلدان في نسبة الجرائم ، وبيع الأسلحة ، ويعود ذلك إلى عهد الاستعمار ، كما هو الحال الآن في إسرائيل ، عندما كانوا يوزعون الأسلحة على المستعمرين لتصفية الهنود الحمر ، وهذا قرار موجود في الدستور الأمريكي ، كان بوش وريغان عضوان في رابطة الدفاع عن حمل السلاح الشخصي . هناك أطفال يذهبون إلى المدرسة وهم يرتدون الدروع الواقية ضد السلاح في الولايات المتحدة ، ثمة ثلاثة

ملايين أمريكي خاضعين للمراقبة القانونية ، يموت الناس في العالم الثالث بسبب الجوع بينما يموت الناس في أمريكا بسبب غياب الجوع . لم يعد للحياة من معنى ، في البلدان الأكثر غنى توجد أعلى نسبة للانتحار بين المراهقين وتأتي بعدها السويد ، وهولندا ، وسويسرا ، وفرنسا ، بينما لا نجد هذه النسبة في البلدان الفقيرة ، إذن أذكر في كتابي الجديد بأن الولايات المتحدة ، طليعة الانحطاط ، ليس على الصعيد الاقتصادي فحسب بل على جميع الأصعدة ، حتى إن البنك فقد دوره وأصبح مركزاً لتجميع رؤوس الأموال لإنتاج البضائع في الشركات . هذا هو الدور الطبيعي ، ولم يعد دور البنك هكذا . يوضح الاقتصادي الفرنسي الحاصل على جائزة نوبل موريس الياس ، أن الأرباح الناتجة عن المضاربات المالية حول شراء وبيع المواد الأولية ، التي لا تكلف أي جهد يذكر ، تبلغ نسبتها ٤٥ مرة أكثر من المضاربات المالية حول التبادلات الاقتصادية في البضائع والخدمات ، وهذا هو نموذج الانحطاط ، ويشمل جميع الميادين الاقتصادية والفنية . هنا تثار ضجة كبيرة حول قيام بعض الأفراد بحفر قبر يهودي ، بينما في إسرائيل ، حسب إحصائيات عالم إسرائيلي ، وهو إسرائيل (شاحاك) ، تم تدمير ٢٧٥ مقبرة فلسطينية ، وفي تل أبيب ، ينبغي ألا ننسى ، أنهم شيدوا فندق هلتون على أنقاض مقبرة عربية أزالوها بالبلدوزرات ، ولم تقم أية ضجة حول ذلك ، إنه الاحتقار لحياة وموت الآخرين ، وهذا بالذات نمط التفكير الأمريكي . لماذا هذا التيار المضاد للثقافة؟ ليس هناك ثقافة أميركية بل هناك ثقافات ، لأن الثقافة الأصلية الوحيدة هناك كانت الثقافة الهندية ، ومتطورة للغاية ، نذكر على سبيل المثال علم الفلك والرياضيات ، فإن تقويم المايا أكثر صحة من تقويمنا الأوروبي ، ولم يخطئوا سوى بيوم واحد طيلة ٦ آلاف سنة . هذا الشيء تم تحطيمه وكذلك هذه الثقافة ، ولكن ما الذي وضعوه محل هذه الثقافة؟ فقد قدم البيوريتانيون المتطّهرون الإنكليز حاملين الإنجيل في أيديهم ، دون أن يحتجوا على قتل الهنود وأخذ أرضهم ، وقد وفد الناس من أنحاء العالم بسبب سمعة أميركا الغنية ، وكل واحد من هؤلاء حمل معه ثقافته ، الثقافة الإيطالية في سان فرانسيسكو ، فقد عرفت فرانكيتي ، وتضم ثورا ورسامين وموسيقيين ، وهناك حي آخر تشاهد فيه أفلاما باليونانية بسبب وجود اليونانيين بثقافتهم ، وهناك أفلام بالألمانية تعبر عن ثقافتهم ، وكذلك اليابانيون والصينيون . إذن هناك ثقافات متعددة وليس هناك ثقافة أميركية ، وهذا يذكرني بمحاكمة كاربانترا ، قالت القاضية إن خطأنا الكبير في هذه المحاكمة هو جهل الوسط

الذي يعيش فيه الناس وعدم تقرير أهمية موسيقى الروك ، في صالات الرقص والنوادي الليلية هناك مختصون بمعالجة من يتعرض للكسور والطوارئ الأخرى أثناء عملية الرقص ، وكذلك بالنسبة للرسم ثمة انحطاط ، ماذا يفعل الرسام ، يضع حيوانا على خامة اللوحة ، يشبه ذلك ما كان يفعله مارسيل دوشان في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، عندما كان يقدم المنحوتات ، يضع ثعلبا على الجدار ، إننا يمكن أن نفهم ذلك في تلك الحقبة ، حقبة الحرب والسخرية منها ، ولكن أن يقدم فنان ، على تقليد ذلك بعد مرور خمسين عاما فذاك يكشف عن مرض طفولي ، والمشكلة الأساسية تكمن في أولئك الفنانين الأميركيين الذين يريدون نقل ذلك إلي أوروبا ، وقد انتقلت بعض الظواهر إلى فرنسا مثلما فعلوا في ساحة بورت رويال وجسر بون نيف ، إنهم يصدرون إلينا التيار المضاد للثقافة ، وذلك في جميع أنحاء العالم ، سواء في جاكارتا أو في باريس . ولا تتضمن الأفلام الأميركية ظاهرة العنف فقط بل إنها تقوم بتزييف الحقائق ، وخصوصاً العنصرية إزاء السود . تؤكد غالبية الأفلام على أن السود مجرمون أو تقوم هذه الأفلام بتصوير (الحلم الأميركي) . . دلاس ، وسانتا بربارة ، وثمة أفلام قليلة ، ولحسن الحظ ، تكشف حقائق المجتمع الأميركي مثل فيلم (عناقيد الغضب) الذي يفضح عمليات طرد الشركات الكبرى للمزارعين الصغار لا نعثر عليه الآن في اتصالات ، وتُعدّ هوليود أكبر مركز لتصدير الأفلام الجنسية (البورنوغرافية) التي تهدف إلى تحطيم مفهوم الحب . تحاول الولايات المتحدة تحطيم كل ثقافات العالم ، من خلال الهيمنة والسيطرة ، على ثقافات الصين والهند والثقافة الأوروبية .

– كتبك الجديدة صدرت عن دار نشر أسستها بنفسك وبجهودك الشخصية ، هل ثمة أزمة أخلاقية في دور النشر الفرنسية ؟

– هذه الأزمة التي تتحدث عنها لا تشمل دور النشر فقط بل جميع وسائل الاتصال السمعية والبصرية . وقد عرضت كتابي السابق والحالي على دور النشر وتخليت عن حقوق النشر ولكن دون جدوى . وقد نشرت أكثر من خمسين كتابا ، في كبريات دور النشر الفرنسية كما تعلم ، وكتابي الأخير ترجم إلي أربع عشرة لغة ، منها الصينية واليابانية ، وآخرها الفارسية ، وثمة أربع ترجمات بالعربية ، ولا بد أن أذكر لك بأن ثمة ٢٩ أطروحة دكتوراه في العالم حول كتبي .

- منذ زمن طويل لم تقم بتأليف كتاب حول الجماليات ، مثل كتاب (واقعية بلا ضفاف) ، ما هو السبب ، هل هو الانغماس الكلي في عالم السياسة وإهمال الأدب والفن ؟

- كلا . . لقد ألفت كتبا أخرى حول الرقص الذي كتب باشلار مقدمته و(المسجد ، مرآة الإسلام) ، فقد تعرفت على طراز العمارة بنفسي ، ولم أكتب أي شيء عن مسجد لم أزره وأطلع عليه سواء في الهند أو في قرطبة .

والفن بالنسبة لي هو تحرر العالم نحو الأيمان ومظهر من مظاهر الإيمان ، والفن يعبر أيضا عن تحرر المستقبل ، وكتابي الأساسي حول الرسم يشمل ٦٠ عملا فنيا نحو المستقبل .

ـ ثمة اتهامات وجهت إليك ، منها التمييز العنصري إثر كتابك (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) ما هي حقيقة هذه الضجة التي أثيرت حول كتابك؟

- منذ فترة وجيزة استلمت من المحكمة الأوراق الرسمية التي تخص التحضير لقرار إدانتي بسبب كتابي الأخير ، وأعتقد أن الاعتراضات التي وجهت إلى كتابي الأخير تتهمني بأنني ألفت كتابا في التاريخ يناقش عدد اليهود الذين ماتوا وطريقة موتهم . إنني في الحقيقة ، لم أبتدع شيئا جديدا في هذا الميدان ، فقد اقتبست الأرقام من المؤسسات العالمية المختصة ، فليس هدفي هو ذلك ، بل هو في الجوهر شرح أبعاد خطورة السياسة الإسرائيلية ، ليس ما يخص الماضي اليهودي بل استخدام هذا الماضي لرسم سياسة خطيرة وبشعة يقوم بتنفيذها قادة من أمثال بينامين نتنياهو . الأطروحة الأساسية في كتابي توضح كيف تتصرف إسرائيل منذ زمن مؤسسها ثيدور هيرتزل الذي كان يقول بأن إسرائيل لا يمكن أن تتطور إلا من خلال الحضارة الغربية ضد بربرية الشرق ، وهذا يتضح في السياسة الإسرائيلية ، منذ حزب العمل ذي المظهر التقدمي الذي بنى المستوطنات أكثر من أي حكومة رجعية . والخطورة تكمن في أن هذه السياسة قد تؤدي إلى إشعال حرب عالمية ، وقد تشعل الحرب العالمية الثالثة ، وهذا ما يؤيد الأطروحة القائلة بصدام الحضارات ، احتدام الحضارة اليهودية والمسيحية مع الحضارة الإسلامية البربرية ، أي التحالف الإسلامي ، الكونفشيوسي ، بمعنى التحالف بين إيران والصين . وسياسة إسرائيل تصب في هذا

الإطار ، خصوصا سياستها إزاء الفلسطينيين وسوريا وتهديداتها ضد إيران . هذا هو هدف كتابي ، إيضاح خطورة هذه السياسة . وبصدد الاتهامات الموجهة ضدي (التمييز العنصري) ، أقول : هل يوجد تمييز عنصري ظاهر كما هو موجود في الصهيونية انطلاقا من الحديث عن (شعب مختار) الذي يجيز تدمير الآخرين ومصادرة أراضيهم ، فالأميركيون أبادوا الهنود الحمر كما يبيد الإسرائيليون الفلسطينيين في الوقت الحاضر ، (عنصرية الصهاينة أسوأ من عنصرية هتلر) لأن عنصريته كانت ذات مسحة بيولوجية تخص الجينات ، بينما عنصرية الصهاينة لاهوتية ، إذا كان الله اختار هذا الشعب من يستطيع أن يقف بوجههم ؟ فإذا كان الله اختارهم لماذا يجب عليهم الاهتمام بقرارات الأمم المتحدة ، فقد أدينت إسرائيل مؤخرا من قبل ١٣٨ دولة في الأمم المتحدة ، عنصريتهم إذن ذات مسحة انطولوجية -وجودية- ولاهوتية ، وهذا أسوأ أنواع العنصرية .

- هل الهدف من وراء ذلك هو القضاء على حلم الفلسطينيين بتحويل القدس إلى عاصمة لدولتهم ؟

- بالتأكيد ، وقد كشفت الحقائق بأن الغرض من بناء هذه المستوطنات ليس لإيواء اليهود ، وتشير إحصائيات نشرت مؤخراً أن ١٢ بالمئة من المساكن التي شيدتها إسرائيل خالية الآن ولا يسكنها أحد ، فالحاجة ليست لبناء المساكن ، بل لبناء هذه المستوطنة في القدس لغرض تيئيس الفلسطينيين من إقامة عاصمتهم في القدس ، ومن الضروري أن أشير إلى أن الدولة الإسرائيلية لم تقبل عضواً في الأمم المتحدة إلا بالموافقة على ثلاثة شروط ، وهي الشروط التي تفرض على الدولة الإسرائيلية فقط من بين جميع الدول .

١-عدم تغيير وضعية القدس .

٢- قبول الحدود التي رسمت في عام ١٩٤٨ . هذا ليس عادلا ولكنهم تجاوزوا ذلك أكثر من اللزوم .

٣- السماح بعودة الفلسطينيين إلى أرضهم ، ولكنهم جمدوا هذه الشروط ولم يطبقوا أيا منها ، إسرائيل تسخر من قرارات الأمم المتحدة .

- العلاقات الفرنسية -الجزائرية تمر بصراع خفّي منذ عهد الاستعمار

والاستقلال حتى الوقت الحاضر ، هل يكمن ذلك في عدم تجاوز الماضي ؟

– أنت تطرح سؤالا يمسني مباشرة ، وكنت على وشك أن أصبح جزائريا ، والجزائر بالنسبة لي بلدي الثاني . وقد تم إلقاء القبض علي في ١٤ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٤٠ من قبل سلطات فيشي ، فبعثوني إلى الصحراء في معسكرات الاعتقال ، وكان شكلي مثيرا آنذاك ، وهناك نظمت اجتماعا في المعسكر ، وكان هناك قائد فرنسي يدعى كابوش طالب بإعدامي ، والجنود الذين كانوا يحرسونني من مسلمي الجنوب ، فقد كانوا ينفذون جميع الأوامر ما عدا تنفيذ الإعدام ، ومنذ تلك اللحظة أردت أن أفهم هذه الثقافة وسلوكها ، وبادر أحد القادة الجزائريين قائلا : (إنه ليس من الشرف أن يطلق رجل مسلح النار على رجل لا يحمل سلاحا) ، وأقول إنني كدت أن أصبح جزائريا لأن الرئيس أحمد بن بلّه اقترح علي اكتساب الجنسية الجزائرية ، فقد شعرت بأنهم يتبنونني ، وقد أنقذوا حياتي في عمر الثامنة والعشرين وولدت من جديد ، وأنا الآن فوق التسعين من عمري ، وما يثير الاهتمام أن هذا الشعب أعطى اجمل مثال في حرب التحرير ، بالرغم من ضعف تسليحه أمام القوة الاستعمارية الهائلة ، إلا أنه انتصر ، وأعتقد أن مواقف الساسة الفرنسيين سيئة للغاية في الوقت الحاضر ، وعلى مرّ سنوات طويلة كان أولئك الساسة يطالبون بإجرء الانتخابات الحرة في الجزائر ، وعندما أجريت تلك الانتخابات بدأوا يصفقون للدكتاتوريين العسكريين من خلال تعطيل الانتخابات . لنتخيل أن هذا يحصل في فرنسا لقامت القيامة ، والأخطر من كل ذلك هو أن القادة الفرنسيين يدعمون الدولة الجزائرية غير الشرعية ، من خلال مدهم بالأموال وسلاح الطيران –الهليكوبتر– من أجل القضاء على المعارضين . إذن فرنسا تلعب دورا سيئا في أزمة الجزائر بل وتتدخل في الشؤون الداخلية لهذا البلد ، باعتبارها دولة عظمى .

– نعود إلى فرنسا قليلا ، فمنذ سنوات طويلة لم تشهد فرنسا حركات فكرية وأدبية وفنية كالرواية الجديدة وغيرها ، ما هو السبب في نظرك ؟

– أعتقد أن السبب بسيط للغاية ، وهو أن الناس لديهم أفكار جديدة وأصيلة وساخنة ولكن لا أحد يريد نشرها ، ثمة فكر أحادي الجانب ، ولعلي أعطيك مثالا عن نفسي ، فقد نشرت ٥٣ كتابا في كبريات دور النشر : غاليمار– سوي– بلون وغيرها ، ولأنني انتقدت إسرائيل انتهى الأمر بالنسبة لي ، ونقول عن فرنسا بأنه بلد

حرية الصحافة والحقوق ، هذا ليس صحيحا ، لدينا الحرية في انتقاد ميتران وشيراك ، ولكن عندما تمس إسرائيل فأنت تتحول إلى رجل ضائع ، وهذا ما حصل لي منذ عام ١٩٨٢ عندما نشرت ، مع الأب لولون ، وهو كاثوليكي ، والأب ماتيو ، وهو بروستانتي ، وبمساعدة مدير صحيفة اللوموند آنذاك ، مقاله في هذه الصحيفة ، أوضحنا بها أن حرب لبنان لم تكن حدثا طارئا بل تسير ضمن المنطق الصهيوني . وأورد لك مثالا ثانيا ، ثمة قانون في فرنسا ينص على إنزال العقوبة بمن يمس شخصا آخر بالتجريح والسبّ والقذف ، إن جميع الصحف تقريبا حرفت ما قلناه ، الأب بيير وأنا ، ولا أحد وافق على أن ننشر ردنا . والأسوأ من ذلك أنه عندما صدر كتابي (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) طلبت صحيفة اللوموند منه أن يكتب صفحة كاملة يعبر عن رأيه وموقفه حيال كتابي . وقد تحمس الأب بيير لذلك وعندما كتب رأيه وموقفه رفضوا نشر مقالته .

- ثمة رأي يقول : في غياب الحلول التي تطرحها حكومات البلدان العربية الحالية لحل جميع المشاكل ، فإن الأحزاب الأصولية الإسلامية سوف تسيطر على السلطة ، ما هو رأيك بذلك ؟

- أعتقد أن مستقبل الإسلام يعتمد على طريقته في خلق حداثته الخاصة به . كما قلت قبل قليل إنه لا يمكن فرض قوانين قديمة على إنسان القرن العشرين ، إذا انغلق الإسلام حول نفسه يتحول إلى طائفة منعزلة ، وخاصية الإسلام ليست الالتزام بالتقاليد القديمة ، وتكمن أطروحته الأساسية في تقبل جميع الأنبياء ، اليهود رفضوا المسيح ، والمسيحيون رفضوا محمد ، ولكن محمداً اعترف بجميع الأنبياء منذ إبراهيم أب المؤمنين ، وما تلاه ، فالإسلام إذا ما قدم بهذا الشكل فإنه يتحول إلى عنصر لتجمع المؤمنين وإعلاء كرامتهم . وقد توسع منذ انطلاقته في بضعة أعوام من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي ، المسألة الجوهرية هي عدم قراءة القرآن بعيون الموتى ، وعندما نفكر بأبي حنيفة والشافعي ، نرى مدى الانفتاح الذي شهده الإسلام ، وقد قال لي صديقي أبو مسعود ، وهو أحد رفاق حسن البنا (بأن مهمتنا كمسلمين في الوقت الحاضر هي أن نخلق فقها خاصا بالقرن العشرين) ، انطلاقا من شريعة شمولية وخالدة ، ولكنها تختزل في أشياء قليلة ، في سورة ٤٢ الآية ١٣ في القرآن ما معناه إن الله يخاطب محمداً قائلا له : إنني فتحت لك شريعة هي نفسها التي فتحتها

لإبراهيم وموسى والمسيح . الشريعة تصلح لجميع الأديان .

– ما الذي تقصده ب «الانحطاط» . . في كتابك الصادر حديثا «الولايات المتحدة طليعة الانحطاط» ؟

– حتى الآن مازال التطور الحاصل في البشر يقاس بالمقاييس العلمية والتقنية . . وهذا ما أتاح للغرب أن يبسط الهيمنة الكولونيالية أولا ومن ثم الكولونيالية الأميركية الموحدة بالتالي . وكان لا بد من نقل هذا التوسع الغربي الذي اعتمد على الاكتشافات الصينية . وما يتعلق بالثقافة وعصر النهضة ينبغي ألا ننسى أن روادها كانوا هم العرب في أوروبا ، وحتى من الصينيين قبل قرنين من تحليلات السيد غوتنبرغ . وكذلك حضارة بغداد التي قدمت للبشرية أكبر مكتبة ، وهي التي حددت ثقافة العالم من خلال الفتوحات العربية الإسلامية . الحالة الثانية هي أن الانحطاط لا يتعلق بالتطور التقني . المشكلة أننا لا نتكلم عن التطور بالمعنى ذاته . إن ما أعتبره جوهر التطور هو العلاقة بين الطوائف البشرية ، لأن هناك حضارات إنسانية أخرى متقدمة على الغرب كثيرا .

إذا نظرنا إلى الاقتصاد الأميركي فهو رائع ظاهريا وفي جوهره كارثي ، لأن الولايات المتحدة هي من أكثر البلدان مديونية في العالم . وتعيش فوق مستوى إمكانياتها من خلال استغلال بقية بقاع العالم . وهي ، كما يقول صديقنا الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد ، تسجيل للآلية التي تقوم بالاستثمارات والإنتاج ، وهذه علامة من علامات الانحطاط . . وكذلك الفردية تذكر بانحطاط الرومان ، حيث القصور كانت تنافس المعابد ، وهذا اليوم النظام ذاته يتكرر ، في عالم يموت فيه ٤٠ ألف إنسان نتيجة سوء التغذية والمجاعة . . هذا هو الانحطاط من وجهة النظر الإنسانية . علاوة على ذلك هناك الانحطاط على الصعيد الفني : نرى ذلك في الموسيقى والرسم والفنون الأخرى . إنني لا أتهم هنا الشعب الأميركي لأننا لا يمكن أن ننسى الشعراء والكتاب الكبار الأميركيين .

– ألا تعتقد بأن هناك ثقافة أميركية متماسكة لا علاقة لها بالأنظمة الأميركية؟

– لا أعتقد أن هناك ثقافة أميركية متجانسة وموحدة ، وهذا لا يأتي من خطأ

سكان هذه القارة . فأمريكا بلد بدأ بالجريمة ، بإبادة الهنود الحمر عن بكرة أبيهم ، ومن ثم استعباد الزنوج السود . . إنها من الخطايا الكبرى .

وكل الذين نزحوا إلى أميركا حملوا معهم بذور ثقافتهم . عندما تزور أحياء نيويورك ترى أحياء كاملة تتعامل باليونانية ، وإلى جانبها أحياء تتعامل بالألمانية والصينية . هناك إذن ثقافات وليس ثقافة ، وكل نازح حمل تقاليده إلى هذه القارة ، وأفكر حاليا بروح النهضة في الثقافة السوداء ، وبما أنه لا توجد ثقافة واحدة متجانسة لذلك لا تأثير لها في السياسة . والعلاقة بين المواطن وبلده مثل علاقة العامل بشركته وهذا ما يميز العقلية الأميركية . أما في أوروبا فإننا ندافع عن ثقافتنا لأنها لعبت على الدوام دورا في السياسة . على سبيل المثال لعبت الثقافة المسيحية دورا لقرون عديدة ، وكذلك عصر التنوير وتأثيراته أثناء الثورة الفرنسية ، أو الماركسية التي لعبت دورا كبيرا في بعض البلدان رغم أنها أفلست في النهاية . فالأيدلوجيا لعبت دورا كبيرا ، أما السياسة الأميركية فلم تلعب أي دور يذكر . المشكلة الأساسية التي تروج لها أمريكا في الوقت الحاضر هي سياسة (التبادل الحر) التي كانت تمارسها بريطانيا عندما كانت إمبراطورية كبيرة . وأريد أن أكرر بأنني لا أتهم شعبا . . فليس هناك شعب سيئ بل هناك حكام سيئون .

– هل يمكن أن توضح لنا علاقة المقاطعة والتوتر والعداء الموجودة بين دور النشر والصحافة الفرنسية وبينك . . وهل أن تأسيس دار النشر الخاصة بك يعود إلى ذلك ؟

– هناك مثال نموذجي حصل مع كتابي الأخير . تؤكد القوانين الفرنسية أنه عندما تتعرض إلى الإساءة وتشويه السمعة يكون لك الحق في الرد على ذلك . وحق الرد هذا لم تتحه لي أية صحيفة فرنسية ، باستثناء صحيفة (الفيغارو) التي نشرت سطورا ضئيلة من مقالتي فقط ، وجميع الصحف الأخرى التي بعثت إليها بحق الرد لم تنشره .

– ومن هو وراء هذه الضغوطات في نظرك ؟

– ثمة ضغوطات رسمية على فكري . . وهناك لوبي كبير ، اللوبي ذاته الذي يمارس تأثيراته في الولايات المتحدة . على سبيل المثال وليس الحصر فإن كتابي ما

قبل الأخير «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ترجم إلى ثماني عشرة لغة . . وإذا كان ما أطرحه يقع ضمن الإطار الفرنسي الضيق لما جذب اهتمام اليابانيين والصينيين والألمان والإنكليز . . وترجم كتابي حتى في الولايات المتحدة . وقد تحدثت عن هذا اللوبي الكبير الذي هو اللوبي الصهيوني بلا شك ، وفي هذا المجال يتحدث هنتغتون عن صدام الحضارات ، الحضارة اليهودية – المسيحية في مواجهة التحالف الإسلامي –الكونفشيوسي ، وقد سبق لمؤسس الدولة العبرية تيودور هيرتزل أن طور هذا المفهوم في كتابه «الدولة اليهودية» الذي يؤكد على أن الدولة اليهودية التي يتم تأسيسها هي عبارة عن العنفوان المتقدم للحضارة الغربية في مواجهة بربرية الشرق .

– هل تتلخص فكرة الانحطاط التي طرحتها في تغييب الأميركيين للثقافات الأخرى ؟

– أجل . . الانحطاط في الثقافة الأميركية يتجسد في تغييب الثقافات الأخرى وعلى الخصوص ثقافات المواطنين الأصليين . وهذا ينطبق على إسرائيل ، واليهود لعبوا دورا كبيرا في الخارج أمثال مايمونيدس الذي كان في إسبانيا المسلمة ، واسبينوزا كان في هولندا ، وانشتين كان في ألمانيا ، وهكذا فإن الولايات المتحدة وإسرائيل تشتركان في السمات ذاتها ، فهما يستخدمان الأسلوب المتمثل إما في إبادة الآخرين أو طردهم ، ويأتيان بثقافة كوزموبوليتية لا علاقة لها بالثقافة العالمية التي تنتمي إلى الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية الكبرى .

– كثيرا ما نعتتك الصحافة الفرنسية بأنك مفكر استفزازي ؟

– المفكر الاستفزازي هو الذي لا يشترك مع ذوي الفكر الأحادي الجانب . عندما كنت في الحزب الشيوعي الفرنسي وقلت في عام ١٩٦٨ بأن الاتحاد السوفييتي ليس دولة اشتراكية ، فقد اعتبروا ذلك عبارة عن استفزاز يستحق الطرد من الحزب . وعندما كتبت عن الكاثوليكية بأن المسيح بول ليس يسوعاً ظهر الأمر كاستفزاز .

– هل المشكلة الموجودة حاليا في فرنسا هي عدم تقبل الآخر؟

– أعتقد أن هذا صحيح ، رفض الآخر ، وحتى كراهية الآخر . عندما تقرأ كتاب

بيرنار -هنري ليفي حول الأيديولوجية الفرنسية يحاول شرح ما يطلق عليه حقارة ثقافتنا ، ويضع ضمن ذلك اتجاه فوليتر وبيغي ، كمن يؤسس «الاتجاه القومي الاشتراكي» .

– إذن نجد النفاق في الأحزاب اليسارية والأحزاب اليمينية على حد سواء .

– أقول لك بصراحة إنني لم أعد أؤمن بالفوارق الموجودة بين الأحزاب اليمينية والأحزاب اليسارية . إذا ما أخذنا مثال المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني لم يكن هناك يسار أو يمين . على سبيل المثال ، الضابط الكاثوليكي الذي يسمى «يتلدان كان ملكيا ، ونائب رئيس تحرير صحيفة اللومانتية كان شيوعيا هو غابرييل بيري» وكانا يقاومان جنبا إلى جنب ضد المحتل . وأعتقد أننا نجد أنفسنا اليوم في الوضعية ذاتها . لدي أصدقاء ينتمون إلى اليسار المتطرف وإلى اليمين المتطرف ، لا أجد أحيانا فارقا بينهما . . لأن المسألة تطرح بالشكل التالي : هل نحن ضد المحتل الاميركي أو معه ؟ وأعتقد بأن فرنسا بلد محتل في الوقت الحاضر من الناحية الاقتصادية والسياسية والثقافية . واتفاقيات مايستريخت تنص على أن أوروبا ليست إلا تابعا للحلف الأطلسي .

– ما هو موقف المثقفين الفرنسيين من هذه المسألة ، إذ لم يقف إلى جانبك سوى الأب بيير ؟

– ما يحزن هو صمت المثقفين الفرنسيين ، وليس صمتهم فقط بل رفضهم للكلام . وليس عن طريق الصدفة أن ترفض غالبية الصحف الرد الذي قام به الأب بيير . وفي معركتنا ، أنا أتحمل عبء محاربة الصهيونية ، وهو أيضا يتحمل هذا العبء إضافة إلى تحمل أعباء الكنيسة .

– وما هو دور الصحافة الفرنسية في كل ذلك ؟

– لم تنعكس أصداء هذه المعركة في الصحافة ، حتى إن القراء احتجوا في صحف مثل «الفيغارو» أو «اللوموند» على مثل هذا الصمت ، بالرغم من عدم اتفاقهم على أطروحاتي الفكرية أو أطروحات الأب بيير . وهذه الاحتجاجات والمواقف نجدها عند اليسار واليمين على حد سواء .

وبالرغم من بطء عملية اتفاق اليسار واليمين على الاعتراف بالحقائق ، إلا أنها ستتحقق ، عندما ألقي القبض علي في ١٤ سبتمبر / أيلول عام ١٩٤٠ وسجنت ٣٣ شهرا في معسكرات التعذيب كان عددنا لا يتجاوز الـ٣٠٠ سجين ، وهذه نسبة ضئيلة من سكان فرنسا البالغ عددهم آنذاك ٤٠ مليون نسمة . وفي أثناء تحرير باريس قال ديغول «ان أقلية فاسدة كانت تحكم الشعب حتى ذلك الوقت .»

وأضاف : «نعتقد بأننا نخوض مقاومة جديدة . »

- المعروف أن وسائل الإعلام أو أغلبها تسعى إلى تقديم الإسلام في صورة مشوهة . . هل تسعى لتغيير هذه الصورة في كتبك؟

- ليست لدي أحكام قاطعة عن أي شخص . ما أريده هو تصحيح الفكرة الكاريكاتورية التي تقدمها الصحافة الغربية عن الإسلام . فعلى سبيل المثال التقيت بالشيخ حسن الترابي في الخرطوم ، فوجدت صورته تختلف عن الصورة التي كانت تقدمها عنه الصحافة الغربية . وقد تعرفت على لويس فرقان والسيد رفسنجاني . . والشيء ذاته حصل معهما . كما إنني لا أطالب أن يتفق جميع الناس مع أفكاري . إنني أحاول أن أعطي الكلام لعدد من الشخصيات الإسلامية في كتابي القادم ، أولئك الذين أعطت عنهم الصحافة الغربية صورة كاريكاتورية . وهكذا شوهت الصحافة صورتي وصورة الأب بيير .

- لديك مشروع طويل للكتابة عن التزمت والأصوليات . . ما هو هذا المشروع؟

- خصصت خمسة مؤلفات لهذه الآفة : التزمت ، انتقدت من خلالها جميع الأصوليات ، بدءا بالاستعمار الذي أظهر مجموع الأصوليات الأخرى كغطاء للدفاع عن الهوية الوطنية والثقافية أو الدينية ، لفرض هيمنة نظامه الاقتصادي والسياسي وكذا رؤيته للعالم . مؤلفان عن الأصولية المسيحية كتب مقدمة أحدهما الأب بيير والثاني كتب مقدمته ليونردو بون ، عالم أصول الدين خلال حرب تحرير فرنسا . ومؤلف حول الأصولية الإسلامية بعنوان «عظمة وانحطاط الإسلام» ، وأخيرا مؤلف عن الأصولية الصهيونية بعنوان «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» وقد اضطررت كما تعلم لنشره على نفقتي الخاصة . بالنسبة للأصولية المسيحية تمت

دعوتي إلى ندوة أقيمت في باريس بدار اليسوعيين بشارع «سيفير» ثم في مدينة ليون ونيس عند الدومينيكيين ، وكذلك في مدينة ليل تحت رئاسة عميد كلية أصول الدين بالمعهد الكاثوليكي . أما بالنسبة للأصولية الإسلامية فقد وجهت إلي الدعوة لمناقشتي من طرف ثمانية بلدان إسلامية . وفي كلتا الحالتين فإن المجال الذي أثارته أطروحاتي فتح المجال أمام حوارات مميزة وكانت بالنسبة لي غنية للغاية . وعندما نشرت كتابي حول الأصولية الصهيونية للسياسة الإسرائيلية ، تم استدعاء الشرطة والعدالة وزمرة من الصحافيين أغلبهم لم يقرأ الكتاب . . . وباشروا حملة تشهيرية ضدي على الصعيد الإعلامي مما جعل الأب بيير يدافع عن حقي في النقد والحوار .

- وهل تقدم وسائل الإعلام على تحريف الكلام أو بثه في إطار مغاير للحقيقة ؟

- بالتأكيد لم أعد أثق في إعطاء أحاديث غير مباشرة خاصة لقنوات التلفزيون ، ولذلك أشترط الحديث المباشر حتى لا يقع تحريف فيما أقوله كما حدث في مرات كثيرة .

- إذن . . نفهم من كلامك أن ثمة هيمنة على الإعلام الفرنسي بالرغم من صورة الحرية التي تروج عنه؟

بالتأكيد . . . إن السياسيين في الوقت الحاضر يتهافتون على كسب ود اليهود لكسب رضا الإعلام . مع أن يهود فرنسا لا يمثلون سوى ٢ بالمائة من السكان ، لكن بالرغم من هزالة هذه النسبة ؛ فإن الصهيونية تسيطر على جميع سياسات الإعلام الفرنسي بما فيها دور النشر والسينما ، خاصة بعد الغزو الثقافي الأميركي لفرنسا .

- لنعد إلى كتابك «الولايات المتحدة . . طليعة الانحطاط» . . هل تعتقد بأن هذه الإمبراطورية معرضة للانهيار ؟

- في كتابي هذا أبين كيف انه بعد انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية العتيقة خلال الحرب العالمية الثانية ، تحولت البلدان الأوروبية إلى مجرد خدم مأجورين لإمبراطورية عالمية موحدة . إن الولايات المتحدة راكمت خلال الحرب العالمية الثانية نصف ثروات العالم ، على الرغم من أنها دفعت أقل ما أمكن من الخسائر البشرية .

هذه الإمبراطورية التي تتطلع بلهفة إلى هيمنة عالمية تفرض على العالم أصولية اقتصادية وسياسية وثقافية .

- ولكن هذا هو توجه النظام الليبرالي .

- الولايات المتحدة تفرض سياسة (ديانة السوق التوحيدية) . . هكذا أطلق عليها ، ديانة جديدة تتحكم من الآن فصاعدا في كل العلاقات الاجتماعية . إن ٢٠ بالمائة من السكان يسيطرون ويستهلكون ٨٠ بالمائة من ثروات العالم . البطالة والمجاعة تمسان ربع العالم . لا بد من فهم عصرنا الحالي من خلال العلاقات الداخلية العميقة بين مجموعة المشاكل الدولية ، سواء تعلق الأمر بالتدخلات العسكرية أو بدور صندوق النقد الدولي والبنك العالمي وبأوروبا ومايستريخت والمنظمة العالمية للتجارة .

الجسر العابر للقارات

- لماذا ازداد اتساع الفوارق بين الشمال والجنوب، وهل يؤدي ذلك إلى خلخلة التوازن الدولي؟

- بعد مرور خمسة قرون، قاد التقدم التكنولوجي الهائل إلى تحقيق جملة من الاكتشافات الحاسمة في الآلات ووسائل الاتصالات، والرحلات الفضائية، وأسلحة الدمار الشامل. ولكن في الوقت ذاته، لم تتوقف الفوارق غير العادلة بين الشمال والجنوب، بين هذا الجنوب الذي تم استعماره وسلبه واستغلاله وإهماله وتحطيم ثقافته وروحانياته وبين البلدان التي نطلق عليها «المتطورة»، من الناحية التقنية والروحية، أي اتساع الفوارق بين من يمتلكون وبين من لا يمتلكون. وهذا النمو غير العادل أدى إلى انفجارات اجتماعية وسياسية في العالم بأكمله [يوجد أكثر من ٤٠٠ من الحروب المحلية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية]. وهذا ما سبب تفتت عدد من الإمبراطوريات [الإمبراطورية العثمانية والروسية والنمساوية] مما أدى إلى مضاعفة القوميات الصغيرة التي تأسست إلى ما يدعى بـ«اختلاف العرقيات والاختلافات التاريخية، كما أدت ابتداء من [أفريقيا إلى آسيا مرورا بأوروبا] إلى قيامها باللعبة الأساسية وهي «القيام بالتقسيم والتفريق من أجل فرض الهيمنة». والولايات المتحدة بالذات ساهمت بكل هذه الاختلافات الاصطناعية من أجل استخدام قوتها : فهي قامت بتمويل وتسليح [بالتواطئات المتقابلة] الطالبان من أجل فصل أفغانستان عن الاتحاد السوفيتي [سابقا] ، وتسليح العراق ضد إيران والانتظار من أجل تحطيم العراق، كما أنها تغلغلت بجيشها وبقيادتها العسكرية في قلب أوروبا مع بقايا الهتلريين الكرواتيين ومهربي المخدرات من جيش تحرير كوسوفو [تمثل نسبة ١٦ بالمائة من تهريب المخدرات في أوروبا] ضد الشعب الصربي والكوسوفي، حيث قامت بتحطيم كل ما يمتلك من البنى التحتية المدنية بالقنابل والصواريخ. كما قادت روسيا حربا مشابهة لتلك في الشيشان مع رسم الهدف ذاته وهو : الاستيلاء على بترول القوقاز.

- هل المشكلة اقتصادية في نظرك؟

- كلا. ليست المشكلة اقتصادية أو سياسية فقط بل هي مشكلة روحية من

أجل السعي لبناء «سمفونية مقدسة للعالم» والتي تحكمها فقط قوانين السوق ، حيث يباع فيها كل شيء ويشترى [الوعي الإنساني مثل البضائع التجارية] ، ومنح الأقوى «حرية» تطوير الأضعف حسب مناهج الاستعمار المتنافسة ، واليوم هي ذاتها الهيمنة الاستعمارية «الوحيدة» للولايات المتحدة الأمريكية . وإذا كنا نعلن بقوة عن انحطاط الغرب فذلك لأن قواعد اللعبة التي بناها ، تقودنا إلى الانتحار الكوني عبر اللاعدالة في التطور الذي يحتويه والتمردات التي ينتجها ، بالدم والتلوث واحتقار جميع القيم المقدسة والإنسانية .

- هل تعتقد أن الغرب حاول ويحاول إقصاء الثقافات الأخرى في الإسهام في تطور البشرية ؟

- لا يمكن لـ«النهضة» الحقيقية أن تأتي من الغرب بل من خلال التغيير الجذري وكونية المبدعين الأوائل للثقافات من بلاد الرافدين حتى الصين والهند . وكما أكدنا في كتاباتنا عن «طريق الحرير» ، والذي انتمى إلى مشروعه ٣٤ بلدا آسيويا ، لكن إسهاماتها تكون غير متكافئة أحيانا ، وفي أحيان أخرى فإن عدائيتها تعود إلى تأثير الولايات المتحدة وإسرائيل ووسائلهما الإعلامية ومؤامراتهما . وفي هذه القارة الإيروآسيوية الضخمة والواسعة ، وباستثناء البلدين اللذين أقدما على «المبادرات الكبيرة» ، الصين وإيران ، واللذين مارسا تأثيرهما الحاسم ، هناك عدد كبير من البلدان الآسيوية ترددت بعد التجارب الحديثة لدول «التنين» وأزماتها المالية في الطريق القاتل ل «التنمية» على طريقة المنهج الغربي ، وهي في الوقت الحالي غيرت مسارها وبدأت تتردد في الاندماج في نظام هيمنة العولمة الأمريكية ، وهذه الدول هي : اليابان والهند وروسيا ، وهي مفترق الطريق بين القارتين الآسيوية والأوروبية التي يطلق عليها «الجسر الأوروآسيوي الجديد» .

- وهل ثمة بريق أمل في تغيير هذه المعادلة التي تستلب الشعوب ؟

- يأتي «بريق الأمل» من التعارض الجذري لأحادية السوق وسوق المضاربات والأرباح في صالح التوجه نحو اقتصاد مثمر ، من بناء البنيات التحتية الضرورية لتطور إنساني وغير مبني على مبدأ الأرباح فقط ، يكون في صالح الإنسان وليس من أجل تحقيق الأرباح فقط . وتُعدّ كوريا الجنوبية مثالا نموذجيا لإفلاس العولمة : فمنذ

بداية عام ١٩٩٨ ارتفعت أرقام الإقدام على الانتحار إلى نسبة ٢٠٠ بالمائة . كما أن الإصابة بالأمراض العقلية في ارتفاع مستمر ، علاوة على ارتفاع نسبة الأطفال المتخلى عنهم في دور الحضانة ، ذلك لأن غالبية النساء يعانين من الفقر والبؤس والعطالة . كما وصلت نسبة الطلاق والانحلال الأخلاقي إلى أرقام قياسية . وفي أندونيسيا حين وصل سوهارتو إلى سدة الحكم في عام ١٩٦٥ فقد انتهى كما بدأ بحمامات الدم ، من خلال إعدام نصف مليون شيوعي في بداية الحكم وإرسال الجيش إلى تيمور الشرقية في نهاية الحكم . إن انهيار دول «التنين» المزيفة التي خلقها الغرب اصطناعيا وقعت ضحية نظام وحدانية السوق ، الذي أدى إلى الشرخ القائم بين الجنوب والشمال ، بين أولئك الذين لا يملكون وأولئك الذين يملكون كما قلت قبل قليل ، وهذه هي النتيجة الحتمية للتناقضات الأساسية للنظام بعد خمسة قرون من الاستعمار ونصف قرن من الاستعمار الموحد المفروض من قبل منهج «بريتون وودس» ، وهيمنة الدولار الذي أدى إلى إقدام «أسياد العالم» على تجويع واستغلال ثلثي البشرية الذين أعدمت قدرتهم الشرائية . إن انتشار عطالة العمل والطرد التعسفي للعمال في البلدان المهووسة بفكرة «تنمية» الأرباح ، إضافة إلى الإنتاج الضخم واستخدام التكنولوجيا ، أدى كل ذلك إلى النهب والتجويع وإضاعة المصادر الطبيعية .

– وما هي نتائج السير على هذا الطريق ؟

– سيؤدي الاستمرار في هذا الطريق إلى الانتحار الكوني ، سواء من خلال ثورة الضحايا واضطهادهم الدموي أو من خلال إفقار الطبيعة وتلوثها . ومنذ أعوام طرحوا فكرة أن خلاص البلدان الآسيوية الفتية يجب أن يمر عن طريق الاندماج في السوق العالمية تحت شعار وحدانية السوق . وقد اتضح أن التخلف ما هو إلا نتيجة ضرورية للتبعية الاستعمارية التي تتجسد حاليا في صورة الهيمنة الأمريكية . إن غرض رؤوس الأموال المتدفقة على هذه البلدان لا تهدف إلى إخراج هذه الدول من التبعية بل تعمل على استغلال شعوبها من خلال تشغيل واستغلال حتى أطفالها بصورة عبودية ، وذلك لإنتاج مواد النسيج والإلكترونيات للزبائن الأمريكيين الشماليين أو للأوروبيين ، كما هو حاصل في تايلند حيث ارتفع الاستغلال من ٢ مليار ونصف إلى ٤ مليارات في غضون عام واحد ١٩٩٤ – ١٩٩٥ . ومن أجل تشجيع الاستثمار

تعمل هذه الدول على تخفيض قيمة عملتها . وفي الوقت نفسه ، ارتفعت ديون هذا البلد من ٢٩ إلى ٤١ مليار دولار . ومنذ عام ١٩٩٨ ، انخرطت في هذه المتاهة كل من كوريا الجنوبية وإندونيسيا وتايلند . وفي محاولة للخروج من هذه المتاهة اضطرت إلى التوجه نحو صندوق النقد الدولي والقبول بأسوأ الشروط الاقتصادية والسياسية الأمريكية «الشايلوكية» من أن أجل استجداء القروض .

- ولكن بعض الدول لم تنخرط في هذه السوق ، أليس كذلك ؟

- أجل ، الهند على سبيل المثال ، ومعها جميع الشعوب الآسيوية الأخرى بدأت تعي هويتها رويدا رويدا ، وبخلاف أوروبا ، التي لا تعرف الهوية الروحية تحت سيادة «المسيحية» ، بل السوق المفتوحة والتابعة إلى السوق الأمريكية العالمية ، أما شعوب آسيا فما تزال تواصل استلهام قوتها من تقاليدها الروحية وهي متنوعة ، تمتد من الهند الصينية إلى اليابانية إلى الكونفوشيوسية إلى الإسلام إلى الهندوسية . وربما أبرز مثال على ذلك الملحمة التي قادها غاندي ضد القوى الاقتصادية العظمى المتمثلة آنذاك في «الإمبراطورية العثمانية» . إن هذه اليقظة ، أي يقظة الإنسان ضد الحياة الخالية من المعنى ، والمتركزة على سلطة المال ، بدأت تسري في القارات الأخرى ، ليس كحالة من الحنين بل كحالة من الأمل في لاهوتيات التحرير في أمريكا الجنوبية والوسطى ، وفي اليقظة الإسلامية شرط أن تكون بعيدة عن الأصولية ، وتجد كونيتها أيضا في وعي القيم التقليدية لأفريقيا التي كانت لفترة طويلة تعاني من الاستعباد والنهب الكولونيالي ومضاربات رؤوس الأموال الخارجية . من المحزن أن الولايات المتحدة هي الوحيدة التي تسير قواعد اللعبة في اتجاه مضاد . ومنذ اتفاقية مايستريخت أصبحت أوروبا تابعا للتأثير الأمريكي ، ولا تلعب سوى دور هامشي ، ولا تقوم بدعم حركة مقاومة القارة الإيروآسيوية التي تقوم بتوحيد صفوفها ضد «العولمة» الاستعمارية التي تجسدها الولايات المتحدة خير تجسيد . ونتيجة لذلك فقد تعرضت البلدان الآسيوية إلى مسألة إضعاف اقتصادها ، وتعرضها إلى أزمة مالية مؤخرا ، حيث انخفضت قيمة العملات الآسيوية بنسبة ٤٠ بالمائة ، ونسبة ٨٠ بالمائة في أندونيسيا ، و٣٨ بالمائة في تايلند ، و٥٥ بالمائة في بيرمانيا ، في الوقت الذي ما زالت ديونها الخارجية سائرة في طريق التضخم .

- ما هو السبيل لتجنب وقوع كل ذلك ؟

- من كل ذلك يمكن أن يولد عالم جديد يتأرجح في الاختيار بين الانتحار الكوني الذي يمتثل إلى قوانين الهيمنة الأمريكية الحالية أو بين انبعاث حقيقي أصيل ، وربما أن ظهور الشركات العملاقة في الصين وغيرها يمكن أن يشيد هذا الجسر الأوروآسيوي ، ويكون جسرا عابرا للقارات قادراً على الربط بين أمريكا وأفريقيا ، لأننا بذلك نتأمل أن نعيد بناء «الوحدة السمفونية للعالم» من خلال احترام ثقافات وروحانيات كل شعب من الشعوب ، كي تتوحد حول فكرة واحدة وهي خلق عالم متضامن وخصب ، من خلال الاعتراف بوحدة المقدس والطبيعة والإنسانية .

- أين يكمن الخلل في العالم الذي تحاول الولايات المتحدة الهيمنة عليه ؟

- تكمن المشكلة الأساسية ، في الألفية الثالثة ، في عملية استبدال الوحدة الإمبريالية تحت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية وشركائها المتواطئين معها ، بوحدة سمفونية متناسقة تخلق ما يمكن تسميته بالمجتمع المتفرد ، حيث يقوم كل شعب ، وبشكل متساو ، في الإسهام بثقافته الخاصة وإيمانه الخاص من أجل أن يكون باستطاعة كل طفل ، وكل امرأة ، وكل رجل ، في العالم أجمع - عبر الوسائل الاقتصادية والتقنية والثقافية والروحية المتاحة - أن يطور كل الإمكانيات الكامنة في داخله ومن ثم وضعها في خدمة الجميع . وهذه هي الرسالة الخالدة لجميع عقلاء الشرق ، مثل الأديان الإبراهيمية التي تذكرنا بطريق الله ، وهو تطوير كل كائن إلى أقصى حدود النمو والازدهار . لكن السياسات الغربية أعلنت إفلاسها أسرع من الكنائس . ووحدها الانطلاقات الكبرى للإيمان أثناء تغلغلها في الجموع ، هي التي غيرت مجرى التاريخ رغم الضعف والدناءة أو الادعاءات اللفظية التي يتمسك بها قادتهم ورعاتهم السيئون .

إننا على أعتاب هذا القرن ، أكثر حاجة من أي وقت مضى لصعود جديد للإيمان لا يعمل على تحريك الجبال فحسب ، بل يحمل الأرض بأكملها على أكتافه حسب أسطورة أطلس . ومن أجل معرفة حجم هذه المهمة ، يكفي أن نقوم بجرد حساب لهذا القرن اللعين الذي أشرف على الانتهاء . ولا تشمل هذه الجردة حروبه فقط ، التي أدت إلى ١١ مليون قتيل في الحرب العالمية الأولى ، و ٥٠ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية ، من أوشفيتس إلى هيروشيما ، ومن الجزائر إلى راوندا ، ومن لبنان إلى فلسطين ، ومن العراق إلى كوسوفو . دعنا نعيد النظر مرة أخرى في أكبر الجرائم التي اقترفت في التاريخ ، لنكتشف بأن البؤس والمجاعة قتلا أكثر من الحروب . إن نموذج النمو والتطور في الغرب يكلف بقية أنحاء العالم ، من خلال تعميم سوء التغذية والمجاعة ، ٤٠ مليوناً من الموتى في العام من بينهم ١٣ مليوناً ونصف المليون من الأطفال [حسب تقديرات اليونسيف] أي ما يعادل ما سببته هيروشيما من موتى كل سنتين . وأكثر من ذلك ، فإن الحصار الفظيع الذي فرض على العراق طيلة ١٣

عاما ، على سبيل المثال ، قتل نحو مليون طفل . ومع [عولمة] الاقتصاد ، وديانة وحدانية السوق ، التي تبررها وتقدسها وتطهرها ، تعطي امتياز الهيمنة الأكثر قوة ، بحيث تتعمق الهوة بين البلدان الغنية وبلدان العالم الثالث .

- هل ثمة حلّ لمشكلة الأمن الغذائي ؟

- إن المنتوجات الغذائية في العالم قادرة على إطعام ٨ مليارات شخص . لكن ثلاث دول فقط هي الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا التي تخزن فائض الحبوب بمقدار يزيد على ١٠٠ مليون طن . و٣ إلى ٤ بالمائة من هذه الحبوب تكفي لتجنب ملايين الموتى من المجاعة . رئيس منظمة التنمية في الأمم المتحدة ، جيمس غوستاف سبيث ، أعلن لصحيفة «اللوموند» في عام ١٩٩٦ [أن ١٦ مليار شخص يعيشون أسوأ مما كانوا يعيشون في بداية عام ١٩٨٠] . وأضاف [أنه في مدى جيل ونصف ازدادت الفوارق بين البلدان الأكثر غنى والبلدان الأكثر فقرا بدرجة كبيرة : ففي بداية سنوات الستينات كان الفارق من ١ إلى ٣٠ ، أي ٢٠ بالمائة في الدول الأكثر غنى و٢٠ بالمائة في الدول الأكثر فقرا في الكون . أما اليوم فإن هذا الفارق وصل إلى نسبة ١ إلى ٦٠] . ويضيف [إن الكلمات المفاتيح لنهاية هذا العصر هي الخصخصة والتحرر وقلب القوانين ، بحجة مواصلة التطور . ولكن يصاحب هذا التطور ، كما يقول ، أكبر حجم من الفقر والظلم ، وأكبر نسبة من عطالة العمل] . وأبرز مثال على هذا التفكك المادي والأخلاقي هو الولايات المتحدة ، طليعة الانحطاط ، التي بدأت تاريخها ب [التطهير العرقي] واختزلت المواطنين الهنود الأصليين من ١٠ ملايين إلى ٢٠٠ ألف ، ومن ثم مارست استعباد السود زهاء أكثر من قرن بعد [إعلان الاستقلال] ، وما زالت تمارس التمييز العنصري حتى أيامنا هذه ، وهي من البلدان النادرة التي ما زالت تمارس عقوبة الإعدام . في عام ١٩٩٤ ، كان يوجد ٢٠٠٨ محكومين بالإعدام ينتظرون موعد التنفيذ فيهم ، وهناك مَنْ أمضى أكثر من ١٢ أو ١٥ أو ١٨ عاما . ومن أجل أمور تتعلق بالمردودية والربح [يقومون بجمع عمليات الإعدام وتنفيذها في يوم واحد] .

وكان حاكم تكساس السابق ، وهو جورج بوش الابن ، الرئيس الأميركي الحالي ، أمر بتنفيذ عشرة إعدامات في يناير ٢٠٠٠ . ومنفذ - مسلسل القتل - هذا كان مرشحا لرئاسة الجمهورية آنذاك .

إن مضاعفة [الأخطاء] القانونية مثل اختبار الـ[دي . إن . إي] أي فحص الدم لمعرفة العرق سمح بإعفاء ٢٧ بريئا . فالبربرية تتصاعد أكثر فاكثر من ذلك ، إذ يصل الظلم إلى درجة التفريق بين القادرين على دفع أجور المحامي وبين العاجزين عن دفعها . والإعدامات تجري حسب الولايات ، من الإعدام بالأجهزة الكهربائية إلى غرف الغاز إلى زرق الإبر المميتة . ويجري كل ذلك تحت أنظار عدسات الكاميرا وأعين الجمهور .

وهنا أيضا ، لا يعتمد تنوع الأحكام فقط على لون البشرة بل على كمية الثروة . إن الرأي التفضيلي بالنسبة للأغنياء يقود إلى إعطائهم السلطة : جون جاي ، أول رئيس للمحكمة الكبرى في الولايات المتحدة ورئيس الكونغرس الإقليمي ، فإنه [لكي ينتخب سيناتورا أو عضوا في مجلس النواب في عام ١٩٨٨ ، على سبيل المثال ، طالب بميزانية للإعلانات تقدر ب ٥٠٠ مليون دولار أي عشرة أضعاف ما كانت عليه في عام ١٩٧٠] . كان ثلثا المحكومين بالإعدام في الولايات المتحدة مادة للمراجعة في محكمة الاستئناف . وبموجب دراسة أنجزها الباحثون في كلية الحقوق في جامعة كولومبيا في نيويورك ونشرت في ١٢ يونيو ٢٠٠٠ ، أكدت على أن الغالبية العظمى من أحكام الإعدام كانت مادة للطعن بطريقة النقض ما بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٩٥ ، مما أدى إلى نتائج غير منتظرة . وانطلاقا من هذه المراجعات ، تمت إعادة محاكمة ٧ بالمائة من الأشخاص الذين حوكموا ، وتم إعلان براءتهم ، بينما تلقى ٨٢ بالمائة منهم عقوبات مخففة . وهذه الدراسة تبين ، بموجب مؤلفيها ، بأن [صياغة هذا النظام تمت لغرض ارتكاب الأخطاء ومن ثم محاولة تصحيحها – جيمس ليبمان ، منسق الأشغال] . بمناسبة مؤتمر حقوق الإنسان الذي انعقد في ١٠ يونيو من عام ٢٠٠٠ في باريس ، أعلن رئيس الجمعية الوطنية ، ريمون فورني ، خطابا انتقد فيه عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة [لم يعد ذلك هو الاستعباد ولا التمييز العنصري المنظم ، بل هو عقوبة الموت : الزرق بالإبر . بإطلاق الرصاص . الموت بالصعقة الكهربائية . بالغاز . الشنق . . . . في بلد التجديد ، حتى الاختراع يكون في خدمة الموت . . . . غريب هذا البلد حيث يكون الدين حاضرا إلى حد الهوس ، حتى أن موضوع الثقة بالله يتجسد على العملات النقدية . . . . . ولكن لا يحق لأحد أن يطرح موضوع خلاص البشر حتى بالمفهوم المسيحي] . هذا ما طرحه المقرر القديم لقانون ١٩٨١ القاضي بإلغاء عقوبة الإعدام .

ومن ناحية أخرى انتقد ريمون فورني ، المرشح الديمقراطي إلى البيت الأبيض آنذاك آل غور : [وبمواجهة هذه الهمجية ، ما الذي قاله وما الذي فعله ، وما الذي اقترحه المرشح الديمقراطي ؟ لا شيء . صمت مقلق أو موافقة ضمنية من قبل خصمه جورج دبليو بوش الجمهوري] ؟

ومن هنا يمكننا أن نفهم بأن المنتخبين اقتنعوا بعبثية ولا معنى أصواتهم لدرجة وصلت فيها نسبة الممتنعين عن التصويت إلى ٧٠ بالمائة .

– تستخدم كثيرا مصطلح «الهولوكوست» في كتبك ، ما هي أهم معانيه لديك؟

– عندما نتحدث عن «الإبادة» ، عادة ما نضيف إليها كلمة ال «هولوكوست» اللاهوتية ، وذلك من خلال إعطائها المعنى الذي يكسبها مفهوم «أكبر جريمة في التاريخ» ، ونحاول محو مجازر الرأسمالية الأكثر وحشية : إبادة ٥٠ مليوناً من الهنود في أميركا ، والذين أبيدوا في أعمال السحرة والأوبئة في أوروبا أكثر مما أبيدوا بالسلاح ، وكذلك قتل ١٠٠ مليون أفريقي [عشرة قتلى في كل عملية أسر] من أجل نقل ما يتراوح بين ١٠ و٢٠ مليوناً من العبيد إلى أميركا . وحسب إحصائيات اليونسيف لعام ١٩٩٣ في تقرير [تقدم الأمم] يموت ١٣ مليون طفل تقل أعمارهم عن خمسة أعوام سنويا في العالم ، إثر الجوع وسوء التغذية والأمراض السهلة ، بسبب فرض نموذج التطور الغربي على الشعوب الأخرى .

ومن خلال استخدام اللغة المضللة باستمرار ، يتم فرض أكبر «إبادة» وأكبر«هولوكوست» في التاريخ . وفي كل عام ، يقتل «صندوق النقد الدولي» الأبرياء أكثر مما قتل هتلر أثناء هيمنة الوحشية طيلة ١٢ عاما .

هل يمكن أن نتخيل بأن أربعة أخماس البشرية ممن تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما ، يخضعون إلى عملية القتل دون أن يتمردوا ، من خلال اللعبة السرية القاتلة التي تقودها الولايات المتحدة تحت اسم «الليبريالية التوتاليتارية» بمعاونة «صندوق النقد الدولي» التابع لها .

– لماذا وقفت الولايات المتحدة مع أعتى الدكتاتوريات في العالم بينما تدعي الحرية ؟

– يمكن للاستحقاقات أن تتأخر ، مثلما كانت الولايات المتحدة تعمل على تمويل الدكتاتوريين الدمويين وتربيتهم في الأرجنتين والبرازيل والتشيلي ونيكاراغوا وسوموزو وعموم أميركا اللاتينية ، أو مثلما تعمل الحكومات الفرنسية المتعاقبة على تمويل وتربية وتسليح الجلادين في راوندا ، وبذلك فهي تصبح مسؤولة عن ٤٠٠ ألف

ضحية ، إضافة إلى اعتراف هذه الحكومات بقطع سير الانتخابات في الجزائر بشكل اعتباطي ، وتقديم الدعم للطغمة العسكرية المسؤولة عن القتل الأعمى والإجرامي ، الذي لا يمكن أن يتوقف إلا بعودة شرعية الحوار الحقيقي بين الجزائريين جميعهم . لذا ينبغي على فرنسا أن تكف عن التدخل لأنها بذلك تصبح عائقا أمام إحلال الهدوء والسلم ، من خلال دعمها المالي والسياسي للدكتاتورية العسكرية التي عطلت الانتخابات بشكل مفاجئ .

إن الانحراف القاتل للحكومات في الولايات المتحدة وتوابعها في أوروبا الغربية ، التي لا ترسم أية مشاريع مستقبلية ، لا يمكن أن تقودنا إلا إلى الانتحار الكوني .

- كيف يتم الخروج من هذه الأزمة الانتحارية ؟

- لا تستطيع فلسفة «الكائن» أن تجيب عن هذا السؤال . من الممكن أن تكون هذه الفلسفة ذات طابع تجريبي على طريقة النموذج الإنجليزي ، والمبنية على الملاحظة الوحيدة التي تستقرأ ، مثلما كانت تفعل قوانين الاتجاهات الضارة في السياسة «الأوليغارشية» أي الطغمة المالية الداخلية وسياسة الإمبريالية الخارجية التوسعية . ومن الممكن أن يكون ذلك ذا طابع رياضي وميكانيكي ، منغلقاً في الطوق الديكارتي ، في انطلاقه من الشك الكاذب المؤدي إلى المؤكد الحتمي ، عالم بلا روح . فالاستخدام التقني للأشياء والبشر وانغلاقه في سجنه البديهي ، يعمل على تهميش المطلق ، بمعنى يضع اليقينيات المزيفة موضع تساؤل ، تلك التي تتخذ على أنها «ثوابت» عقلانية أو «معطيات» حساسة . وهذا يؤدي ، في نهاية المطاف ، إلى رفض الأسباب النهائية ، بمعنى البحث عن الهدف في كل فعل وكل غاية من غايات الحياة . وحدها فلسفة «الفعل» قادرة على تأسيس ، بكل ما يصاحبه من مخاطر ، اتجاه إرادي لفكر يتمكن من تغيير العالم ، من خلال اقتلاع «ما هو موجود» لبناء المستقبل ، من موقع «حدس» الاحتمال في العلوم ، واليوتوبيا في الأخلاق ، والتجاوز في الإيمان .

إن مشاكلنا اليومية والشخصية ، سواء كانت سياسية أو روحية ، تظهر في أفق جديد لا يخضع إلى النظام المؤسس على «الفكر الأحادي» و«السياسة الصحيحة» بل المؤسس على فعل الإدارك النضالي وطموح تحقيق المستقبل بوجه إنساني .

ألا نرى العالم مثل معطى لا يعترض عليه أحد من الإحساس أو «الفعل» المبتور

عن ديكارت من ناحية الوسائل التقنية فقط . ولكن معالجته من وجهة نظر العقل غير المحدود ، تتم في البحث عن الوسائل العلمية والتقنية لغرض الاستجابة إليه . وبمقدور الغايات أن تخدم أروع الاكتشافات في الذرة والعبقرية والكومبيوتر وازدهار البشرية بأكملها وليس إفسادها وتحطيمها .

من خلال هذه الفلسفة التحررية ، فإن الانتقال من فلسفة الكائن إلى فلسفة الفعل ، يسمح لنا برؤية العالم ، ليس من خلال انغلاقنا ، بل على العكس من خلال البحث عن عرض الاحتمالات الممكنة وإخفاء كل وضع تاريخي ، مما يسمح لنا بالانفتاح نحو المستقبل المبني .

- ما هي المحاور التي من الممكن أن تتطور من خلالها هذه الأوضاع ؟

يمكن إيجازها بالمحاور التالية :

أولاً : هل أن التنمية ، التي تفرضها فرنسا من وجهة النظر السياسية لاقتصادها وثقافتها ، معطى حتمي كما كان يفكر «الواقعيون» في زمن الاحتلال العسكري الألماني ، من خلال الانغلاق في «معطى الحقائق» ، أم هي نتيجة لماض سلبي مصنوع من الإهمال والخضوع إلى علاقات القوة الجديدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية؟ إذن من الممكن خرق كل ذلك من أجل منح فرنسا استقلالها وقدراتها للاشتراك في إبداع وحدة العالم المتناسقة وليس الإمبريالية .

ثانياً : المشكلات الأساسية في زماننا عديدة : المجاعة تتفاقم في العالم ، عطالة العمل لا تتوقف عن الازدياد في بلدان أوروبا الأكثر صناعية ، والهجرة . . إنها تجسد «قدرية التاريخ» . إن فكاهة «النمو» [الذي يحطم وظائف العمل أكثر مما يخلقها ، رغم أن إنتاجية العمل تتزايد بفضل التقدم العلمي والتقني] ، حيث عملت الآلة على طرد العمال اليدويين من المصانع . وثمة فكاهة ساخرة أخرى وهي أن «أوروبا» تعطي الانطباع بإغراء وجود «سوق» تتكون من ٣٠٠ مليون زبون ، من بين البلدان التي لا يكون اقتصادها مكملا بل منافسا ، يتمخض عن صراع مميت بين المتنافسين على سوق العمل ، مما يؤدي إلى معادلة الأجور المتدنية التي تعني إفقار الناس .

ثالثاً : تفاقم الفروقات بين دول الشمال ودول الجنوب : إن حلول المشكلات الثلاث مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمجاعة والعطالة عن العمل والهجرة . لكن التضامن الدولي

يقتصر على الغرب وحده واقتصادياته الاستعمارية ، متناسياً الفروقات الموجودة بين الشمال والجنوب .

- أنت تدعو إذن إلى فلسفة العمل ؟

- هذه هي نتائج التفريق بين فلسفة الكائن وفلسفة الفعل . إنها تسمح لنا اليوم كما سمحت لنا بالأمس أن نختار معسكرنا : الكاردينال كيوس وقف ضد الاتجاه المهيمن على الكائن ، وتوماس مور اختار «الطوباوية» ، ضد النظام الأولغارشي والإمبريالي في إنكلترا ، والجنرال ديغول والحزب الشيوعي الفرنسي ثارا ضد الخنوع للنظام النازي .

السلاح النووي الإسرائيلي وفرض الهيمنة الأمريكية

- لماذا تتستر إسرائيل على سلاحها النووي ؟

- يمكنني في هذا الصدد الإشارة إلى كتاب البروفيسور إسرائيل شاحاك ، الذي ألقى ضوءا جديدا على سياسة إسرائيل الخارجية ، ويوضح ، حسبما نقلته الصحافة الإسرائيلية ذاتها ، أن إمكانية استخدام القادة الإسرائيليين لسلاحهم النووي يعني المساهمة بشكل فعال في عملية فرض هيمنة الولايات المتحدة . وهذا ما يمكن أن يؤدي إلى تفجير حرب عالمية ثالثة . لقد تمت صياغة الخط الموجه للسياسة الإسرائيلية الخارجية قبل وجود الدولة الإسرائيلية بنصف قرن من قبل «الأب الروحي» تيدور هيرتزل . وتاريخ إسرائيل كله ، منذ نشوئها ، يشير من خلال سلسلة اعتداءاتها واختراقاتها لحدود جميع الدول المجاورة لها ، إلى أنه تم تطبيق هذا الخط الموجه ، بحذافيره . وقد عرضت هذه السياسة بكل وضوح في عام ١٩٨٢ في لحظة غزو لبنان ، بمجلة «كيفونيم» الصادرة في القدس من قبل «المنظمة الصهيونية العالمية» عام ١٩٨٢ .

- هل تعتقد بأن اتفاقيات كامب ديفيد يمكن لها أن تدوم في ظل ظروف الأزمة الحالية ؟

- إن الوضعية الاقتصادية لمصر وطبيعة نظامها وسياستها العربية الشاملة ، ستؤدي إلى ظهور ظروف تحتم على إسرائيل التدخل . ومصر ، بحقيقة تناقضاتها الداخلية ، لم تعد تمثل مشكلة على الصعيد الاستراتيجي ، ويمكن في أقل من ٢٤ ساعة أن تعود إلى أوضاع ما بعد حرب حزيران يونيو عام ١٩٦٧ .

إن الأسطورة القائلة إن مصر «قائدة العالم العربي» قد ماتت ، وبالمقارنة مع إسرائيل وبقية العالم العربي فإنها فقدت ٥٠ في المائة من قوتها ، وعلى المدى القصير يمكنها أن تجني الفوائد من استعادة سيناء ، ولكن ذلك لن يغير من موازين القوى بشكل أساسي .

ومصر الكيان المركزي تحول إلى جثة ، وخصوصا إذا ما أخذنا في الحسبان التصادم المتزايد بين المسلمين والمسيحيين أكثر فأكثر . وتقسيمها إلى محافظات

جغرافية له هدف سياسي على الجبهة الغربية طيلة سنوات التسعينيات . وحين تم تحييد مصر وحرمانها من قوتها المركزية ، فإن دولا مثل ليبيا والسودان ودولاً أخرى بعيدة ستعرف الانحلال ذاته . وإن تشكيل دولة قبطية في أعالي مصر وكيانات صغيرة في المناطق هو مفتاح التطور التاريخي الحالي الذي تم تأخير تنفيذه بفعل اتفاقية السلام ، ولكن ذلك سيكون حتمي الحدوث على المدى البعيد .

وعلى الصعيد الظاهر فإن جبهة الغرب تنتج مشاكل أقل من جبهة الشرق ، وإن تقسيم لبنان إلى خمس مقاطعات يستشرف ما سيحدث في العالم العربي بأكمله . كما أن توزع سوريا والعراق إلى مناطق محددة على قاعدة المقاييس الاثنية أو الدينية ، لا بد أن يكون هدفا إسرائيليا على المدى الطويل ، والمرحلة الأولى هي تحطيم القدرات العسكرية لهذه الدول .

إن التشكيل الديني والطائفي لسوريا يسمح بقيام دولة شيعية «علوية» على طول الشاطئ ، ودولة سنية في منطقة حلب ، وأخرى في منطقة دمشق ، وكيان درزي يأمل في إقامة دولته الصافية ربما في الجولان . وفي كل الأحوال مع الجولان وشمال الأردن ، ستكون على المدى الطويل الضامن للأمن والسلام في المنطقة . وهذا هدف في متناول اليد الآن .

والعراق الغني بالنفط ، وفريسة الصراعات الداخلية ، هو أيضا على خط التسديد الإسرائيلي ، وتفسخه بالنسبة للولايات المتحدة أهم من تفسخ سوريا لأنه ، على المدى القصير ، يشكل التهديد الجدي لإسرائيل . إن حربا سورية عراقية ستساعد على انهياره من الداخل قبل أن يصبح قادرا على شن حرب أخرى .

– من المستفيد من المواجهات العربية – العربية ؟

– إن جميع أشكال المواجهات العربية – العربية ستكون في مصلحة إسرائيل وستقرب ساعة الانفجار ، ومن الممكن أن تكون حرب العراق مع إيران الدافع في تنمية ظاهرة الاستقطاب هذه .

وشبه الجزيرة العربية كلها مهيأة لتفسخ من النوع نفسه تحت الضغوط الداخلية . وهذا الوضع ينطبق بشكل خاص على المملكة العربية السعودية ، وتزايد المشاكل الداخلية هناك وسقوط النظام ، كلها أمور تدخل في منطق بنائها السياسي الحالي .

– هل تعتقد بأن الولايات المتحدة لم ترغب برؤية ولادة الاتحاد الأوروبي ؟

– بطبيعة الحال ، ماستريخت تقع في سياق سياسة الهيمنة العالمية للولايات المتحدة . في آذار (مارس) ١٩٩٢ نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» وثيقة واضحة للبنتاغون يمكننا قراءة ما جاء فيها : «إن وزارة الدفاع تجزم بأن الرسالة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة ، في فترة ما بعد الحرب الباردة ، هي عدم السماح بقيام قوة عظمى في أوروبا الغربية أو في آسيا أو على أراضي الدول الأوروبية المشتركة .

وستكون مهمة الولايات المتحدة هي إقناع المنافسين المحتملين بأنه لا داعي للحلم بلعب دور أكثر أهمية ولا تبني موقف أكثر عدائية ، وبالعدول عن تحدي تفوقنا أو البحث عن قلب النظام السياسي والاقتصادي الموجود» .

وتؤكد هذه الوثيقة على تعميم «الإحساس بأن النظام العالمي تدعمه الولايات المتحدة في نهاية المطاف» ، ويرسم عالما توجد فيه قوة عسكرية مهيمنة ، لا يسمح في ظله للآخرين بالخروج على الترتيبات التي تهدف إلى إضعاف المنافسات المحتملة التي تأمل في لعب دور إقليمي أو عالمي أكثر أهمية . «نحن يجب أن نبحث عن إعاقة ظهور أنظمة أمنية أوروبية بالدرجة الأولى تعمل على الحلول محل حلف الأطلسي» ، هكذا تقول صحيفة هيرالد تريبيون الدولية في عام ١٩٩٢ .

وهناك نص في معاهدة ماستريخت يعزز تلك المقولة القائلة : «يتحرك الاتحاد الأوروبي طبقا للقرارات المتبناة في حلف الأطلسي» . وقد تبنت الدول المهيمنة في ماستريخت إعلانا مشتركا يحدد وظائفها وهي (تقوية الدعامة الأوروبية في حلف الأطلسي) . وأثنت الاتفاقية على المؤسسات الأوروبية التي تمارس سياسة مشتركة في ميادين السياسة الخارجية ، وهذا يعني ، كما في الرسالة التي كتبها بول ماري لاغورس ، مدير مجلة الدفاع الوطني الفرنسية ، «أنه لم تعد هناك سياسة وطنية أبدا» . وعلى الطريق نفسه أطلق جورج بوش في عام ١٩٩١ مبادرته بإنشاء «سوق وحيدة» لأميركا تمتد من (الأسكا حتى أرض النار في القطب الآخر) .

– ما هو موقع دول العالم الثالث من ذلك ؟

– على النحو ذاته تم إبلاغ الرؤساء الأفارقة ، بأن إرادة أميركا تسعى إلى التوحيد الاقتصادي السريع لإفريقيا ، وقد نادى بالطريقة ذاتها الرئيس ريغان منذ ١٩٨٥ ، «بتوسيع الوحدة الأوروبية كي تمتد من لشبونة حتى داخل الأراضي السوفيتية» وقد قدمت التهاني لجورج بوش على (القرارات التاريخية) المتخذة في ماستريخت .

وماستريخت تعني تجمعا شاملا لكنه محدد مبدئيا باقتصاد سوق لا حدود لها ، والتي من خلال تطبيقاتها لا تعود هناك تأميمات ممكنة تتلاءم مع أجواء (المراقبة) والحظر .

وحتى لو كان هناك اقتصاد قوي بعيدا عن هذه السوق الرأسمالية من دون حدود وذو وجه (ليبرالي) ، فإن المشكلة هي معرفة إذا ما كان هذا الاختيار مفروضا من قبل الاتفاقية ، التي لا يستطيع أحد التراجع عنها مبدئيا ، وإذا ما كانت الشعوب ترى منع أي اختيار آخر . وتشترط الفقرة ١٣ من قرارات اتفاقية مايسترخت منع الرجوع عن هذه القرارات بسرعة .

– هل تعتقد بأن البطالة تنخر أوروبا على الرغم من توحدها ؟

– في إسبانيا وإيطاليا ثمة انفجار تاريخي للبطالة لا مثيل له ، وحسابات تؤدي إلى دوار الرأس بالنسبة إلى اليونان والبرتغال ، أما بالنسبة إلى الفرنسيين لا يمكن أن تخفى عنهم لفترة طويلة السياسة المفروضة من قبل ماستريخت تحت الألوان الليبرالية في العودة إلى اقتصاد السوق ، لأنها في الحقيقة النموذج الأكثر رجعية في السنوات الستين الأخيرة . وهكذا يتم الدخول في السوق العالمية التي تهيمن عليها الولايات المتحدة ، وتسلم أوروبا زراعتها وصناعتها وتجارتها وفنها السينمائي وثقافتها بأكملها ، إلى قوانين (التبادل الحر) ، بحيث أن اقتصاديا مثل موريس إلياس (الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد) قال محذرا : (إنني أستبعد ، في الأقل على مستوى المستقبل المنظور ، جميع التوجهات نحو تبادل عالم حر كما في الاتجاه السائد حاليا) .

وثمة أمثلة حديثة ومؤلمة تبرر مخاوفه ، أولا ما يخص الزراعة الأوروبية التي أصابها الخراب من أجل خدمة مصالح المزارعين الأميركيين .

ويضيف موريس إلياس : (إن تقدم العالم نحو مستقبل أفضل لن يكون نتيجة إنشاء تبادل عالمي حر ، فالإنتاج الزراعي الأوروبي حيوي للغاية ، اقتصاديا وثقافيا ، أما الطلبات الأميركية ، الناتجة عن السوق الزراعية الأوروبية التي يمكن أن يتم غزوها من قبل إنتاج المزارعين الأميركيين ، فهو أمر لا يمكن قبوله بسهولة) .

والصناعة الأوروبية لا تقل خطورة في أوضاعها . وتحت ذريعة إدامة قواعد المنافسة في أوروبا ، منع المفوض الأوروبي للمنافسة ليون بريتان شركتين فرنسية وإيطالية من شراء شركة الطيران (دي هافيلاند) ، وذلك لمنع مجموعة أوروبية من أن

تكون لها طاقة قادرة على إزعاج الشركات الأميركية ، وهكذا تمارس الولايات المتحدة ضغوطاتها من أجل ألا يتجاوز الدعم المالي المدفوع لصالح صناعة الإيرباص نسبة ٢٥ في المائة من سعر الطائرات ، بدلا عن نسبة ٣٥ في المائة التي لا يريد الأوروبيون أن تنخفض . والأميركيون أصحاب دعايات (التبادل الحر) يهددون بالانتقام من خلال كسر ضرائب الإيرباص التي تغلق عليهم السوق الأميركية .

والحال نفسها بالنسبة إلى جميع القطاعات ، منذ قضية المياه المعدنية ، إذ عارض ليون بريتان شراء شركة «بيرييه» من قبل «نستلي» كي يمنع تركيز السوق في أوروبا ، وفي الحقيقة هناك حرص على عدم فتح سوق تنافسية مع الشركات الأميركية ، حتى في مجال الالكترونيات : بعد المجموعة الهولندية فيليبس والمجموعة الفرنسية - الإيطالية تومسون اس جي اس ، فإن المجموعة الألمانية (سيمنس) تخلت عن أمالها الكبيرة وتركت الإنتاج الضخم لشركة إي . بي . إيم . الأمريكية ، ويمكننا أن نتصور حجم الكارثة في ميدان العمل والعطالة اللذين وضعا تحت رحمة التعنت التكنولوجي الأميركي .

- هل تعتمد الولايات المتحدة على بيع السلاح في اقتصادها ؟

- المثال الأكثر نموذجية هو تجارة السلاح ، ففي أقل من عام بعد الوعود التي قطعها جورج بوش في الصراع ضد تعدد مصادر السلاح ومن ضمنها السلاح التقليدي ، تحرض اتفاقية أيار (مايو) ١٩٩١ المعقودة بين البنتاغون ووزير الدفاع ديك تشيني الحكومة الفيدرالية على دعم المصدرين الأميركيين لعرض أسلحتهم وبيعها .

ونتج عن ذلك أن الولايات المتحدة ضاعفت تقريبا صادراتها من الأسلحة ، بعد أن أمنت لها حرب الخليج حملة إعلانية لم يسبق لها مثيل .

- هل يمكن أن يصبح الاتحاد الأوروبي داعما للعالم الثالث أمام الهيمنة الأميركية ؟

- تشكل أوروبا (الدول ال ٢٥) نادي قدماء الاستعماريين جميعهم بلا استثناء . وعلى الرغم من ذلك ، تكرس اتفاقيات ماستريخت ٢١ سطرا من ٦٦ صفحة لتعريف علاقاتها مع العالم الثالث ، وتورد أقوالا طيبة حول تطورها والصراع ضد الفقر ، أما الأطروحة الأساسية فهي : ضم الدول النامية إلى الاقتصاد العالمي ،

وهذا ما يعني أيضا أن تقوم بقتلها . لقد وافقت اليوم «القوى» الاستعمارية الأوروبية القديمة ، بعيدا عن منافساتها التقليدية ، على السيادة الأميركية المطلقة من أجل استعمار من طراز جديد ، متحد وشمولي . وهكذا تبقى أوروبا ذات وجه استعماري ولكنها تبقى تابعة ، كما في دول عديدة ، للأسياد الأميركيين .

الصهيونية تشكل خطر الحرب الدائمة

- هل ما تزال إسرائيل تشكل تهديدا خطيرا للعالم العربي ؟

- هتلر ربح الحرب إلا أن الولايات المتحدة وإسرائيل جنتا ثمارها وواصلتا سياستها ، كما أن اندحار نابليون لم يمنع من أن تعيش فرنسا وأوروبا قرنين حسب منطق الأنظمة التي أسستها . الأشياء ذاتها حصلت حتى بعد اختفاء هتلر : وأهدافه الأساسية تحققت . كان يهم بإخضاع السلاف لهيمنته . وقد حقق انفجار الاتحاد السوفييتي حلمه أيضا . أراد هتلر أن يتسيد العالم وتحقق ذلك منذ معاهدة ماستريخت .

والسؤال المطروح هو : من الذي حقق مخططات هتلر نيابة عنه ؟

- الواضح أن الولايات المتحدة بدأت هي الأخرى تتبع خطا هذا المشروع الذي يسعى إلى تحقيق الهيمنة على العالم بأكمله ، وبإصرار شديد فرض هذه الهيمنة على من يقاومون مثل العراق قبل احتلاله ، ولا يمكن القول بأن المنتصرين حققوا ذلك . بينما تسعى الولايات المتحدة ، حتى النهاية ، إلى تحقيق سلام منفصل مع الغربيين ضد الاتحاد السوفيتي [سابقاً] . وإخلاصا لتعاليم الفوهرر ، صرح الأميرال بوينتز ، قائد الرايخ الثالث ، والذي وقع رسالة الوداع إلى الجيش الألماني قائلا :

«إن الوسيلة الوحيدة في استعادة أرضنا من أيدي الروس هي أن نتعاون مع القوى الغربية» .

- وما هو دور اللوبي الصهيوني في هذه السياسة ؟

- أصبحت الولايات المتحدة مستعمرة لإسرائيل ، تتحكم فيها وزارة الحرب بشؤون وزارة الخارجية . ومن بين ١١ من أعضاء مجلس الأمن القومي الأمريكي ومستشاري الرئيس ، ينتمي ٧ أعضاء منهم إلى وكالة الاستخبارات الأمريكية . كتب وزير سابق في صحيفة «الفيغارو» في عام ١٩٩٩ ، السيد بيرفيت ، يقر بوجود قوى ضاغطة في الولايات المتحدة تؤدي إلى انفجار الصراع . كان اللوبي الصهيوني يحاول إبعاد أي صدام لأنه يعرف بأن ذلك يعني إبعاده عن تهديد أكبر قوة في العالم

العربي . فاليهود الأمريكيون يلعبون دورا أساسيا في النظام العالمي في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي . كما أن التواطؤ الدائم بين الرئيس الأمريكي والكونغرس يجعل البيت الأبيض يحسب حسابات المؤسسات اليهودية . والبرهان الساطع على ذلك هو رد الفعل الأمريكي من الكويت ، وتواطؤها السلبي عند غزو إسرائيل للقدس وضمها .

إن تعاون قادة إسرائيل مع الولايات المتحدة ما هو إلا استمرار ل «تعاون» القادة الصهاينة مع هتلر . عند وصول هتلر إلى سدة الحكم كان من بين كل مائة يهودي منظم ٥ بالمائة فقط ينتمون إلى المركز الصهيوني ، و ٩٥ بالمائة ينتمون إلى رابطة الألمان من الديانة اليهودية ، الذين ظلوا ألمانا يحترمون ديانتهم . النازيون هم الذين استحوذوا على قراراتهم واختياراتهم في بحثهم عن اليهود الذين يوافقون على الهجرة إلى فلسطين ، ويوافقون أيضا على سياسة التطهير العرقي التي مارستها الفاشية الألمانية وهي «إخلاء ألمانيا من يهودها» . ولم يتوقف هذا التعاون من عام ١٩٣٣ وحتى عام ١٩٤٤ . كانت المليشيا العسكرية لتنظيم «البيتار» الصهيوني حتى عام ١٩٣٨ لها حرية التجول بأعلامها ولباسها العسكري في معسكرات الرايخ . وفي عام ١٩٤١ ، اقترح قادة المنظمة الصهيونية «شتيرن» التي كان من بينها إسحاق شامير ، التعاون مع هتلر ضد الحلفاء .

– هل مورست الجرائم ضد الإنسانية بحق اليهود فقط ؟

– حسب ميثولوجيتهم فإن الجرائم ضد الإنسانية اقترفت بحق اليهود فقط . وفي محاكمتي اتهموني بأنني تجاهلت الجرائم المقترفة ضد الإنسانية لأنني كتبت أن هذه الجرائم تقترف ضد اليهود وغير اليهود . لذلك صدر بحقي قرار حكم سجني تسعة أشهر دون تنفيذ . لأنني لم أفرق بين جنس الضحية : سواء كان الضحية يهوديا أو غير يهودي ، أما هم فلا يرون ضحايا من السود أو الصينيين أو الأرمن . إن خداعهم الأكبر هو العمل على الخلط بين اليهودية ، الديانة التي احترمها ، وبين الصهاينة المنخرطين في السياسة الشوفينية والكولونيالية التي نحاربها . والخدعة الأخرى هيّ تقديمهم لليهود على أنهم «شعب الله المختار» . هذه الحرب حصدت أكثر من ٥٠ مليون ضحية من ضمنهم ١٥ مليون سلافي و ٩ ملايين ألماني وغيرهم . إنهم أنشأوا الأسطورة التي بموجبها يكون اليهود العدد الأكبر من بين ضحايا المعسكرات

وهم وحدهم ضحايا النازية ، بينما يتجاهلون موت الغير من ذوي الأصول والثقافات المتعددة .

وأكثر من ذلك ، فإنهم ينظمون تطهيرا عرقيا للفلسطينيين الأصليين مثلما فعل الأمريكيون مع الهنود الحمر ، السكان الأصليين في أمريكا . وتستجيب أطروحات هرتزل مع طروحات منظر البنتاغون الأيديولوجي صموئيل هانتنغتون ، الذي يحدد في كتابه «صدام الحضارات» ملامح مشروع الإستراتيجية الأمريكية في الهيمنة العالمية ، من خلال وضع «الحضارة الغربية» في التضاد مع «التحالف الإسلامي - الكونفشيوسني» ، ولهذا تهدف الإستراتيجية الأمريكية إلى الحد من تنامي القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية ، والحفاظ على التفوق العسكري فيها من أجل الحفاظ على مصالحها الحيوية . وهذا يدخل ضمن المشروع الإستراتيجي للعولمة . وهكذا أيضا تضع إسرائيل نفسها فوق كل قانون دولي ، وهي ترفض قرارات الأمم المتحدة ذات الطابع الإنساني . وتقوم الولايات المتحدة بحمايتها بحجة «حق الفيتو» الذي تمارسه لمنع إصدار قرارات العقوبات ضدها . وحتى الضمان الديني الظاهر لسياستها يشكل هو الآخر تناقضا أساسيا ويهدد مستقبلها .

وبإلغاء مفاهيم «شعب الله المختار» و«الأرض الموعودة» ، فإن الانهيار سيكون من نصيبها .

- كتابك قائم على أن الأساطير هي التي ساهمت في تشكيل السياسة الإسرائيلية ؟

- هكذا تتوسع الفجوة بفضل اجتهادات المؤرخين الجدد في إسرائيل الذين يتتبعون المسار حتى الجذور ، ويقومون بتفكيك الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، وذلك من خلال انتقالهم من الميثولوجيا إلى الدين ، ويلعبون دور المحرر الذي يعبر عن نفسه في التظاهرات السياسية . والحاخامات الأصوليون ، الذين تعلموا في الولايات المتحدة وبروكلين على الخصوص ، هم أنفسهم درسوا تعاليم «قتلة الحق المقدس» . . . تذكّر ما حصل في الخليل . كتب أستاذ الجامعة العبرية في القدس والمختص بالتاريخ المعاصر ، زيزمان قائلا : «إننا نثقف الشباب في الخليل تماما كما كان النازيون يثقفون الشباب الهتلري ، لكن حركة الانتفاضة فندت الأسطورة اللامعقولة للصهاينة القائلة ب «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» .

وبما أن الولايات المتحدة لا تتوقف عن دعم إسرائيل وتمدها بالمال والسلاح ، يجب إذن ضربها في نقطة ضعفها أي ضرب اقتصادها عن طريقين :

أولاً : إن الولايات المتحدة هي من أكثر الدول مديونية في العالم ، وبلغت ديونها ٣ آلاف مليار دولار بين ديون عامة وخاصة ، أي أكثر من مجموع ديون العالم الثالث .

ثانياً : إن الميزان التجاري في الولايات المتحدة هو الأكثر اضطرابا في العالم ، بحيث أن الاقتصاد الأمريكي لا يستطيع أن يخدم مليار زبون في العالم .

ويوجد ٣٣ مليون مواطن يعيشون في أدنى مستويات الفقر .

إن الذين يشترون السلاح من أمريكا يعرفون حق المعرفة أن هذه الأسلحة لا توجه ضد العدو الرئيسي . إنهم خونة في نظر شعوبهم . لذلك يجب على الدول التي وقعت ضحية أن تنسحب من جميع المنظمات الدولية التي تخدم الولايات المتحدة مثل : صندوق النقد الدولي ، البنك العالمي ، المنظمة العالمية للتجارة ، حلف شمال الأطلسي . وكذلك إهمال أي حصار تفرضه واشنطن ضد من يقاومها .

- هل يستطيع العالم الثالث أن يقاطع المنتوجات الأميركية كما تقول ؟

- يحتوي العالم الثالث على أكثر من ٧٦ بالمائة من المصادر الطبيعية للعالم ، ولا يحتاج إلى الاستيراد من الولايات المتحدة . هذه المقاطعة المنظمة للولايات المتحدة والمتواطئين معها من الإسرائيليين هي السلاح الأكثر قوة وفاعلية . ولا بد من إرساء نظام «مقايضة» ووضع الدولار الذي يسيطر على العالم منذ خمسين عاما خارج اللعبة . الولايات المتحدة تعاني من مشكلات عويصة لا تعاني منها البلدان الأخرى . في عام ١٩٩٠ تم تسجيل ٨ ملايين حالة سرقة ، و ٣ ملايين حالة سطو ، و١,٦ مليون حالة سرقة سيارات ، و ١ مليون حالة اعتداء بالسلاح ، وأكثر من ٦٠٠ ألف حالة احتيال ، و ١٠٢ ألف حالة اغتصاب و ٢٣ ألف حالة اغتيال وقتل .

- هل ستصبح الولايات المتحدة واحدة من دول العالم الثالث ؟

- في كتاب الاقتصادي الأميركي ادوار لوتارك «الحلم الأمريكي في خطر» يقول إن الولايات المتحدة ستنهار في عام ٢٠٢٠ . ولكن هذا الانهيار لا يتحقق إلا إذا وحدنا إمكانياتنا من خلال :

١- وحدة جميع الضحايا في العالم عندما نحدد العدو الرئيسي : البربرية المتناهية وحليفتها الصهيونية .

٢ - العمل من أجل إلغاء هيمنة الدولار من خلال ممارسة نظام المقايضة والمبادلات بين بلد وآخر .

٣ - تأسيس قانون «باندونغ جديد» في ظروف تاريخية جديدة ، حيث يسود «عالم القطب الواحد» . . والانسحاب كما ذكرت من المنظمات العالمية التي تخدم الولايات المتحدة ، وكسر سائر أنواع «الحصارات» المفروضة . إن هذا الطريق صعب ، ولكنه الطريق الذي يؤدي إلى الانتصار ، من خلال اتحاد الإنسانية جمعاء ضد «العالم المدمر» الناتج عن نهب مرحلة ما بعد الكولونيالية .

أساليب الهيمنة الأمريكية

- من أين يتولد العنف في نظرك ؟

- من خلال التناقضات الموجودة بين الذين يعيشون حالة الثراء وبين الهامشيين والمعزولين عن المجتمع ، هكذا يتولد عنف عام لا حدود له يصاحب الانفجارات العشوائية للضواحي في مدننا ، وهي حالة تجسيد مسبقة . في نيويورك ، بعد إحصائيات دوائر الشرطة ، ثمة معدل اغتيال في كل ربع ساعة ، وعملية اغتصاب في كل ثلاث ساعات ، وحالة اعتداء في كل ثلاثين ثانية . ونيويورك ليست سوى المدينة الثانية من المدن الأمريكية في نسبة الجرائم . في عام ١٩٨٩ ، تم تعداد ٢١ ألف قتيل في عموم الولايات المتحدة . وهناك أكثر من مليون سجين أمريكي ، وأكثر من ثلاثة ملايين تحت المراقبة الجزائية والقانونية . ويصف التقرير الأخير لـ[صندوق الدفاع عن الأطفال] - وهي المنظمة الرئيسية لحماية الأطفال والمراهقين - تصاعد نسبة الاغتيالات ، دون توقف ، بالأسلحة النارية والحوادث والجرائم المختلفة . ومن عام ١٩٧٩ إلى ١٩٩١ ، قتل بالرصاص ٥٠ ألف أمريكي تقل أعمارهم عن ١٩ عاما . وفي الفترة ذاتها ، تزايد عدد المتهمين بعمليات الاغتيال والجنح الأخرى في صفوف المراهقين . وفي أغلب الأحيان إن من يقوم بجرائم القتل أو إصابة الآخرين بالجروح هم الشباب ، وتأتي بالدرجة الثانية بعد الحوادث [التي لا تستخدم فيها الأسلحة النارية] أمراض السرطان ، وتُعدّ جرائم القتل هي السبب الثالث من أسباب الموت عند المراهقين .

- هل ثمة علاقة بين العنف الذي يمارس في السياسة الخارجية وبين الحياة الداخلية ؟

- كتب جورج كينان ، الذي كان على رأس دائرة الدولة للتخطيط ، تم إبعاده لأن السلطة اعتبرته مسالما مثل [حمامة] ، في عام ١٩٤٨ ما يلي : [إننا نمتلك ٥٠ بالمائة من ثروات العالم ، ولكن من يمتلكها هو ٦٫٣ بالمائة فقط . وفي هذه الحالة ، لابد أن نكون مادة للحسد والضغينة والحقد . ومهمتنا الحقيقية في الفترة اللاحقة ، هي تطوير نظام علاقات يسمح لنا أن نحافظ على هذا الوضع اللامتكافئ دون أن نعرض أمننا

إلى الخطر . ومن أجل تحقيق ذلك ، يجب علينا أن نتخلص من كل العواطف ، ونتوقف عن الحلم ، ونبقى يقظين . ويجب أن نتوقف عن الحديث عن الأهداف الغامضة وغير القابلة للتحقيق ، مثل حقوق الإنسان ، ورفع مستوى الحياة ، والديمقراطية . وليس بعيدا اليوم الذي نتمكن فيه من التحرك واستخدام القوة مباشرة . وكلما شعرنا بعدم انزعاجنا من الشعارات المثالية كنا نسير على ما يرام] .

– كيف تجسّد الولايات المتحدة هيمنتها العالمية ؟

– وثيقتان من البنتاغون ، إحداهما كانت تحت إدارة د . ولفوويتز ، والأخرى ، تحت إشراف الأميرال جيرمينيا ، نائب رئيس أركان الجيش ، كانتا واضحتين : وأقتطف لك فقرات منها : [إن النظام الدولي ، مضمون بشكل نهائي من قبل الولايات المتحدة ، وهذا يجب أن يوضع في حالة يمكنه من العمل باستقلالية عندما لا يمكن أن نطبق عملا جماعيا أو في حالة أزمة تتطلب عملا مباشرا] . [إننا يجب أن نتصرف من خلال منع ظهور نظام أمن أوروبي يكون في وسعه أن يزعزع حلف شمال الأطلسي] . [يجب دمج ألمانيا واليابان في نظام أمني جماعي تديره الولايات المتحدة] .

[إن إقناع المنافسين المحتملين بعدم حاجتهم إلى أن يلعبوا دورا أكبر فأكبر] ، ومن أجل التدخل يجب أن تكون حالة القوة العظمى [مستمرة من خلال سلوك مبني وقوة عسكرية كافية لكي نردع أية أمة أخرى أو أية مجموعة من الأمم تحاول أن تتحدى الولايات المتحدة] ويجب أن يراعى [بأنه يجب أن نحسب حساب مصالح الدول المتقدمة صناعيا من خلال عدم تشجيعهم على تحدي القائدة [الأمريكية] أو محاولة [زعزعة النظام الاقتصادي والسياسي الموجود] – كما يؤكد ذلك بول ماري درلاغورس ، مدير مجلة [الدفاع الوطني] ، في لوموند دبلوماتيك ، ١٩٩٢ .

كل ذلك ، وكل عمليات الاستيلاء والإلحاق الأمريكية ، حسب هذا [البيان المصيري] ، تتم بمباركة الرب .

كرر الرئيس نيكسون مقولة [الشعب المختار] ، مثلما فعل أسلافه السابقون : [إن الرب مع أمريكا ، الرب يريد أن تقود أمريكا العالم] . وبعد إحالته على التقاعد ، كتب في مجلة [نيويورك تايمز] في ١٩٩١ ، بشأن الحملة على العراق [إننا لا نذهب إلى هناك لكي ندافع عن الديمقراطية لأن الكويت ليس بلدا ديمقراطيا ، ولا يوجد بلد

ديمقراطي في المنطقة بأسرها . كما أننا لا نذهب إلى هناك من أجل الإطاحة بدكتاتور . . . ونحن لا نذهب إلى هناك من أجل الدفاع عن المساواة الدولية . نحن نذهب إلى هناك ، بل ويحتم علينا الذهاب ، لأننا لا نسمح لأحد أن يمس مصالحنا الحيوية بأي سوء] .

– ما هي هذه المصالح الحيوية في نظرك ؟

– إن [المصالح الحيوية] للولايات المتحدة الأمريكية تختزل في إرادة فرض – وحدانية السوق – على العالم على الدوام . [نهاية التاريخ لفوكوياما] .

وتعمل على فرض هذه الهيمنة ، إذا لم ينفع بطريقة الفساد ، فيتم بطريقة التهديد بفرض العقوبات الاقتصادية والمالية على العالم .

في كتابه [الرأسمالية في كافة أشكالها] ، يعرف المؤلف ألن كوتا ، على سبيل المثال ، منطق النظام الذي يرتكز على [أن تصاعد الفساد لا يمكن فصله عن اندفاعات النشاطات المالية والإعلامية . عندما تسمح المعلومات ، فإن العمليات المالية بكافة أشكالها ، وعلى الخصوص دمج الشركات ، والامتلاك ، وعمليات السيطرة الاقتصادية الضخمة على السوق ، وبواسطة هذه العملية تبنى خلال دقائق ، ثروة خرافية ، كان يحتاج بناؤها إلى حياة كاملة ، وإغراء البيع والشراء لا يمكن مقاومته] .

ويضيف الكاتب : [إن سوق الاقتصاد لا يمكن أن يكون مفضلا إلا بواسطة تطور هذه السوق الأصلية . . . الفساد يلعب دورا مماثلا في هذه الخطة] .

كتب هورست إيبرهارد ريشتر ، في كتابه [الفن الكبير للفساد] : [الذي يريد أن يحكم يجب أن يفسد . والتداخل بين فن الإفساد وبين طاعة الإفساد يتولد من أجل أن يحافظ على النظام] .

ويضيف المؤلف الألماني : [لا يوجد مكان للوعي في السياسة ، لأن هذا يعني الجمود عن الحركة] .

ومن بعد ذلك ، يتحدث ريتشر عن غسل الدماغ الذي يتم من خلال جهاز التلفزيون : [ولأن جهاز التلفزيون يستخدم بطريقة مناسبة ومخصصة ، يتحول إلى أداة مذهلة من أدوات الفساد العقلي ، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى أن تدرس للنخبة السياسية] .

أسطورة «عصر النهضة»:
هل تخلق أوروبا «القيم» لوحدها؟

- كيف تشكّل القرن العشرون بآلياته ؟

- بإمكاننا الآن أن نفهم ، من نظرة ،واحدة المسار الذي كان يحرك القرن العشرين : الاحتضار الدامي لخمسة قرون من الرأسمالية والكولونيالية ، والتي بدأت بما نسميه «عصر النهضة» بمعنى الولادة المتزامنة للرأسمالية والكولونيالية المقنعة ب «الترميم» الفلسفي للثنائية عن اليونانيين وخصوصا أفلاطون ، من خلال «الإصلاح» الديني ، لكل من لوثر وكالفان ، الذي ينتزع نصف أوروبا من كنيسة الإمبراطورية الرومانية . وعلى الرغم من تصدع أوروبا ، كانت تعتقد بأنها مركز العالم ، والخالقة الوحيدة ل «القيم» لأنها تعزو لنفسها جميع الاكتشافات العلمية والتقنية لبقية العالم : البوصلة والمقود اللذان جعلا الملاحة ممكنة في البحر العميق ، بالإضافة إلى «الاكتشافات» الكبرى للبارود الذي أتاح القيام ب «الفتوحات» ، والمطبعة التي «أضفت الديمقراطية» على الثقافة وبعث اليونان وروما . كل تلك الاكتشافات جاءت من الصين والهند عن «طريق الحرير» وانتشار الإسلام . وعن «طريق الهند» أي من أمريكا جاء الذهب والفضة ، وجعلا من الممكن اتساع اقتصاد السوق وتضخّمه . فقد ازدادت كمية الذهب والفضة المتداولة في أوروبا إلى نسبة ٨٠٠ بالمائة في القرن السادس عشر ، بفضل جهود ملايين الهنود الذي جاءوا جراء العمل القسري في مناجم المعادن النفيسة .

- وما هي العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا في هذا المجال ؟

- الأهم في ذلك أن تدفق المصادر الغذائية في أوروبا ، جاء من أمريكا ، ووضع نهاية للمجاعات في القرون الوسطى ، وأعطى دفعة جديدة للولادات بدون توقف : أطلق فيرناند بروديل ، في عام ١٩٨٢ على ذلك «ثقافة المعجزات» بوصول البطاطا الهندية والذرة المكسيكية إلى أوروبا : وفي غضون قرنين ، كما لاحظ بروديل ، فإن البطاطة عوضت عن ٤٠ بالمائة من استهلاك المزروعات في ايرلندا ، حيث كانت أول من يقوم بإنتاج ذلك ، وتضاعف عدد سكانها إلى ثلاثة أضعاف .

بينما بدأ الأوروبيون استيراد القطن الأميركي على شكل خيوط طويلة ، وانطلقت صناعة النسيج الأوروبية بشكل لا مثيل له عند النساجين الهنود والعبيد

السود المنفيين من أجل القيام بالإنتاج .

– هل يؤرخ ذلك لعصر النهضة ؟

– إن «أسطورة» عصر النهضة التوحيدية ، أي بمعنى ولادة ديانة السوق التوحيدية وعبدة الأموال ، وتصدع العالم بالنهب الكولونيالي ، والاستقطاب المتزايد ، حتى في أوروبا للذين يمتلكون والذين لا يمتلكون ، هو قناع الانحطاط الإنساني . والانحطاط هو تدمير الإرادة الجماعية في خدمة النزعة الفردية . وهذا ما يميز الانحطاط الروماني ، إنه التناقضات المتزايدة بين أغنياء القصور وتداعي المعابد . وقد كشف عن أصل هذا الانحطاط العباقرة الكبار للمرحلة . لا يوجد أفضل من شكسبير ، استطاع فهم ووصف آلية تدمير عالمنا في نهاية القرن العشرين . ولا يوجد أفضل من سيرفانتس من استطاع أن يرسم الطريق الوحيد لتعطيل الموت . يكشف الملك لير عن تفكك العالم «حيث المجانين يقودون العميان» . الملك لير ليس سوى «قطعة من الخراب» ، إنه يطرح السؤال الجوهري :

« من سيقدر أن يقول لي من أنا» ؟

يجيب دون كيشوت على هذا السؤال في الفترة ذاتها : «أعرف من أنا» . إنه هو أيضا في قلب المأساة لكنه مسكون بالله ضمن الهدف والمعنى . إنه يعرف بأن عالم القطيع ليس حقيقيا . إن عالم شكسبير وسيرفانتس هو عالمنا ، فقد عاش كلاهما الولادة ونحن نعيش الاحتضار . إن ما نطلق عليه «عصر النهضة» هو الرفض لكل قيمة مطلقة واستنتاجاتها ، أي فردية شريعة الغاب . «عصر النهضة» هو ولادة الحيوانات المتوحشة . وما اتفق أن نطلق عليه «الحقيقة» ما هو إلا وهم وكذب . بإمكاننا أن نقول : اغتراب الإنسان واستلابه .

شكسبير وسيرفانتس أول من صرخا : الملك عار . وحقيقتك زيف حقيقي : ليس هناك من معنى لأنك لا تمتلك هدفا . أي أن الأموال هي التي تخلق جميع قيم التجارة : «أنت تساوي ما تملك» كما جاء في دون كيشوت . وهكذا يدين سيرفانتس الانقلاب الأخلاقي الذي انطلق من انتصار الرأسمالية إلى عصر النهضة بالوضوح والعنف ذاتيهما اللذين عبر عنهما شكسبير . كارل ماركس يستشهد بنص شكسبير ويعتبره أول من وعى «اغتراب الإنسان» بما أطلق عليه «فيتيشية البضاعة» في كتابه «الرأسمال» .

من خلال النقد الذي قام به سيرفانتس لجوهر الرأسمالية الناشئة ، وجد مفتاح فكرة «الساحر المدهش» . إن رسالة دون كيشوت هي إزالة أوهام العالم المغترب . وما كان يعتقد بأنه ملحمة صوفية كان يظهر له الحقيقة التعيسة للكولونيالية . لقد عبر سيرفانتس عن خيبته التراجيدية و «انقلاب أحلامه» ، في عمله «دون كيشوت» . إن النقد الذي وجهه سيرفانتس لا يعوض تماما مثل نقد شكسبير . الإنسان أصبح شيئا من بين الأشياء في نظرهما .

- ثمة البعد الإلهي في انسحاق الإنسان ، ما هو طبيعته؟

- يكشف دون كيشوت عن المصدر الجوهري ، وهو أن السلطة المطلقة للمال أصبحت سيدا للبشر ، والمجتمع حل محل الله . إن تدفق الذهب من أميركا غمر إسبانيا . المال يصبح محركا لجميع الأفعال . وهذا هو العالم الذي أصبح حيوانا في شريعة غاب الرأسمال ، ومن هذا النظام المؤسس على المنفعة الشخصية ، ولد «عصر النهضة» . ودون كيشوت لعن هذه الروح الجديدة . هكذا كان عصر النهضة في عالمنا .

شكسبير وسيرفانتس عاشا بداية اللعبة عندما تحددت قواعدها . واليوم مع صموئيل بيكت واللامعقول «في انتظار غودو» نشهد على «نهاية اللعبة» .

التلفزيون ضد المجتمع

– لماذا تعدّ التلفزيون سرطانا قاتلا للديمقراطية الغربية ؟

– إنني أتكلم عن التلفزيون في جانبه السياسي ، لأنه يمارس في هذا الجانب سلطته وتأثيره البديهيين ، ولا يضاهيه في هذا التأثير على العقليات والسلوك حتى العائلة والكنيسة والمدرسة . وقد سبق القول بخصوص الديمقراطية اليونانية : الكل يتعلق بالشعب ، والشعب بالكلمة . فالرأي العام الذي يفترض اليوم أن تعبر عنه عملية الانتخابات – وقد اتضح أن الناس بدأوا يمتنعون عن التصويت فيها لأن تأثيرها على الحياة بعيد عن الحقيقة – . وهذا الرأي العام هو في الحقيقة يعتمد كثيراً على تأثير التلفزيون ، سواء كان هذا التلفزيون أداة بيد الدولة والحكومة أو عبارة عن قنوات خاصة تتحكم بها الشركات الكبرى أو أكثر من ذلك ، تكون مفروضة عالميا عن طريق الاحتكارات العالمية التي تهدف إلى تشويه المعلومات ، مثل قناة ال سي . إن . إن . الأمريكية .

– ما هي السمة المشتركة بين هذه القنوات ؟

– هو الخضوع إلى قوانين وحدانية السوق التي تنظم قوانينها وتتحكم بها الولايات المتحدة الأمريكية . إن الخبر ، سواء كان على شكل كلام أو صورة ، هو في جوهره بمثابة بضاعة تخضع مثل غيرها إلى متطلبات المنافسة وقوانينها ، حيث يمارس المال فيها رقابة أخطر من أي نظام دكتاتوري . جهاز التلفزيون يملي البرامج ويتفق مع أذواق المتلقين ، تحت ذريعة أن المستهلك يحب هذه البرامج المثيرة والحساسة والعنيفة والشبقية ، حيث إن هذا السباق نحو الحدث ظل يمارس إقصاء التحليل والتفكير النقدي والثقافي ؛ أي أن إثارة الأحاسيس أصبحت تحتل الأولوية .

– ما هو معنى الحدث الصحافي ؟

– ليس هو بالضرورة الذي يساعدك على وعي مسارات المجتمع الصعبة ، ولا الذي يساعدك على التمركز فيه ، والذي يدفعك لتحديد مسؤولياتك في المجتمع . لكن هذا الحدث هو الذي يضخم من نسبة المبيعات بخصوص الصحافة المكتوبة أو

يكثر من جمهور التلفزيون ، وبالتالي فإن هذا يؤدي إلى ارتفاع نسبة حجم الإعلانات ومواردها المالية . إذا أنت تحب زوجتك فهذا لا يعني أحدا ولا يهمه أمرك ، أما إذا أقدمت على قتلتها فيصبح ذلك حدث اليوم الذي يتسلل إلى صفحات الجرائد ، وسيستحق آنذاك ٧٢ ثانية في الجريدة المتلفزة ، وإذا قطعت أوصالها إلى أجزاء فذلك سيستحق عموداً أو ثلاث دقائق في البث التلفزيوني ، أما إذا أنت قمت بأكلها كما فعل ياباني في باريس ، فهذا هو قمة الحدث . إن الاستغلال التجاري لهذا الفعل السادي ليس له حدود : منذ العرض المباشر لموت طفلة في المياه الوحلة ، إلى عرض المرأة التي أعدمت بعد ١٤ عاما من حكمها بالإعدام ، إضافة إلى الصور السادية لأشخاص يحتفلون في حانة بعد سكر وعربدة .

– هل أفلام العنف الأميركية هي جزء من هيمنة الصورة ؟

– إن العنف يثمر أموالا أيضا ، وأفلام العنف الأمريكية ورواجها في صالات العرض العالمية هي خير دليل على ذلك . وعلى منوال أكلة وجبات المكادونالدز السريعة فهي تغري بالأخص الأطفال ، الذين يجدون فيها ، إضافة إلى العنف المتصاعد وانحراف الشباب ، نماذج لتقنيات القتل التي تلهم الكثير منهم . وبالنسبة للكبار فإن الصورة الكاذبة والمقابلات المزيفة لها نتائجها الوخيمة الأكثر ضررا . التهويل يؤثر بشكل كبير في تكوين رأي عام حسب متطلبات السياسة الراهنة . وعندما يعرض التلفزيون الأمريكي «شاهد عيان» يحكي كيف أن العسكريين العراقيين أخرجوا مواليد جدداً من الحاضنات الطبية ورموهم على الأرض ، فإن الرئيس بوش يدلي بهذه الشهادة لكي يقنع الرأي العام بضرورة تقتيل هذا الشعب «الوحشي والبربري» ، وبعد مرور سنوات ، يبرر بالطريقة نفسها الحصار الذي كان يقتل طفلا في معدل كل ست دقائق . وبعد أن حدث ما حدث ، اتضح أن «شاهد العيان» لم يكن سوى زوجة سفيرة الكويت التي لم تطأ قدماها أرض بلادها عندما كانت فيه القوات العراقية . وهذا أحد روائع تأثير الصورة ليس فقط في مجال البضائع لكن في مجال الحرب .

إن ترويض العنف يبدأ مبكرا ، وتخمن الإحصائيات الأمريكية أن الطفل من عمر ال ٦ سنوات الى ١٥ سنة ، ينفق حوالي ٤٠ ساعة في الأسبوع أمام جهاز التلفزيون أو باللهو بألعاب الفيديو التلفزيونية ، حيث يمكن أن يحقق إنجازا عظيما في

مجال الرياضة بدون بذل أي جهد سوى مداعبة أزرار جهاز التلفزيون . ففي كل المستويات ، فجهاز التلفزيون ينمي الفعل السلبي عند المتلقي ويوجه الجمهور نحو تفكير موحد سلبي تحت ذريعة «الجمهور عاوز كده» ، هذا الجمهور الذي لا اختيار له ، أمام منتجين لا ضمير لهم .

إن الثقافة المضادة هي صناعة هوليودية ، وتوزع في العالم من خلال السينما والتلفزيون وكاسيتات الفيديو .

– هل تروج الولايات المتحدة لأساطير تؤمن بها ؟

– إن التردد على صالات السينما والتلفزيون أدى إلى تضخيم صور الحياة المنتشرة في أنحاء العالم ، الشيء الذي أدى بدوره إلى جعل العنف من الأمور العادية والمألوفة . أصبح الأبطال يحيون أساطير من طرزان إلى جيمس بوند ، الأبطال الذين لا يقهرون ، إلى أفلام رعاة البقر العنصرية . وأصبحت هذه الأفلام محط عبادة لشخصيات زائفة عند الجمهور . وهذه هي نتيجة دخول التلفزيون إلى منطق السوق التجارية . وقد أدلى هيرزينت موضحا : بأن البرنامج أو الفيلم سيكون جيدا حين يؤدي دوره الإشهاري الترويجي . وهكذا تتأسس دكتاتورية الجمهور بحجمه ، والذي يؤثر على ثمن الإشهار وعلى ثمن أموال الإنتاج . وبرامج التلفزيون من شأنها أن تروج الديماغوجية وتؤثر في الرأي العام الذي تتحايل عليه أساليب الإشهار والدعاية .

وذلك من خلال قتل روح النقد والمسؤولية عند المتلقي ، التي تأخذ أشكالا متعددة مثل الألعاب التلفزيونية وألعاب الحظ واليانصيب ، التي توهم الجمهور بالحصول على الأموال بطريقة سهلة ، والأخبار التي تعرض كوارث العالم . والذريعة التي تقول بأن الجمهور لا يريد إلا هذا الشيء فإنه قائم على الزيف ، لأن الجمهور ليس له اختيار إلا بين القبيح والأقبح . فالجمهور ليس مخطئا ، لكن الخطأ نابع من الذين يزيلون عنه الحضارة ، فهذا نوع من تلوث الأدمغة ، أخطر من أي مرض يتهدد صحة البيئة الطبيعية أو الروحية .

– ما هي المسؤولية الثقافية والتربوية المترتبة على ذلك ؟

– يجب على الليبرالية ألا تقتل الروح كما الجسد عند الصحافيين الذين ليس لديهم وعي بمسؤولياتهم الثقافية والتربوية . ومن التناقضات أن نطلب من الأطباء بعد

تخرجهم إدلاء قَسَم شرف المهنة لمعالجة الجسد ، وألا نطلب من الصحافيين الشيء نفسه ، وهم الذين يلتقون كل يوم بآلاف المستمعين والقراء حول قضايا العالم وقضاياهم الشخصية . فالصحافيون ، سواء أتوا من مدارس أو من مهن أخرى ، تنتظرهم مهام أكبر مما يتصورون ، ويفترض فيهم الثقافة والوعي والمسؤولية . لماذا لا يطبقون قَسَم شرف المهنة على الصحافيين كما يطبقونها على غرار الأطباء ، بعد تلقينهم على الأقل أولويات الثقافة والهدف الإنساني لمهنتهم . وهذا ليس كافيا بطبيعة الحال ، ولكن ذلك سيلقي الضوء على مشكلة كبيرة . وبالتأكيد فإن المدرسة وحدها لا تكفي في هذه العملية ، وينبغي أن ينخرط في هذه المهمة جميع أفراد المجتمع المدني في السيطرة على البرامج وإدارة شؤون التلفزيون ، مثل شركات تجمع بين المتلقي أو المستمع والأعضاء الأساسيين مثل الجمعيات والروابط المهنية . إذ يجب إدماج الشعب بكامله وليس الخضوع إلى دكتاتورية أو رقابة حزب ما أو شركة ما تمدها بالمال . وفي هذا المجال وفي غيرها من المجالات ، لا يقتصر العمل على الإصلاح بل على التغيير الجذري ؛ لأن أقبح طوباوية في هذا المجال ومجالات الاقتصاد والسياسة والتربية ، هي حالة السكون والجمود .

من أين يأتي خطر الموت في القرن الـ٢١؟

- ما هو جوهر الأزمة التي تجتاح الغرب حاليا ؟

- إن المشكلة الأساسية لنهاية القرن هي وحدة العالم ، هذا العالم المتداخل ، الذي يعاني الانكسارات والتناقضات المميتة . عالم متداخل ، لأنه من الناحية العسكرية ، يمكن انطلاقا من أية قاعدة أن تصيب أي هدف في العالم ، و أن أي انهيار مالي أو اقتصادي تتعرض له لندن أو طوكيو أو نيويورك ، من شأنه أن يؤدي إلى أزمة وعطالة عمل في جميع بقاع العالم ، وكذلك فإنه من خلال أية شاشة تلفزيونية أو فضائية يمكن تقديم وعرض جميع أشكال الثقافة أو اللاثقافة في عموم القارات ، لذلك لا يمكن حل أية مشكلة بطريقة معزولة أو مستقلة ، لا على الصعيد الوطني ولا على الصعيد العالمي .

- هل مَرَد الأزمة يعود لأسباب اقتصادية بحتة ؟

- يعاني هذا العالم من انكسارات كبيرة ، من وجهة النظر الاقتصادية «بموجب تقرير برنامج تطور الأمم المتحدة» فإن ٨٠ بالمائة من مصادر الكرة الأرضية تهيمن عليها وتتصرف بها نسبة ٢٠ بالمائة من السكان فقط . وهذه التنمية في العالم الغربي تكلف العالم نتائج في سوء التغذية أو المجاعة .

هناك ثلاث مشاكل لا يمكن إيجاد حلول مناسبة لها في الساعة الراهنة : هي المجاعة ، والعطالة عن العمل ، والهجرة . وهذه المشاكل الثلاث ما هي إلا مشكلة واحدة في جوهرها . في الوقت الذي يكون فيه ٣ مليارات إنسان من بين ٥ مليارات يعانون من مشاكل غير قابلة للحل ، فهل يمكن الحديث عن سوق عالمية أو الحديث عن سوق بين الغربيين تستجيب لاحتياجاتهم ولثقافتهم ويقومون بتصدير الفائض إلى العالم الثالث ؟

- هل يمكن الاعتراف بحتمية هذا الخلل في التوازن والقبول بالحقيقة التي تشيع الإقصاءات والعنف والقومانية والأصولية؟

- ثمة مرحلة تاريخية في طريقها إلى الموت : وهي المرحلة التي هيمن بها

الغرب منذ خمسة قرون «البلد الذي تغيب فيه الشمس ، حسب علماء اللغة» .
وهناك مرحلة أخرى في طريقها إلى الولادة ، في الجانب الذي تشرق فيه الشمس ، وهو الشرق . بدأت هذه الحقبة في عصر النهضة ، ووصلت من خلال منطق تطورها ، إلى نهايتها ، عن طريق هيمنة قطب واحد ، مثلما حصل بين جميع أنواع التدمير : من الإمبراطورية العثمانية إلى إمبراطورية نابليون ، ومن هتلر وشارل كينت إلى الإمبراطورية البريطانية ، وكلهم يعتقدون بأن ترسانتهم من الأسلحة لا يمكن أن تهزم وتجعل من هيمنتهم خالدة .

واليوم ، وحدهم الجيوسياسيون العاملون في المخابرات الخاصة الأمريكية وأسيادهم ، باستطاعتهم أن يخفوا عنا الحقيقة العميقة لنهاية الألفية الحالية : إننا شهود عيان على هذا الانحطاط وهذا الألم الناتجين عن أفعال الإمبراطورية الأخيرة .

– كيف تتكون سمات هذا الانحطاط وعناصره بصورة موضوعية ؟

– إن الحدث الأكثر دلالة في أواخر القرن العشرين ليس هو انفجار الاتحاد السوفيتي ، النموذج الكاريكاتوري للاشتراكية والماركسية ، بل هو إفلاس الرأسمالية بعد هيمنة دامت نصف ألفية على العالم ، وهي ما تزال تقوده في سباقها المحموم نحو الموت ، ونحو الانتحار الكوني .

– ما هي الأسباب في نظرك ؟

– لأن رأس المال الذي تكدس منذ خمسة قرون من الهيمنة الاستعمارية البريطانية ، المحددة في الاستثمار القائم في الدول الأكثر تصنيعا في أوروبا القديمة ، حتى من خلال خلق الحاجات الأكثر اصطناعية ، والأكثر موتا عن طريق الإعلان والترويج والماركتنك ، هذا الرأسمال ، الخالق في أصله ، استثمارات عريضة في شركات الإنتاج أو في الخدمات الحقيقية ، أصبح رأسمالا مضاربا ، بالمعنى الطفيلي الخالص . ولم تعد الأموال في خدمة إنتاج البضائع ولكن في خدمة صنع الأموال .
موريس إلياس ، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد ، يستند على معطيات «البنك العالمي للتنمية» الذي يبين بأن تدفق رؤوس الأموال يستجيب إلى مضاربات البورصة في العملات الصعبة ، المواد الأولية أو مشتقات المواد – ضمان مخاطر المضاربات – تفوق اليوم بمقدار أربعين مرة الاستثمارات وعمليات نقل الملكيات ، في الاقتصاد

الحقيقي ، أي بمعنى إنتاج البضائع والخدمات . وبلغة مبسطة : إنهم يربحون ، شريطة أن يتمتعوا بالضمانات المصرفية أو الوسائل المالية ، أربعين مرة أكثر من مضارباتهم في مجال العمل . وأفضل مقياس موضوعي لهذا الانحطاط يتجسد في : أن العمل الخلاق لم يعد يخدم تنمية الإنسان وتطوره ،كما لا يخدم جميع البشر ، ولكنه يخدم أقلية متعطشة لا هدف لها سوى تنمية «الانتفاخ المالي» ، بحيث لم تعد تطرح مسألة معنى العمل والإبداع والحياة . حتى إن معاني الكلمات ذاتها أخذت تتعرض للتحريف . ويستمر أولئك بتسمية «التطور» المسار الأعمى ، الذي يقود نحو دمار الطبيعة والإنسان في آن واحد .

– ولكن الغرب ينادي بالحرية والديمقراطية ؟

– يطلقون على ذلك «الديمقراطية» القطيعة الأكثر إثارة للشك ، التي عرفها التاريخ بينهم وبين من لا يمتلكها . ويطلقون على «الحرية» نظاما تحت ذريعة «التبادل الحر» و «حرية السوق» ، الذي يسمح للأقوى أن يفرض أكثر الديكتاتوريين المتوحشين ، ما يسمح لهم بالتهام الأضعف . ويطلقون تسمية «العولمة» ليس على الحركة ، من خلال مساهمة جميع الثقافات ، التي تقود إلى الوحدة المتناسقة للعالم ، ولكن إلى الضد من ذلك ، أي إلى تقسيم التنمية بين الشمال والجنوب ، الناتجة عن وحدة إمبريالية ومتوحشة من شأنها أن تحطم تنوع الحضارات وما تحمله من رموز ، من أجل فرض الهيمنة على الكون . ويطلقون تسمية «التطور» على تنمية اقتصادية دون هدف ، وينتجون أي شيء ، ذي فائدة أو غير ذي فائدة ، مثير للغثيان ، مثل الأسلحة أو المخدرات ، وليس تطوير الإمكانيات البشرية ، الخلاقة ، للإنسان وللبشرية جمعاء . وفي هذا اللامعنى ، يتم إشاعة البطالة لدرجة لا يمكن معها الإنتاج ؛ لأن ثلثي العالم لا يتمكنون من الاستهلاك حتى من أجل ديمومتهم ، فإن هجرة الأكثر ضعفا هو الممر إلى عالم المجاعة وعالم العطالة وعالم الإقصاء عن المجتمع .

– هل يعني ذلك أن التكنولوجيا التي أبدعها الإنسان أصبحت عدوة له ؟

– نعم إن وحدانية السوق ، وما تسبب في انتشار تنمية ثروات المضاربة ، المحصورة بيد المافيا ، هي الأقلية التي تخلق البؤس المتعدد الأوجه . ما يزال هناك وقت للحياة ، ولكن بأي ثمن ؟ فإن أسياد خرابنا المؤقت لا يتحدثون لنا إلا عن ضرورة أن

تتكيف ، أي أن نخنع ، لمسارات عالم بدون هدف ، وبشر دون مشاريع ، وبدون أهداف إنسانية ، حيث أن نهضة ما أو حتى أي يقظة إنسانية بسيطة لا تطالب بالتكيف مع مصير الموت ، ولكن بقطيعة جذرية معه .

ـ ووحدة أوروبا . . هل بإمكانها أن تحد من هذه الهيمنة ؟

ـ يجب أن نقاطع المنطق الاقتصادي الواقعي لاتفاقية ما يستريخت واليورو ، واقتصاد السوق ، باعتباره مصيراً ، أي بمعنى منطق المضاربة ومنطق الإنتاج ، والإبداع الإنساني على صعيد العالم ، وليس على صعيد أوروبا التي كانت بالأمس استعمارية ، ولكنها ما تزال تستغل ديون العالم الثالث من أجل صالح تطورها غير الإنساني .

لماذا تراجع الإسلام في القرن الثاني عشر؟

– ما هي في نظرك أهم الأسباب التي أدت إلى ركود الإسلام ؟

– مما لا شك فيه أن هناك أسبابا خارجية أدت إلى ركود الإسلام وتراجعه . فقد تم سحق أكبر مركزين من مراكز إشعاع الثقافة الإسلامية وهما بغداد وقرطبة ، حيث استولى حفيد جنكيز خان على بغداد في عام ١٢٥٨ ، كما استولى فيرناند كاستيل الثالث على قرطبة في عام ١٢٣٦ . إلا أن الأسباب التي ساهمت في انطفاء روح الإبداع العلمي تولدت من الداخل ، منها : الشك اللاهوتي إزاء تجديد «الاجتهاد» لصالح «التقليد» ، والانطواء على الذات ، والعزلة و«الاكتفاء» .

– هل ارتبطت حركة الفكر العلمي وتراجعها بحركة الفكر الديني؟

– يمكن القول إن ازدهار العلوم كافة ارتبط بالروح الشمولية لرسالة القرآن في العالم الإسلامي . قبل كل شيء تراجع الإسلام بسبب فساد الأمراء الطامعين بالسلطة والثروة . . . أولئك الذين جعلوا من الدين أداة هيمنة . على سبيل المثال ، فإن أحد الخلفاء في إسبانيا سن قانونا على القادة والزعماء الدينيين يلزمهم بالاعتماد على تفسير الإمام مالك فقط . كانت مسؤولية الفقهاء هائلة في تراجع الإسلام وهزيمته في الغرب ، إذ تحول الإسلام إلى دين للورع والعبادة ، متراجعا أمام السلطة ، وشجع الناس على الوشاية بإهمال الطقوس ، وبدأ يوعظ بالقدرية والاستسلام ، ولم يعد باستطاعته أن يصبح فكرة قوية قادرة على الإشعاع مثلما كان منفتحا وخلاقا في انطلاقته الأولى . كان رجال اللاهوت والقانون المرتبطون بالسلطة ، يستأثرون بالاجتهاد «التفسير» ويحتكرونه ، ويتصرفون كموظفين مطلقي الصلاحية في جميع العهود ، . فقد ضاق ميدان الاجتهاد أكثر فأكثر لأن الدوغمائية نشرت الاعتقاد بأن جميع المشكلات وجدت حلولا ، وبالنتيجة ، لم يتمكن «الاجتهاد» من ممارسة تطبيقاته إلا بشكل ضئيل . وبتحالف الاستبداد السياسي والدوغمائية الدينية وتلازمهما ، أديا إلى غلق «باب الاجتهاد» أي باب «التفسير والروح النقدية» . لقد انتقل ظلام «التقليد» والطاعة العمياء لأفكار القدماء إلى الإسلام . وساهم التفسير الحرفي في قتل روح الفترة التي أبدع فيها الإسلام ، ولم تنج من ذلك سوى المناطق

المحيطة ، مثل بلاد فارس التي تألقت بنهضتها الصفوية وشعرائها الكبار ورساميها ، وكذلك إسبانيا ، جامعة قرطبة وإشعاعها الاستثنائي . ويمكن إضافة العباسيين بكل حضارتهم وابن خلدون في المغرب .

- ما هي رؤيتك للانفتاح ؟

- يمكنني القول إن المعتزلة أتاحوا للمسلمين فرصة إبداع منهج أصيل جعلت من هذا الفكر يصل إلى مصاف الثقافة العالمية . إن روح الانفتاح والبحث لم يعملا فقط على ازدهار العلوم والفنون الرائع ، بما جعل الإسلام يوقظ الثقافة في أوروبا وأفريقيا والشرقين الأوسط والأدنى ، بل أدى إلى خلق نموذج في الروح النقدية ، فتقدم على جميع مناهج الثقافة وأسسها الفلسفية . ويفكر «المعتزلة» الجدد في الوقت الحاضر مثل أسلافهم ، إن الإيمان لا يخشى الروح النقدية . وظل القرآن يذكر ب «التأمل» الذي يَمنع أي وسيط بين الله والناس .

- وهل تجد الإسلاموية من ذلك ؟

- «الإسلاموية» هي مرض الإسلام عندما تختلط «الشريعة» بـ«الفقه» ، بمعنى الخلط بين قانون الله الخالد والشمولي وبين التطبيقات التي يمارسها السياسيون أو القانونيون في كل مرحلة من مراحل التاريخ . فلم يأت القرآن على ذكر كلمة «شريعة» مرة واحدة ، بل ظهرت جذور فعل «شرع» في آيات ثلاث . من الواضح أن جميع الشعوب تشترك بهذا الطريق أي «الشريعة» ، تلك الشعوب التي أرسل الله لها رسالة «كل حسب لغته» . وتختلف التشريعات القانونية ، مثل ما يخص السرقة وعقابها ، ووضعية المرأة والزواج أو الميراث في التوراة والإنجيل والقرآن . فالشريعة لا تستطيع أن تحتوي على هذا «الفقه» الذي يختلف عن «الشريعة» ، ذات السمات المشتركة بين الأديان ، كما تختلف مع كل دين حسب العصر والمجتمع اللذين شهدا النبي المرسل . في الحقيقة أن الشريعة حاضرة ومتماثلة في الكتب الثلاثة . فالقانون الإلهي أي الشريعة ، يَجمع بين المؤمنين كافة ، وفي ظاهره يوحي بفرض تشريعات القرن السابع عشر على البشر الذين يعيشون في القرن العشرين ، مما يعطي صورة خاطئة ومنفرة للقرآن . وهذه جريمة بحق الإسلام . إن «تطبيق الشريعة» الحقيقي لا علاقة له بهذه الحرفية الخاملة ، إذ من المفترض أن تجد وراء كل وصية من وصايا

القرآن على المبدأ الذي استوحت منه ، وكذلك الظروف التاريخية التي تم فيها تطبيق هذه الشريعة . وأكثر من ذلك ينبغي أن نضع كل واحدة من هذه المسارات في مجمل الإلهام القرآني ، وليس من خلال قراءة حرفية تعزل الآية المعنية عن السياق التاريخي للقرآن الذي خص به المعنى .

– **هل تعتقد أن العثمانيين ساهموا في تصلب الإسلام ؟**

– لقد واجهت مهمة الإصلاحيين الأوائل في هذه النهضة صعوبات جمة : فقد كانوا يحاربون كل معطيات القرن التاسع عشر ، فالاضطهاد الاستعماري المادي والروحي وتفكك الإمبراطورية العثمانية ساهما في تصلب الإسلام . وبعد مرور قرن ونصف ، فإن يقظة الإسلام الحقيقية لا يمكن لها أن تتحقق إلا من خلال القراءة الجديدة للقرآن ، قراءة تمتاز بالحيوية ، لكن بعض «العلماء» عَمل على تعطيلها منذ قرون .

هذه الحركة التي ساهمت في يقظة الإسلام ، أسسها جمال الدين الأفغاني وقادها محمد عبده مصلح العصر ، ومن بعدهما جاء رشيد رضا وحسن البنا ومحمد إقبال ، والشيخ ابن باديس وآخرون ، ممن طرحوا المشكلة الجوهرية التي لم تجد حلا لحد الآن وهي : ما هي يقظة الإسلام التي لا تتوقف عن التفاعل ، والقادرة على الإجابة عن أسئلة عصرنا ؟ أليس من خلال التواصل المبدع مع أعمالهم ؟

– **ولكن هذا الفكر طرح في بداية الإسلام ؟**

ـ هذا صحيح . لقد أعطى أبو حنيفة مثالا نموذجيا لهذا المنهج الفكري الذي أخلص لروح القرآن وواصل الإبداع في آن واحد . فالشريعة بإمكانها أن تصبح خميرة لحياة المجتمع وتطوره في كل مرحلة من مراحل التاريخ . وأن تحيا يعني أن تستوحي من أفعال الناس جميع مراحل تجربة الإنسانية الشاملة . فهي وحدها القادرة على أن تقول لنا كيف نعيش من الشرق إلى الغرب ؛ لأن الإنسانية كلٌ واحدٌ لا يتجزأ . ولكننا غالبا ما نقرأ القرآن بعيون ميتة . يمكن لنا أن نحلّ مشاكلنا من خلال عيون الناس الذين كانوا يتمتعون بعبقرية إيجاد الحلول لمشكلات عصرهم ، وليس بالاقتصار على ترديد مقولاتهم وصيغهم بل من خلال استيحاء مناهجهم . ولا تعني العودة للأصول الدخول إلى المستقبل بالرجوع إلى الوراء والنظر إلى الماضي بعيون جامدة ، بل أن نجد الديناميكية الخلاقة التي جاء بها الإسلام المبكر .

– هل يمكن التوفيق بين الشريعة والاجتهادات المضافة ؟

– ليست الشريعة مستنقعا راكدا نستهلك منه المياه الأسنة ، لأن ذلك سيؤدي إلى ظمأ جديد ، بل إنها عبارة عن نهر جميل ، لماع ، وحين يتدفق يخصب ضفتيه . لكن ثمة بلدانا تعطي صورة كاريكاتورية وفاسدة ل «الشريعة» في الوقت الحاضر ، كما كانت تفعل في العهد الأموي ، وجميع الأنظمة الاستبدادية التي هي بمثابة «المستنقع الأسود» في الإسلام . إن تحويل «الشريعة» وإفسادها بالنسبة لأولئك ما هو إلا تعبير عن ضرورة الحفاظ على السلالة : ف «الشريعة» كما يعرفها القرآن ، تقوم بإدانة كل فساد السلطة والملك والمعرفة .

ومن خلال إعادة بناء «الشريعة» وجوهر حقائقها ، يتمكن الإسلام من العثور على الظروف الملائمة في عصرنا لكي يتوسع وينتشر ، مثلما حصل في القرن الهجري الأول .

– ما هو مستقبل الإسلام في ضوء التطورات الحالية ؟

– يعتمد مستقبل الإسلام على جهوده في إعادة نشر الأبعاد التي صنعت عظمته وإشعاعه في زمن معين من الأزمان . ويتجسد ذلك في بعده الشمولي ، أي عدم التقيد بهذا التقليد أو ذاك من تقاليد الشرق الأوسط وماضيه ، وإنما بالانفتاح على جميع الثقافات ، ويتجسد بعده الباطني في الصوفيين الأندلسيين الذين وقفوا ضد الشكلانية والطقوسية والحرفية الجافة . ثم يأتي بعده الاجتماعي ، وذلك من خلال اختزال قانون الغاب الذي تتصادم فيه المصالح المتضاربة . ومن بعد ذلك يأتي بعده النقدي ، ولعلنا نتذكر المسلم الهندي محمد إقبال في كتابه «إعادة الفكر الديني للإسلام» ، والذي أكد بأن الروح النقدية وحدها القادرة على الحفاظ على الإسلام من فتنته الكبرى ؛ أي قراءة النصوص المقدسة بعيون الموتى .

– أين يكمن جوهر الإسلام الذي نضعه في مستوى المثال النموذجي ؟

– الإجابة بسيطة : إن الإسلام موجود في القرآن وفي قلوب ملايين البشر . إن اعتناقي للإسلام لا يشكل قطيعة بقدر ما يفتح حدود آفاق أبعد من المركزية الغربية ، التي تسعى إلى فصل الإنسان عن أبعاده الجوهرية .

لماذا اعتنقت الإسلام؟

- لماذا اعتنقت الإسلام ؟

- كثيراً ما يتردّد على أسماعي : لماذا اخترت اعتناق الإسلام؟ مثلما حصل لي مع الماركسية ، تعرفت على الإسلام من خلال الكتب قبل أن أصبح مؤمناً . في الحقيقة ، لم يكن لقائي الأول مع الإسلام في إطار المعرفة بقدر ما كان في إطار الوجود : أثناء نفيي إلى الصحراء (أُلقي القبض علي في سبتمبر عام ١٩٤٠ في الوقت الذي لم يكن النفي والإبعاد معروفين في ألمانيا) ، وفي معسكر التعذيب في «جلفا» نظّمت مع بعض الرفاق عصياناً من أجل الترحيب بمجموعة قديمة من الألوية الدولية (تم نقلهم من معسكر «كوليو» لينضموا إلى معسكر «جلفا») .

وقد قام القائد الفرنسي للمعسكر بإعطاء أوامره بإطلاق النار علينا . كانت فرقة الإعدام تتألف من المناوشين الجزائريين ، وكانوا ينتمون إلى طائفة مسلمة تنحدر من الجنوب من «غرداية» يعرفون بـ«العباد» أي «متطهرو الإسلام» ، قاموا بتنفيذ جميع الأوامر باستثناء أوامر إطلاق النار علينا أو حتى ضربنا بإيعاز من القائد الغاضب ، وعرفت السبب فيما بعد ، إذ إن تنفيذ إطلاق النار علينا كان يتناقض مع شرف أولئك المحاربين المؤمنين ، حيث أن الرجل المسلّح لا يسمح لنفسه بإطلاق النار على رجل غير مسلّح . ومنذ إطلاق سراحي في الجزائر ، عكفت على دراسة الثقافة التي تجسّد هذا المبدأ وهذا السلوك ، ومن هنا قمت بتنظيم أول مؤتمر في عام ١٩٦٤ حول موضوع «الإسهام التاريخي للحضارة العربية- الإسلامية في الثقافة العالمية» ، وقد قام الضباط الأحرار بترجمة هذا النص في مصر . وعند زيارتي ، بعد مرور سنوات ، أي في عام ١٩٦٩ إلى هناك استقبلني عبد الناصر في القاهرة ، وقدّم لي تلك الترجمة قائلاً : «هل ترى . . إننا نعرفك منذ زمن طويل» ؟ وقد ذهلت أن أشتهر من خلال ذلك العمل ، بينما كانت أوروبا تطلق لفظة «العصور الوسطى» على العالم الإسلامي آنذاك ، وهو لا يقتصر على نقل علوم وحكمة الهند والفرس واليونان كالشريان من هذه الضفة إلى الضفة الأخرى ، بل يحمل غنى الشرق إلى الغرب للمرة الأخيرة حتى أيامنا هذه .

- ما هو رأيك بالصوفية التي ترى نفسك فيها ؟

- أنشأ العرب ، في ميدان العلوم والفنون والصوفية ، حضارة ازدهرت في الأندلس في إسبانيا لدرجة أنها في ساعة انحطاطها ، أي في الاستيلاء على قرطبة في القرن الثالث عشر ، عملت على إيجاد ظروف نهضة قامت مع الإيمان بالله (أي أنها ربطت العلوم والحكمة- التأمل حول الأهداف- بالإيمان) ، ولم تبدأ هذه (النهضة) في إيطاليا إلا بعد مرور ثلاثة قرون على ذلك ، لكنها قامت (ضد الإيمان بالله) ، أي أنها قرّبت العلوم والتقنيات ، وأبعدت الحكمة والإيمان أكثر فأكثر .

- ماذا فعلت بعد عودتك من الجزائر ؟

- كانت هناك مهمات عاجلة أخرى استأثرت بي بعد عودتي من الجزائر إلى باريس بعد التحرير مباشرة ، وباعتباري نائباً ومناضلاً ، ساهمت قبل كل شيء في بناء فرنسا التي خرّبتها الحرب : النداء إلى ديغول أولاً . . وإلى الوزراء الشيوعيين الذين طُردوا من السلطة من أجل إخلاء الساحة لموجة من موجات الاستعمار الأمريكي : من خلال مؤتمر بريتون وودس على الصعيد الاقتصادي ، ومن بعدها خطة مارشال . أما من الناحية الثقافية ، فمن خلال إخضاع السينما الفرنسية للولايات المتحدة من خلال اتفاقيات بلوم بايرنز . وعلى الصعيد الاجتماعي فمن خلال اضطهاد عمال المناجم المضربين عن العمل ، حيث كنت نائباً لمنطقة كارمو ، وكنت أدعم كفاحهم في باريس ، كما تعاونت مع بولا لانجيفان ، في مشروع (أنسكلوبيديا النهضة العسكرية) .

- متى بدأ تمردك ضد الحزب الشيوعي ؟

- بدأ ذلك منذ أن قمت بتنظيم الحوار بين المسيحيين والماركسيين داخل الحزب ، وبذلت جهوداً كبيرة لكي لا أتحوّل إلى مجرّد تابع ، على صعيد الثقافة والإيمان والفلسفة ، إلى المفاهيم التحريفية التي فرضها القادة السوفييت آنذاك . وقد ساندني أراغون على صعيد الفنون في صراعي ضد دوغمائية (الواقعية الاشتراكية) ، كما ساندني موريس توريس في صراعي ضد الإلحادية الأصولية حتى وفاته في عام ١٩٦٥ ، إذ طردت عام ١٩٧١ لأنني هاجمت قلب النظام من خلال تصريحاتي القائلة إن «الاتحاد السوفييتي ليس بلداً اشتراكياً» . كان عليّ أن أتغلّب على هذه المأساة في حياتي (بعد ٥٣ عاماً من النضال في الحزب) لكي أذهب نحو تأليف

كتاب (استعادة الأمل)- منشورات غراسييه ١٩٧١ ، و(البديل)- منشورات لافون ١٩٧٢ . وكان عليّ أن أفكر في كل شيء من أجل العثور على الطريق النبيل للفلسفة (الفعل) بعيداً عن فلسفة (الكائن) التي أشرفت على الانتهاء في الاتحاد السوفييتي سابقاً والأحزاب التي تقلّده ، وذلك بالتنكّر لفلسفة (الفعل) عند كارل ماركس .

إنني لم أصل إلا من خلال محاولاتي في إيجاد ديناميكية الفعل الخلاّق عبر تأمّل طويل حول الفنون ، وتمكنت من ذلك بفضل عودتي إلى وظيفتي كأستاذ جامعي ، واكتشافي المتأخر لغنى الثقافة غير الغربية من خلال (المعهد العالمي لحوار الثقافات) الذي عملت على تأسيسه عام ١٩٧٤ .

- ما هي الثقافات غير الغربية التي عنيت بها ؟

- إن ولعي بالتواصل مع روحانيات الهند والصين والإسلام وأفريقيا جعلني أعي بشكل مطلق أن «الغرب ما هو إلا نكبة» إذ كتبت ذلك في كتابي «من أجل حوار الحضارات» - منشورات دونويل ١٩٧٧ - وكان عليّ أن أجد ، بعيداً عن فلسفة الوجود بين القوسين الغربيين الطويلين ، التيار الطاغي للتاريخ العالمي : فلسفة الفعل .

- ما هو الإسلام بالنسبة لك . . ثقافة أم إيمان ؟

- لم يكن اعتنائي بالإسلام كثقافة فقط بل كإيمان ، ومن الأفضل أن أقول كـ«إيمان» يفسّر انتصاراته في إسبانيا ، من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر ، ليس انطلاقاً من نقطة التفوق العسكري في مواجهة أكثر الإمبراطوريات قوة وتقدّماً في التقنية ، بل من خلال أكثرها قرباً ؛ القوة البيزنطية والقوة الفارسية على سبيل المثال .

- ما هي أسباب نجاح الإسلام في نظرك ؟

- يمكنني القول إن ذلك يعود إلى ثلاثة عوامل هي : التجديد الروحي ، والثورة الاجتماعية ، والتغيير الثقافي . ليس الإسلام ديناً جديداً وُلد مع موعظة الرسول محمد ، وليس الله Allah رباً Dieu خاصاً بالمسلمين ، فالله هو الرب ، الترجمة الحرفية للكلمة التي تشير إلى الله الواحد ، لذلك فالإسلام يعني : الخضوع الإرادي لرب واحد ، الذي هو القاسم المشترك بين الديانات المعلنة : اليهودية والمسيحية

والإسلام ، منذ أن «نفخ الله في روح الإنسان» أي بمعنى الإنسان الأول . وهكذا يحدِّد القرآن بشكل واضح بأن جميع الأنبياء هم رسل الله نفسه ، ومن خلال الإشارة إلى تواصل الرسالات النبوية أو ما يطلق عليه القرآن (سنة الله) و(تقاليده) ، ويأمر الله المسلمين في القرآن باحترام أنبياء اليهود ويسوع المسيحيين ، ويمتد ذلك إلى حكمة كل الشعوب ، يقول القرآن إن الله أرسل الأنبياء إلى الشعوب كلها ، وتكلم بلغاتها حتى تكون الرسالة مفهومة ، ويمتد ذلك إلى «الشعوب التي لم يتحدّث عنها في الكتاب» مثل حالة الهند والصين على سبيل المثال .

– ما هو جوهر الشريعة في نظرك ؟

ـ إن الرسالة الاجتماعية التي جاء بها المجتمع هي جوهر «الشريعة» : إن الله وحده الذي يملك ، وإن الله وحده الذي يأمر ، وإن الله وحده الذي يعرف ، وهذا قانون مشترك بين جميع الديانات التي ظهرت ، وكذلك بين جميع الحكم التي تحدّد الظروف بكل مجتمع بوجهيه الإنساني والمقدّس . والإنسان ، خليفته على الأرض ، مسؤول عن إدارة هذه الملكية في سبيل الله . ويقف هذا المفهوم على النقيض من الحقوق الرومانية التي تعرف الملكية بمثابة (حقوق الإفراط والتمتع) ، أما المسألة بالنسبة للمسلم فهي على النقيض من ذلك ، الواجبات تأتي قبل الحقوق ، الإنسان هو المسؤول عن التصرف بملكية الله ولا يستطيع التصرّف بها حسب مشيئته ، ولا يستطيع أن يدمّرها حسب نزواته ، ولا يستطيع تبذيرها ، ولا يستطيع أن يتركها في أرض بور دون أن يجعلها تثمر بعمله ، كما لا يستطيع أن يكدّسها ، وكانت أسوأ لعنة وقعت على ثروة أبي لهب ، كما جاء في القرآن ، وأوامره ، خصوصاً «الزكاة» ما هي إلا مساهمة في التحوّلات الاجتماعية ، باعتبارها مطلباً دينياً ، وتحريم «الربا» يعني أن كل زيادة في الغنى دون عمل في سبيل الله تهدف إلى منع تراكم الغنى في قطب من المجتمع وتراكم البؤس في القطب الآخر . إن الله يستثني في القرآن ، وبصورة جذرية ، أي نظام اجتماعي تؤسس فيه الأموال سلسلة الهرم السياسي . في البلدان التي دخلها الإسلام كانت الأرض تعطى إلى الذين يزرعونها (حتى لدرجة استغلالها من قبل المالكين والإقطاعيين والملوك الكسالى أو الكهنوتيين الطماعين) لقاء ضريبة متواضعة . (ولم تكن هناك سوى بعض المعارك ضد الملوك والإقطاعيين المنعزلين عن شعوبهم : كما وقع في اليرموك والقادسية ونهاوند) . فالشعوب التي

تستقبل المسلمين ، باعتبارهم محرّرين ورجال إيمان ، تكن احتراماً للآخرين .

- كيف بدأ عصر العلم العربي في نظرك ؟

- الله وحده الذي يعرف «ترياق الدوغمائية» ، حيث كَتَبَ اللاهوتي البروتستانتي كارل بارت أن «كل ما قلته عن الله قاله الإنسان» ، وحتى لو أن الله كشف عن الحقيقة بواسطة النبي ، يبقى الإنسان هو الذي يستمع ويفسّر ، ومعرفته نسبية ومؤقتة وغير منجزة ، ويمكن مراجعتها على الدوام ، والشيء ذاته بالنسبة لما يقوله الإنسان عن الطبيعة أو التاريخ في العالم حسبما يقول القرآن ، إن الله لم يخلق السماوات والأرض مرة واحدة ، بل في ستة أيام لأنه لا يتوقّف عن خلق الأشياء الجديدة كل يوم ، وبهذه الروحية الانفتاحية العظيمة بدأ عصر العلم العربي بجهود منهجية لإدماج تراث كل الثقافات الكبرى في الماضي . ومن القرن الثامن فقد جذب هارون الرشيد إلى قصره العلماء من جميع الأصول والجذور . وقد أسس المأمون ، من بعده ، مدرسة للمترجمين أدارها أولاً فارسي ، ثم جاء من بعده نصراني ، ولم تتم ترجمة كتب الطب لـ (هيوقراط وغاليان ودبوسكوريد) فحسب بل تمت ترجمة كتب الرياضيات وعلم الفلك والعلماء الطبيعيين ، وبناء على أوامر المأمون قام الفارابي بترجمة وتكييف مادة علم الفلك الهندي (سيد هارتا) تأليف براهما غوبتا ، وقد تعلّم العرب من الصينيين تقنية صناعة الورق منذ القرن التاسع ، وقد تأسست أول صناعة في بغداد نحو عام ٨٠٠ ، وكان ينبغي الانتظار طيلة أربعة قرون ، لكي يكتشف الغرب هذه الصناعة ، ويستخدموها فيما بعد بفضل العرب . إن إنتاج الورق أدى إلى قلب ظروف تطوّر الثقافة ، فالشغف بالكتب ، وتمثيل الكتب الماضية لكل من إيران والصين والهند واليونان لا ينطوي على اختبار تفضيلي ، فالمسلمون استقبلوا هذا التراث الثقافي الغني ، وعملوا على تجديده في ضوء رؤيتهم الخاصة .

- ما هو الفرق بين المفهومين العربي واليوناني في الثقافة ؟

- ليس مفهوم الإسلام لـ «توحيد» الكائن هو فعل التوحيد في جميع ميادين الإبداع بل من خلال تجديد الثقافة الماضية بشكل عميق ، وباختلاف المفهوم اليوناني للثقافة ، ذات النزعة الصراعية من خلال معارضتها منذ أفلاطون ، بين

الحسي والملموس ، بين الطبيعة والروح ، بين الإله والعالم ، فإن الرؤية الإسلامية موحدة بشكل أساسي . على سبيل المثال ، فإن العالم الحسي وعالم الطبيعة ، لا ينفصلان أبداً لا عن الملموس ولا عن الله . إن الظواهر الطبيعية عبارة عن إشارات «آيات» عن وجود الله واللغة التي يتحدّث بها الله إلى الإنسان ، وإحدى نتائج هذا المفهوم هو أن العلم بدل أن يأخذ صفة تأمّلية كما عند اليونانيين ، وخاصة عند أرسطو رغم انتباهه إلى الملموس ، سيصبح تجريبياً أكثر فأكثر . وهكذا فإن العلم الحديث لا يمكن تقسيمه ، فهو تجريبي ورياضي . خذ أولاً انطلاقته في بغداد وقرطبة وباليرم ، ورائد المنهج التجريبي في أوروبا ، روجر باكون ، الذي كرّس الجزء الخامس من كتابه Opus Majus حول (المنظور) ، لم يتردّد في استنساخ صفحات كاملة من كتاب (البصريات) لابن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٠) وهو أول من دشن في أبحاثه مسألة (انتشار الضوء) والعلم الحديث انطلاقاً من الاحتمالات الرياضية ، ودقّق ذلك بواسطة تركيب النص التجريبي ، حيث اعترف روجر باكون نفسه بتأثيراته ، وكتب قائلاً : «جاءت الفلسفة من العرب ، ولم يكن أي لاتيني يفهم كيفية ملاءمة الحكمة والفلسفة ، وإن لم يجيدوا اللغة عملوا على ترجمتها» . إن روح التوحيد تسري في جميع العلوم ، حيث برع العلماء العرب بدءاً من الفيزياء وعلم الفلك حتى علم الأحياء والطب ، وهذا ما سمح بتجديد جميع العلوم : الرياضيات مع الخوارزمي ، والطب مع الرازي ، وابن سينا .

- والمركزية الأوروبية . . أين تكمن ؟

- إذا تخلينا عن الوهم الذي يفترض اعتبار أوروبا مركزاً لكل التاريخ ، ينبغي أن نعترف بأنه لم تكن هناك هوة سوداء من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر ، لكن على النقيض ، ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية كواحدة من أسطع الحضارات في التاريخ . أما في العلوم الاجتماعية فلا بد من ذكر ابن خلدون ، الذي قدّم تحليلات رائعة في هذا الميدان ، حيث لم يكن الغرب يعرف شيئاً آنذاك . إن الرؤية الديناميكية للعالم في القرآن تنبع من عملية الخلق المتواصلة لله ، فلم تدرك الفلسفة الغربية جوهر النظرية الإسلامية في المعرفة التي تنطلق من فعل الخلق إلا بعد مرور قرون عديدة من قبل (كانت) و(غاستون بشلار) ، ولم يكن بمقدورنا أن ندرك مفهوم المعرفة إلا في القرن العشرين ، خصوصاً مع ظهور نظرية النسبية لآينشتين ، الذي

أوضح لنا أن (الزمن) ما هو إلا (زمننا) ، وعلى العكس لا يوجد الزمن إلا من خلال علاقتنا مع معدل سرعة كل موجة . إن النتائج اللاهوتية لهذا الانعكاس الفكري الكبير شيء أساسي . عندما انتقد الغزالي الفلاسفة المسلمين السابقين أو المعاصرين ، بدءاً من الكندي وانتهاءً بابن سينا ، فإنه لم ينعت الفلسفة بعدم الاختصاص عامة ، بل المفهوم اليوناني للفلسفة الذي تغلغل إلى مفكري اللغة العربية ، وإذا كانت الترجمة اليونانية تنص على أن الله عبارة عن كائن فإن مفهوم الخلق لا يصبح ملموساً ، لأن وجود كل كائن يسبقه كائن آخر : الله هو فعل ، فعل خلاّق بشكل خالد ، وهو الذي يخلق ولا يتوقّف عن الخلق كما جاء في القرآن .

- ما هي الأسباب التي أدت إلى ازدهار الإسلام ؟

إن الإسلام لدى ظهوره لم يكن ديانة قطعت مع ما سبقها من ديانات وإنما جاءت لتكملها ، وهو ما أعطاه بُعداً عالمياً .

والله في الإسلام ليس إلهاً خاصاً بالمسلمين ، وإنما هو أيضاً رب إبراهيم والمسيح ، حيث تجتمع في الحب الإلهي كل أنواع الحب . إن عدم محدودية الإسلام وعدم قصر رسالته على شعب واحد كان سبباً في شيوعه ، فالدين الإسلامي لم يشكّل بالنسبة إلى مؤمني الديانات الأخرى قطعاً مع تقاليد إيمانهم السابقة ولا رفضاً للأنبياء السابقين .

أي أن الإسلام شكّل حين ظهوره صحوة دينية للشعوب التي عرفته ، والتي كانت تعيش حال إيمان غير حيوي ، فنفحها الإسلام روحية وحياة جديدتين . إن جعل المفاهيم الإسلامية حاضرة في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية هو الذي يشكّل قوة الإسلام . وللدلالة على عظمة الإسلام في الماضي يمكن أن أضرب لك مثلا على إسبانيا التي تعني الغرب مباشرة ، فنرى كيف سادت العدالة الاجتماعية في هذا البلد حيث الله وحده يملك ، وما الإنسان سوى مسؤول يدير الملك ، وهو ما يتناقض مع المفهوم الروماني الذي يعطي المالك حق التصرف في ملكيته كما يشاء . وإضافة إلى الصحوة الدينية التي ولدها الإسلام في إسبانيا والتغييرات الاجتماعية التي استتبعها انتشاره ، فقد حقّق تطويراً ثقافياً جسّدته روحية انفتاحية تؤمن بضرورة طلب المعرفة .

- هل تعتقد أن إنفتاح الإسلام هو سرّ ديمومته؟

- انفتاح الإسلام هذا ، واستيعابه وهضمه الحضارات التي سبقته ، ولدّ في إسبانيا حضارة جديدة ليست خاصة بالإسلام فقط ، وإنما هي نتيجة التفاعل والاحتكاك مع مجتمع جديد انضوى تحت لوائه . ففي حين لم يكن الغرب يجيد القراءة ، كانت في مصر مكتبة تضم مليوناً وستمائة ألف كتاب ، ثمرة ازدهار حركة الترجمة وتطوير صناعة الورق . إن أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام (ليس وحدة

الكائن وإنما وحدة الفعل) . . هذا المبدأ الذي ينعكس في سائر مجالات الخلق والإنتاج ، والذي سمح للإسلام بتجديد عميق في الثقافة السالفة . ثمة ملاحظة يتناساها الكثيرون في الغرب ، انطلاقاً من مثال إسبانيا ، وإذا قرّرنا حكر التاريخ على أوروبا ، فإن من الضرورة الاعتراف بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت من أكثر الحضارات إشعاعاً في التاريخ .

- هل يعود ذلك إلى نظرية الإسلام في المعرفة ؟

- إن نظرية الإسلام في المعرفة ، التي تبدأ بالفعل الخالق بذاته ، العلة الأولى ، الله ، لتشمل من ثم كل الأشياء ، لم يتم تبنيها في الغرب إلاّ بعد قرون عديدة . ثمة شاهد آخر على عظمة الإسلام هو مثال الهند ، وهي إلى جانب الأندلس مثلتا أجمل وجوه الإسلام الحي ، لكن «نهضة الإسلام» اليوم مرتهنة بإعادة اكتشاف كل الأبعاد التي أشاعها الإسلام في إسبانيا والهند .

- تحدثت عن التشويه الذي ألمّ بالإسلام ، كيف بدأ في نظرك ؟

- بدأ أولاً مع ذلك التشويه الذي أصابه بسبب تكفير المعتزلة ، الفرقة الدينية التي سمحت للإسلام بخلق طريقة خاصة في التحليل أوصلته إلى سدة ثقافية عالمية ، وكوّنت مثالاً لروح النقد والانفتاح ، ذلك أن حصر الدين في دائرة التقليد وإقفال باب الاجتهاد وإقحامه في تفاصيل هو في غنى عنها ، ساهم في انحدار الإسلام . أما مرحلة الانحدار الثانية فبدأت مع تعطّش الأمراء إلى السلطة وطمعهم في الغنى بحيث طغى ذلك على كل قيمة ، فجعلوا من الدين أداة لإحكام قوتهم ، مفقدين الإسلام روحه وإشعاعه ، ونتج عن هذا الوضع نوع من أرثوذكسية إسلامية تخدم السلطة . إن قيم الإسلام الأبدية تعني قدرته على التحرّك وتدلل على حيويته ومرونته القادرة على حل المشكلات باستمرار ، أما الجمود والانكفاء على الذات فيقيّد انفتاحه . لقد ارتبط ازدهار العلوم بإسلام منفتح منح بُعداً عالمياً للرسالة القرآنية . أما ثالث أنواع الانحدار ، وهو ما يطلق عليه «الإسلاموية» أو التطرف الإسلامي ، فهو المرض الذي ينخر الإسلام ، شأنه شأن التعصب ، مرض في كل الديانات .

– أليس هذا التعصب ناتجاً قبل كل شيء عن الحملات الاستعمارية التي بدأت بالنظرة الدونية للآخر ؟

– بالتأكيد كان التعصب الأول هو التعصب الاستعماري ، الذي اعتبر أن الانتشار العالمي للدين المسيحي ، يجب أن يطبق على الآخرين ، فارضاً بذلك على العالم ، ابتداء من القرن التاسع عشر ، ثقافته التقنية والتجارية التي سماها (الحداثة) . وكل أشكال الأصولية الأخرى من (الثورة الثقافية الصينية) إلى (الإسلاموية) تشكّل رد فعل على التعصب الاستعماري . القطع الجذري مع التشريعات والقوانين الموروثة عن الاستعمار ضروري جداً ، لأن هذه التشريعات استقيت من منهاج ورؤية وفهم للعالم والإنسان تختلف عن الفهم الذي يملكه المجتمع الإسلامي . الضرورة تدعو إلى استبدال هذه القوانين بأخرى نابعة من تعاليم الإسلام ،لكن ليس ذلك الإسلام المحدود بشروطه التاريخية ، التي عاشتها الجزيرة العربية قبل أكثر من ألف سنة .

– ما هو رأيك بالتفسيرات المختلفة للإسلام ؟

– إن خلط الفقه بالشريعة يُعدّ مرضاً حقيقياً في الإسلام اليوم . . إذ إن كل نهضة سياسية وروحية للإسلام تتطلب إعادة قراءة للقرآن ، بحيث تكون متحرّرة من التفسيرات العقيمة للعلماء الرسميين ، فمشكلة الحداثة يجب ألا تطرح من وجهة نظر غربية ، لأنها تتابع استعمارها الاقتصادي والثقافي للبلدان الإسلامية . الشريعة تعطينا المبادئ الموجّهة ، وتملكنا وسائل التوصل إلى حداثة جديدة مختلفة عن حداثة الغرب ، ومغايرة لمنطق الهيمنة الأمريكية ومنطق صندوق النقد الدولي .

– تتحدث عن الإسلام الحي ، ما هو في نظرك ؟

– خصصت فصلا كاملا عن الإسلام الحي في أحد كتبي ، وفيه أعرض لواقع الإسلام اليوم ، والمأزق الذي يعيشه نتيجة انغلاق السلطة السياسية على أمجاد الماضي ، وعلى حل مسائل فقهية تعود إلى القرن الثاني عشر ، في حين أن الاجتهاد والخروج على التقليد شرطان أساسيان من شروط الصحوة المطلوبة . ويعتبر الانغلاق على الذات علامة ضعف في الإسلام ، لأن الإسلام في زمن مجده ، وأثناء فتوحاته ، استوعب كل الثقافات ، واكتسب عبرها قوة أكبر ، مع احتفاظه بهويته .

لا بد للإسلام الحي اليوم أن يغتني بالنقد والانفتاح على الحياة الفكرية والروحية للبشرية كلها ، إنه الدرب المثالي لولادة العلوم من جديد .

لا بدّ من قراءة جديدة للقرآن تكتب في سياق تاريخي ، وإنني أنتقد القائلين إن القرآن موسوعة تحتوي سائر العلوم والمعارف ، يجب العمل وعدم الكسل ، لأن النص القرآني يقدّم لنا أشياء أهم وأعمق من النظريات العلمية التي تتغيّر وتتطوّر . وإن الشريعة أصبحت اليوم ، وهذا سبب آخر من أسباب الانحدار ، أيديولوجيا لتبرير وخدمة السلطة ، وإن هذا يقدّم عنها صورة كاريكاتورية تغذيها بشكل خاص المملكة العربية السعودية ، حيث الشريعة بالنسبة إلى الأمراء ضرورة للاحتفاظ بالسلطة . إن حصر الشريعة ببعض التشريعات وتنفيذها حرفياً ، كتلك المتعلّقة بقطع يد السارق ، وعزل ذلك عن المضمون الشامل للقرآن ، فيه تناقض كبير ؛ لأن القرآن لم يقل بتكديس المال في طرف وتكديس الفقر في طرف آخر ، بحيث تقطع يد السارق الصغير ، بينما يجمع كبار المرابين الأموال ، وتتاجر هذه الدول في البورصة دون أن تدفع الزكاة .

– ماهي علاقة الغرب بهذه الأنظمة التي تدعي الإسلام ؟

– ما يزال الغرب يتميز بعلاقته الملتبسة والحائرة بالإسلام . الغربيون مستعدون باستمرار لإعطاء دروس في الديمقراطية ولا يتوانون عن مساعدة قاطعي الأيدي حين يكون لديهم النفط ورؤوس الأموال .

القسم الثاني

نص جلسات المحاكمة في قصر العدالة بباريس
١٩٩٨

قصة المحاكمة الأولى لروجيه غارودي ١٩٨٢

في غضون ستة عشر عاماً تقريباً ، تعرّض المفكر الفرنسي روجيه غارودي إلى محاكمتين : الأولى في عام ١٩٨٢ والثانية في عام ١٩٨٩ . وبين الأمس واليوم ، لم تتغير الصورة التي رسمها هذا المفكر عن السياسة الإسرائيلية التي تجسدت في خرقها لأبسط حقوق الإنسان . كما أن المفكر غارودي لم يغيّر موقفه منذ مقاله الشهير «بعد المجازر في لبنان : معنى الاعتداء الإسرائيلي» ، حتى كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» الذي حوكم عليه .

غزو لبنان . . خطوة في المنطق الصهيوني

أكد روجيه غارودي في هذه المقالة أنّ الاعتداء الإسرائيلي الجديد وهو غزو لبنان ، ليس إلاّ خطوة في منطق السياسة الصهيونية منذ أربع وثلاثين سنة ، وتوضحت أهدافه في التوسع وإلغاء حقوق الشعب الفلسطيني ، وإنشاء ما أطلق عليه بن غوريون- مملكة دافيد الثالثة- و-إسرائيل الكبرى- من النيل إلى الفرات ، وفي الوقت الذي لم يكن فيه لمنظمة التحرير الفلسطينية هدف رمي الشعب الإسرائيلي في البحر ، بل لوضع حدّ لاغتصابات الدولة الإسرائيلية . ولم يكن أمن إسرائيل سوى ذريعة وحجة . وكان شارل ديغول على حق في نقده لذلك عام ١٩٦٧ وعبّر عن حقيقة ماثلة .

وفي مقالته في صحيفة «اللوموند» الشهيرة في عام ١٩٨٢ ، شرح غارودي أبعاد المجازر في لبنان ، والمعاني البعيدة للاعتداء الإسرائيلي ، ولخّص ذلك كما يلي :

١- الهدف هو التوسّع بلا حدود .
٢- وسائل إرهاب الدولة .
٣- تمويل إسرائيل .
٤- جدلية نقاش الهولوكست .
٥- الجدل التاريخي للتوراة .
٦- العنصرية .

* يستشهد غارودي بآراء الجنرال شارون ، وزير الحرب الأسبق في عام ١٩٨١ ، الذي قال إن المجال الحيوي للمصالح الاستراتيجية الإسرائيلية يتعدى الدول العربية في البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق الأوسط بأكمله ، ويمتد من إيران والباكستان والخليج وأفريقيا حتى تركيا .

إن منطق الصهيونية هو الحرب المستمرة ، وهدفها هو جذب كل يهود العالم ، البالغ عددهم ٢١ مليونا ، إلى فلسطين لكي يضمنوا لإسرائيل «المجال الحيوي» . إنّ الصهيونية بذلك تريد تحقيق أسوأ أحلام المعادين للسامية ، من درومونن حتى هتلر ، وهو حصر اليهود جميعهم في غيتو عالمي . فالعداء للسامية والصهيونية توأمان لا ينفصلان . والسياسة الصهيونية للدولة الإسرائيلية أدت إلى تخريب أرض الفلسطينيين ، وتدمير مئات القرى ، وعمليات الطرد لآلاف الفلسطينيين من أرضهم . وقد بلغ عدد الفلسطينيين ٥٠ ألفاً مقابل ٥٢ ألف إسرائيلي في بداية القرن ، كما عملت إسرائيل على طرد المسيحيين من القدس . وقد كتب بن غوريون في مقدّمة كتابه «تاريخ الهاغانا» الذي طبعته المنظمة الصهيونية قائلاً : «لا يوجد في بلدنا مكان إلاّ لليهود ، نحن نقول للعرب : انسحبوا ، وإذا ما قاوموا فإننا سندفعهم بالقوة» .

* ويسرد غارودي سلسلة عمليات الإرهاب التي قامت بها إسرائيل باعتبارها رائدة للإرهاب : «مجزرة دير ياسين ، قتل أطفال الحجارة في الضفة الغربية ، اغتيال القادة الفلسطينيين على يد أجهزة المخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، ويعدّد أسماء جميع الشهداء الفلسطينيين ، حرب الأيام الستة وتحطيم الطيران المصري دون إعلان الحرب ، تدمير المفاعل النووي العراقي ، قصف بيروت ، وكذلك ضم القدس والجولان» .

* إنّ إسرائيل لا تستطيع أن تنفّذ اعتداءاتها دون الدعم اللامشروط للولايات المتحدة الأمريكية ، وقد استلمت إسرائيل ٧ مليارات دولار في عام ١٩٦٧ ، وهو ما يعادل الوارد الوطني لكل من مصر والأردن ولبنان وسوريا آنذاك ، وكانت نفوس إسرائيل آنذاك مليوني نسمة . وبعد مرور سنوات ، عندما أصبح نفوسها ٣ ملايين نسمة ، استلمت مساعدات أمريكية تفوق المساعدات المقدّمة للعالم الثالث

قاطبة ، وثلثا هذه المساعدات يذهب إلى التسليح . وبفضل هذه المساعدات المالية الضخمة بدأت إسرائيل تروّج لأسطورة «المعجزة الإسرائيلية» و«ازدهار الصحراء» ، إضافة إلى تزويد الولايات المتحدة لها بأحدث أسلحتها وتقنيتها الحربية . ونتيجة لهذه المساعدات الضخمة ، ساد اللوبي الصهيوني وهيمن على مجموع وسائل الإعلام في العالم . وكلما خرقت إسرائيل قرارات الأمم المتحدة ، رفعت أمريكا حق الفيتو لتشلّ قرار فرض الحصار ضد المعتدي .

* تسعى إسرائيل إلى إقناع الأوروبيين بتحميل العرب جرائم هتلر . فقد أوضح ناحوم غولدمان ، الرئيس السابق للحركة الصهيونية ، ومؤسس المؤتمر اليهودي العالمي ، في رسالته بمناسبة السنة الجديدة عام ١٩٨٢ محذراً إسرائيل بقوله : «إن استحضار الهولوكست من أجل قصف لبنان ، كما فعل مناحيم بيغن ، ما هو إلاّ تدنيس لهذه الكلمة وابتذال لحقيقة الهولوكست ، التي لا تبرّر بأي شكل من الأشكال الأفعال السياسية التي لا يمكن الدفاع عنها أخلاقياً» .

* وفي مقالته ، أشار إلى أن إسرائيل تسيء للعرب وتحتقر حقوق الإنسان عندما تروّج لأفكار توراتية مثل «الأرض الموعودة» و«الشعب المختار» ، كما قال موشي دايان في آب/ أغسطس من عام ١٩٦٧ : «لو أننا نمتلك التوراة ونعتبر أنفسنا شعب التوراة ينبغي أن نمتلك أيضاً جميع أرض التوراة» ، وهكذا فإن الميثولوجيا الصهيونية تختزل الرؤية التوراتية إلى مجرّد دين قبلي ، وضيق قومياً ، وذي صبغة شوفينية ، وتضعه في خدمة السياسة العدوانية لإسرائيل . وبذلك فالصهاينة لا يعودون إلى المرجعيات ذات الرؤية الشمولية ، بل يقتصرون في تفسيراتهم على نصوص الغزو الكنعاني . وهكذا يتصور القادة الصهاينة بأنّ الاستيلاء على الأرض الموعودة حق مشروع بسائر الوسائل والأساليب ، وهذا ما تعمّمه الصهيونية في المدارس الإسرائيلية ، وكذلك توجّهه إلى الشبيبة ، وكما فعل يشوع في التوراة ، تريد الصهيونية تطبيقه على الواقع الفلسطيني ، وتركّز في الأذهان أنّ إبادة السكان الآخرين حق إلهي وقدسي مشروع للإسرائيليين .

* ويؤكد غارودي أن العنصرية نابعة من نقاء جنس «الشعب المختار» ، الذي يروّج له

الصهاينة . ولا بد من إقصاء البشر من هذه «الأرض الموعودة» ذوي الدماء المختلطة . وهكذا تستوحي الصهيونية من قوانين نورنبرغ تعريف اليهودية في الدولة الإسرائيلية ، وهو تحديد هوية اليهودي بانحداره من أمّ يهودية . كما أنّ نسل إبراهيم وذريته يتحدد أيضاً بطريقة عنصرية لا تخضع للإيمان بل تخضع إلى استمرارية الدّم ، وإذا ما وضعنا جانباً سخافة النظرية البيولوجية وفكرة العرق والجنس ، فإن اليهودي هو الذي يؤمن بأعرق الديانات ، أما الصهيوني فهو القومي الذي يؤيد عدوانية الدولة الإسرائيلية ، لذلك فإن إدانتنا للصهيونية لا تنفصل عن صراعنا ضد معاداة السامية . وبذلك فإننا لن نخضع للمساومة ولا للإرهاب الفكري من قبل بعض جماعات الضغط في الغرب ، حين يصفون كل مَنْ لا يقبل بالسياسة الإسرائيلية بأنه معاد للسامية وسليل هتلر . ولا بد أن نوضح للرأي العام أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة لاهوتية «ثيولوجية» ، بل هي مشكلة سياسية ، لذلك ينبغي إدانة مَنْ يحاول أن يقلب مشكلة سياسية وكولونيالية وعنصرية إلى مشكلة دينية صرفة باسم الميثولوجيا الصهيونية ، كما تستخدمها الدولة الإسرائيلية .

* ويختتم غارودي مقالته ، التي وقّعها إلى جانبه كل من الأب ليلونغ والراهب إيتيان ماتيو ، بطرح السؤال التالي :

- ما العمل؟

ويستنتج الخلاصات التالية :

١- إن دولة إسرائيل لم تدخل كعضو في الأمم المتحدة ، وبشكل قانوني ، إلاّ بعد توافر شرطين : احترام الحدود المرسومة لعام ١٩٤٩ ، واحترام وضع القدس . ولكن إسرائيل لم تتوقّف عن خرق هذين الشرطين ، لذا فإنها تخرق قوانين الأمم المتحدة منذ وجودها .

٢- نحن لا نريد متابعة سلسلة أعمال العنف والحرب التي تقدّم إسرائيل نفسها نموذجاً لها ، والهدف من أجل تطبيق ذلك لا نريده أن يتم بالحروب ولا بالهجوم بل بالمقاطعة الجادة : بعدم التعامل مع البضائع الإسرائيلية ، وأن يعترف القادة الإسرائيليون بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني ، وكمحاور من أجل بناء الدولة الفلسطينية المستقلة تماماً ،

والقـادرة على التـعـايش بأخـوة مع الإسـرائيليين الذين تخلصـوا من اللعنة الصهيونية . وقد قدَّم شارل ديغول في ٢ حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ نموذجاً لم يحتجّ على حرب الأيام الستة ، بل فرض حصاراً على جميع المواد المرسلة إلى إسرائيل . وقد حذت الحكومتان الاشتراكية اليونانية والنمساوية حذوه . وأخيراً مطالبة دولة إسرائيل بتطبيق قرارات الأمم المتحدة وأن تتوقف الولايات المتحدة عن رفع حق الفيتو على القرارات الدولية .

* إلى هنا تنتـهي مـقـالة «اللوموند» التي نشـرها كل من روجيه غـارودي ، والأب ميشيل ليلونغ ، والأب إيتيان ماتيو في ١٧ حزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢ . .

قرارات المحكمة الأولى لغارودي
في ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧

١- فريق الادعاء :
رابطة- ليكرا- «الرابطة العالمية ضد العنصرية ومعاداة السامية» .

٢- المدعى عليه :
جاك فوفيه ، رئيس تحرير صحيفة (اللوموند) ، روجيه غارودي ، الأب ميشيل ليلونغ ، الراهب إيتيان ماتيو .

رفع فريق الادعاء الدعوى القضائية بموجب قوانين محكمة استئناف باريس ، الغرفة الجزائية الحادية عشرة ، والمؤرخة في ١١ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٨٤ لملاحقة كل من جاك فوفيه ، وروجيه غارودي ، والأب ميشيل ليلونغ ، والراهب إيتيان ماتيو ، بتهمة التحريض على التمييز العنصري أو إظهار العنف إزاء مجموعة من الأشخاص ، بسبب انتماءاتهم إلى طائفة أثنية أو أمة أو جنس أو إلى ديانة محدّدة ، وكذلك تهمة القذف إزاء مجموعة من الأشخاص ، بسبب أصولهم أو انتماءاتهم إلى طائفة أثنية أو أمة أو جنسٌ أو ديانة معادية .

قررت المحكمة ما يلي : فحصت محكمة التمييز الخرق الحاصل للمادة ٤٢ ، الفقرة ٥ من القانون المؤرخ في ٢٩ تموز/ يوليو ١٩٨١ ، والمعدّل بالقانون المؤرخ في الأول من تموز/ يوليو عام ١٩٧٢ ، المادة ٣٧٥ من قانون العقوبات ، وبعد الفحص لم تتوافر الدوافع ، وافتقرت إلى الأسس الشرعية : «إن الفقرة التي أوردتها رابطة- ليكرا- لا تحتوي على عناصر مخالفات قانونية تستحق العقاب» .

أما الفقرة التي تخصُّ تمويل إسرائيل «إنّ الإشراف المالي يفسّر الهيمنة الاستثنائية للوبي الصهيوني على مجمل وسائل الإعلام في العالم ، من الصحافة إلى التليفزيون ، ومن السينما إلى دور النشر ، وقد أدان الجنرال شارل ديغول في عام ١٩٦٩ هذا «التأثير المتزايد» . إنّ هذه السيطرة على الإعلام والمعلومات والدعاية الإسرائيلية الصهيونية على الصعيد العالمي تشرط الأفكار حتى تجعل غير المقبول مقبولاً» .

إنّ عبارات «اللوبي الصهيوني» و«الدعاية الإسرائيلية والصهيونية» وإدانة قوى

المخاطر و«الإسراف المالي» و«الدعم الأمريكي» لا تمثّل في نظر المحكمة أي تحريض على التمييز العنصري وإظهار العنف إزاء مجموعة من الأشخاص، بسبب أصولهم وانتماءاتهم إلى جماعة أثنية وأمة أو جنس أو دين معيّن.

كما أكدت رابطة– ليكرا– أنّ عبارات مثل «الدعاية الإسرائيلية الصهيونية» تخلط بين إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية، تؤدي إلى نقد جميع اليهود والدياسبورا والتحريض على معاداة السامية. وأرادت – ليكرا – أن تفهمنا بأنّ معاداة الصهيونية تعني معاداة السامية.

أما ما يتعلق بفقرات مثل «شعب الله المختار» و«الأرض الموعودة» وفقرات من رئيس وزراء جنوب أفريقيا فوستر، والحديث عن هتلر، فلا تشكل في نظر المحكمة أية مخالفة للقانون.

وكذلك أيدت المحكمة رأيها فيما يتعلق بالمقارنة بين يهودي في تل أبيب ونورمبرغ، والانحدار من أم يهودية، والدم اليهودي وذرية إبراهيم، وغيرها من الأفكار الواردة في مقالة صحيفة «اللوموند» بأنها لا تشكل في نظر القانون أي مخالفة يعاقب عليها.

وعاودت رابطة– ليكرا– رفع اتهاماتها إلى محكمة التمييز، والتي أصدرت قراراتها برفض تلك الدعاوى القضائية، واعتبار أن ما جاء على لسان روجيه غارودي لا يحرّض على العنصرية والحقد والقذف ومعاداة السامية، وغيرها من الاتهامات غير القانونية. لذا حكمت المحكمة برفض الدعوى القضائية وفرض غرامة مالية على فريق الادعاء الذي تمثله رابطة– ليكرا – اليهودية ذات التوجه الصهيوني.

-١-

قصة احتجاز رجل ومفكر

وقد كتب غارودي معلّقا على قرارات محاكمة عام ١٩٨٧ : «لم يكن هدفهم إزالة مخاطر انتقال العدوى بشكل مؤقت بل دفننا في الصمت وكمّ أفواهنا وحرماننا من كل وسائل الإعلام : من الصحافة المكتوبة حتى دور النشر . وكانت ذريعتهم المختارة لوضعي في طيّ النسيان هي الصفحة التي كتبتها في صحيفة «اللوموند» بتاريخ ١٧ حزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢ . فقد حصلت من مديرها جاك فوفيه على موافقة بنشر صفحة كاملة مدفوعة الثمن ، حررتها مع الأب لولونج والراهب ماتيو ، بعنوان «بعد المجازر في لبنان ، معنى الاعتداء الإسرائيلي» ، فقد استلمت عن طريق الرسائل من مجهولين والمكالمات التليفونية ، تسعة تهديدات بالقتل . لقد رفعت Licra «الرابطة العالمية لمكافحة العنصرية ومعاداة السامية» دعوى قضائية ضدي ، متهمة إياي بـ «العداء للسامية والتمييز العنصري» . وقد ذكر محامي جاك فوفيه ، رئيس تحرير صحيفة «اللوموند» آنذاك ، أنه لا يمكن الخلط بين الجالية ، وبدرجة أقل مع معتقداتها وبين دولة إسرائيل ، التي أدان ممارساتها في لبنان عدد من الشخصيات اليهودية الراقية من أمثال مانديس فرانس وناحوم غولدمان . إن دفاعنا ، مع الأب لولونغ والراهب ماتيو ، ينبعث من النص ذاته ، ونحن نذكر أن حياتنا مدينة إلى إيمان الأنبياء اليهود . أما السياسة الصهيونية فإنها استبدلت إله إسرائيل بدولة إسرائيل ، وسلوكها في لبنان وفلسطين نشأ عنه خليط كريه وشنيع لا يشرّف الديانة اليهودية في أعين العالم . إن صراعنا ضد الصهيونية السياسية إذن لا ينفصل عن صراعنا ضد معاداة السامية .

أما ما يخصني ، فإنني أقتطف أمام المحكمة تحليلات دراستي حول «فلسطين ، أرض الرسالات» : إن الصهيونية السياسية التي أسّسها تيودور هيرتزل «الذي أدانه جميع حاخامات العالم باعتباره خائناً للمعتقد اليهودي» لم تنبع من المعتقد اليهودي ، لكن من القومية والكولونيالية في القرن التاسع عشر . إن البقايا الأخيرة من السكان المستعمرين في فلسطين ، كما في أفريقيا الجنوبية ، اصطدمت بعنصريتهم «التي أدانتها الأمم المتحدة» ، وبمقاومة المواطنين الأصليين ضد المستعمر المحتل . وكما في جميع أنواع الاستعمار وأنظمة الاحتلال «عشنا هذا النمط من

الاستعمار في ظل هتلر في فرنسا» ، فإن الاضطهاد يطلق عليه «المحافظة على النظام» ، والمقاومة يطلق عليها «الإرهاب» .

لنستمع إلى محامي منظمة ليكرا ، الذي أراد أن يلصق بي صورة المعادي للسامية أثناء زيارة حائط المبكى في القدس عام ١٩٧٠ ومن ثم في منزل ناحوم غولدمان ، الذي كان رئيساً للمؤتمر اليهودي العالمي آنذاك ، وفي باريس بوساطة آرماند كابلان . قابلت ناحوم غولدمان ، وقد حدّد لي وضعه كرجل داعية إلى السلام من خلال قوله : «إن إحدى الخطايا التاريخية الكبرى للصهيونية أنها لم تأخذ على محمل الجد المظهر العربي للمشكلة . . فلسطين لم تكن أرضاً بلا شعب ، واستنتاجه كان حازماً للغاية : بدل أن نكون حبيسين للغرب ، لنقسّم العالم العربي إلى نصفين ، وإسرائيل يجب أن تندمج ، باعتبارها شريكاً بكاملها في كونفدرالية في الشرق الأوسط» .

وعلى هذا الأساس أراد ناحوم غولدمان أن يقابل عبد الناصر ، ووافق عبد الناصر على ذلك ، وذكر غولدمان ذلك في «سيرته الذاتية» ، وعند عودتي من القاهرة ، دعاني إلى منزله في القدس مع عدد من الوزراء الاسرائيليين ، وقد طلب من السيدة غولدا مائير ألا تعرض مشروع اللقاء على مجلس الوزراء لكي لا ينتشر الخبر . لكنها أذاعت الخبر على الرغم من معارضة أغلبية الموقعين (حتى موشي ديان) ، وهكذا رفض الاقتراح بالنسبة لمجلس الوزراء ، لا وجود للعرب في فلسطين ، ولا فائدة من الحوار . وفي اجتماع المساء ، وفي منزل ناحوم غولدمان في القدس ، فقد أذهلنا جميعاً هذا الرفض لأي اتصال- بين عبد الناصر وإسرائيل .

ثم يعلّق غارودي على هيمنة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وفرنسا قائلاً : «إنّ الهيمنة الكاملة تقريباً على وسائل الإعلام في أمريكا وفرنسا ، من قبل الصهيونية الإسرائيلية ، تفرض على العالم مفهوم قلب المعاني وتخريبها : دبلوماسي إسرائيلي تعرّض إلى اعتداء في لندن ، فتصرح مدام تاتشر في مجلس العموم ، بأن منفّذ الانفجار لم يكن من منظمة التحرير الفلسطينية بل هو من منظمة إرهابية» . الجيش الإسرائيلي يغزو لبنان ويقتل الآلاف ، ويطلق على العملية «السلام في الجليل» .

وفي الأول من يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٨٩ ، اطلعت من على شاشة التليفزيون على قائمة الضحايا بين صفوف «ثورة الحجارة» ، ٧٢٣ قتيلاً من

الفلسطينيين «أغلبيتهم من الأطفال الذين استخدموا الحجارة» ، و٨ قتلى من الجانب الإسرائيلي «وأغلبيتهم من الجنود الذين يطلقون الرصاص» ، في اليوم ذاته صرّح وزير إسرائيلي قائلاً : «إن المفاوضات لا يمكن أن تتحقق ما لم يتخل الفلسطينيون عن استخدام العنف» .

– وهنا يتساءل غارودي مذهولاً :

– هل أنني أحلم؟ أم أن هذا التخدير للروح النقدية كابوس جماعي ، وانتصار للتفاهة واللامعقول؟

لقد أدان الجنرال ديغول في عام ١٩٦٩ «التأثير المفرط» للوبي الصهيوني في جميع ميادين الوسائل الإعلامية : من الصحافة إلى التلفزيون ، ومن السينما إلى دور النشر ، واليوم فقد نجح هذا «التأثير المفرط» في قلب المعاني بصورة كلية ، مطلقين تسمية «الإرهاب» على المقاومة اليدوية للضعفاء ، و«الصراع ضد الإرهاب» يتحول إلى العنف الأكثر دمويّة للأقوياء .

ثم يتحدّث غارودي عن المحاكمة الأولى التي أجريت له قائلاً : «كنا قد أخطأنا ، الأب ليلونج والراهب مايتو وأنا ، في إدانة أكذوبة قلب الحقائق والمعاني . وقد ذهبت المحكمة الكبرى لباريس ، إلى تطبيق قرار ٤٣ آذار/ مارس من عام ١٩٣٨ ، معتبرة أن مقالتنا تعبّر عن النقد المشروع والجائز لسياسة دولة والأيديولوجيا التي تستوحيها ، وليس لها علاقة بالاستفزاز العنصري . . وترفض دعاوى– ليكرا– وترد كل مطالبها وتغرم بمصاريف المحاكمة» .

وتهيج رابطة– ليكرا– وتطلب الاستئناف ، وفي ١١ يناير/كانون الثاني من عام ١٩٨٤ ، تعلن الغرفة الجزائية في محكمة باريس عن حكمها ، وتقتطع محكمة الاستئناف مقطعاً من مقالتنا ، حيث نتهم بها دولة إسرائيل بالعنصرية ، وذهبت المحكمة إلى «اعتبار أن الفكرة الصادرة عن التواقيع لا تخص إلا التعريف المحصور لليهودية المحددة بالتشريعات الإسرائيلية ، مؤكدة الحكم الصادر سابقاً ، والذي رفضته رابطة– ليكرا– أن تعالج الموضوع في محكمة التمييز ، لكن قوانين هذه المحكمة لـ ٤ نوفمبر عام ١٩٨٧ خيّبت آمال الصهاينة في إدانتنا قانونياً وشرعياً ، وقد رفضت الدعوى وغرمتهم بدفع مصاريف المحكمة» .

إن عملية الخنق ما تزال مستمرة بعيداً عن القوانين ، و«اللوبي الصهيوني» يمتلك الوسائل الكافية ، فلو كانت المحكمة أصدرت قراراً بإدانتنا لكنا تحوّلنا إلى الحدث

الرئيسي في جميع الصحف ، ولربطونا بمسامير على عمود التشهير لعرضنا على الناس كمحكومين ومتهمين باعتبارنا معادين للسامية ، لكن إدانة رابطة- ليكرا- من قبل المحاكم ظلت في طي الكتمان والصمت ، وحتى إن صحيفة اللوموند ، التي كان جاك فوفيه ، مديرها السابق الذي انخرط معنا في هذه المعركة ، فقد نشرت هي الأخرى مقالة تافهة لا لون ولا طعم لها .

وعلى أية حال ، فإن الحصار على طموحاتي وآمالي قد تحقّق ، فمنذ صدور مقالتنا في صحيفة «اللوموند» حول المنطق الصهيوني الكولونيالي ، فقد كتبت سطرين أطلب من القرّاء أن يسجلوا أسماءهم لدفع تكاليف النشر ، لأن لوحة الإعلان أشارت إلى تكاليف ٥٠ ألف فرنك ، وقد تسلمت ٧٠ ألفاً ، وكانت مئات منها صكوك بمبالغ صغيرة ، ومن بين المانحين كان ثلثهم من اليهود ، ومن بينهم حاخامان» .

وبعد ذلك انتقل غارودي إلى الحديث عن الخنق الإعلامي لنشاطه الفكري قائلاً : «وانطلاقاً من ذلك بدأ الاختناق الإعلامي ، إذ لم يكن لي أي منفذ إلى التليفزيون ، ورفضت مقالاتي ، فقد طبعت أربعين كتاباً في كبريات دور النشر من غاليمار إلى سوي ، ومن بلون إلى غراسيه ولافون . وقد ترجمت كتبي إلى ٢٧ لغة . ورغم ذلك فقد أغلقت في وجهي جميع الأبواب ، وأحد أكبر الناشرين لكتبي ، قال لمستشاره الإداري : إذا نشرت كتاباً لغارودي ، لا يحق لك أن تحصل على موافقة ترجمة الأعمال الأمريكية ، حيث أن قبولي في النشر كان يؤدي إلى تفجير دار نشره . وناشر آخر (كبير) ، لكتبي أيضاً ، قال لمديره الأدبي الذي ولع بالكتاب وعمل معي طيلة ثلاثة أشهر لإخراج الكتاب بصورة جيدة : «لا أريد غارودي في دار النشر التابعة لي» . هذه قصة احتجاز رجل . إن شبكتنا في مقاومة التفاهة واللامعقول خضعت إلى السرية . وحكم عليّ بالموت الأدبي بسبب جنحة الأمل» .

-٢-

حوكم غارودي بموجب قانون غيسو- فابيوس، فما هو هذا القانون؟

جرى الحديث كثيراً في الصحافة العربية هنا وهناك عن قانون «غيسو- فابيوس» الذي حُوكم المفكر روجيه غارودي بسبب نشره كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» . . إلاّ أن مفهوم هذا القانون وظروف صدوره وتطبيقات بنوده ظلت غامضة وملتبسة وقابلة للتفسيرات العديدة والمتناقضة ، لذلك ارتأينا مناقشة بنود هذا القانون كما نشر حرفياً في الجريدة الرسمية الفرنسية في ١٤ تموز/يوليو من عام ١٩٩٠ في تسع صفحات ، متضمناً (١٥) مادة لا بد من ترجمتها للقارئ العربي بهدف مناقشتها وإلقاء الضوء عليها .

القانون رقم ٥١٦- ٩٠/٣١ تموز/يوليو ١٩٩٠ «القصد منه ردع كل أفعال العنصرية ومعاداة السامية وكراهية الأجانب» NOR: JUSX9010223L .

تداولت الجمعية الوطنية (البرلمان) ومجلس الشيوخ «السينا» القانون واتخذا القرار بشأنه . تبنته الجمعية الوطنية ووافق على تشريعه رئيس الجمهورية الفرنسية كالآتي :

* **المادة الأولى :**

تمنع منعاً باتاً جميع أشكال التمييز العنصري المبنية على الانتماء أو عدم الانتماء إلى جماعة أثنية ، أمة ، أو جنس أو دين ، وإن الدولة الفرنسية تضمن احترام هذا المبدأ ضمن القوانين المعمول بها .

* **المادة الثانية :**

في ١٢ من شهر آذار/ مارس من كل عام ، وهو التاريخ الذي عيّنته (منظمة الأمم المتحدة) للاحتفال باليوم العالمي لإلغاء جميع أشكال التمييز العنصري ، فإن اللجنة الوطنية الاستشارية لحقوق الإنسان تعمل على تسليم الحكومة تقريراً يتعلّق بالكفاح ضد العنصرية ، وهذا التقرير ينشر علنياً على الفور .

الباب الأول
التغييرات التي طرأت على قانون العقوبات

* **المادة الثالثة :**

يدرج ، بعد المادة ١-١٥ من قانون العقوبات المصاغة بالشكل التالي :

المادة ١-١٥ : في الحالة التي ينص عليها القانون ، فإن المحكمة سيكون بإمكانها نشر قرارها الجزئي أو الكامل ، على نفقة المدان ، وإبلاغ الجمهور بدوافع ومنطوق الحكم المنصوص عليه في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية أو في واحدة أو عدّة من الصحف أو المنشورات الأخرى التي تختارها . المحكمة ستقرر أجل الاستحقاق ، وفقرات القرار التي ينبغي أن تصبح علنية ، وهي ستثبت مصطلحات البيان المزمع نشره .

* **المادة الرابعة :**

تدرج ، بعد المادة ٢-٢٨١ من قانون العقوبات ، المادة المرقمة ٣-٧٨١ المصاغة بالشكل التالي : المادة ٤-٧٨١ : في حالة الإدانة المعلنة بتطبيق المادتين ١-٧٨١ و٢-٧٨١ ، بإمكان المحكمة أن تقرر ما يلي :

١- الحرمان من الحقوق المذكورة من الفقرة ٢ و٣ من المادة ٢٤ لمدة خمسة أعوام أو أكثر .

٢- إعلان قرارها في الظروف المنوّه عنها في المادة المرقمة ١٥ .

٣- نشر هذا القرار أو إدراج البيان في الظروف المشار إليها في المادة ١-١٥ ، دون أن تفوق نفقات النشر أو إدراج نسبة الغرامة المستوجبة .

* **المادة الخامسة :**

الفقرة الأخيرة من المادة المرقمة ٦١٤ من قانون العقوبات تُعدّ لاغية .

* **المادة السادسة :**

تدرج ، بعد المادة ١-٦١٤ من قانون العقوبات ، مادة ٢-٦١٤ المصاغة بالشكل

التالي : المادة ٢-٦١٤ : في حالة الإدانة المعلنة بتطبيق المواد ٦١٤ و١-٦١٤ .

«وفي كل مرّة ، في حالة الإدانة بتطبيق أحكام المادة ٦١٤ المتعلّقة بالحالة الصحية أو حالة العجز ، بإعلان أو نشر القرار أو إدراج البيان ، لا يمكن أن يتلاءم مع هوية الضحية إلاّ بموافقته أو بموافقة ممثله الشرعي» .

الباب الثاني
«التغييرات التي طرأت على المادة ١٣ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة»

* المادة السابعة :

تدرج ، بعد المادة ١٣ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة ، المادة المرقمة ١-١٣ المصاغة بالشكل التالي : «المادة ١-١٣ : حق الردّ المنصوص عليه في المادة ١٣ يمكن ممارسته من خلال جمعيات مستوفية للشروط المبينة في المادة ١-٨٤ ، عندما يصبح فرد أو مجموعة أفراد ، في صحيفة أو منشور ، مكتوب ، مادة تنسب إليه أو إليهم تهم جارحة غرضها الإساءة إلى شرفهم أو سمعتهم بسبب أصولهم وجذورهم أو انتمائهم أو عدم انتمائهم إلى مجموعة أثنية ، أمة ، أو جنس عرقي ، أو دين معيّن . وفي كل مرّة عندما يجري اتهام أشخاص معتبرين بشكل شخصي ، فإن الجمعية غير قادرة على ممارسة حق الردّ إلا بعد أن تبرّر بأنها استلمت موافقتهم ، وأية جمعية لا تستطيع أن تطلب قانونياً نشر حق الرد من خلال تطبيق المادة الحالية إلاّ بعد أن تنشر حق الرد بناء على طلب الجمعيات التي تستوفي الشروط المبينة في المادة ١-٨٤» .

* المادة الثامنة :

تم استكمال المادة ٤٢ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو ١٨٨١ حول حرية الصحافة بالأحكام القانونية التالية : «في حالة الإدانة بسبب إحدى الوقائع المنصوص عليها في الفقرة السابقة ، بإمكان المحكمة أن تقرر ما يلي :

١- استثناء ما إذا كانت مسؤولية المخالفة القانونية تم تسجيلها على أساس المادة ٢٤ من الفقرة الأولى للمادة ٣٤ من القانون الحالي أو الفقرات الثلاث الأولى من المادة ٣-٣٩ من القانون المرقم ٢٥٦-٢٨ بتاريخ ٢٩ تموز/ يوليو من عام ١٩٨٢ حول وسائل الاتصال السمعية- البصرية ، يتم حرمان المادة ٢٤ من قانون العقوبات لمدة خمسة أعوام أو أكثر .

٢- إعلان القرار في الظروف المبيّنة بالمادة ١٥ من قانون العقوبات .

٣- نشر قرارها أو إدراج البيان في الظروف المنصوص عليها في المادة ١-١٥ من قانون

العقوبات ، دون أن تتجاوز نفقات النشر أو الإدراج نسبة الغرامة المستوجبة» .

* **المادة التاسعة :**

تدرج ، بعد المادة ٤٢ من القانون المؤرخ في ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة ، المادة ٢٤ BIS المصاغة بالشكل التالي : «المادة ٢٤ BIS : يعاقب حسب القوانين المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ كل مَنْ يحتج ، عن طريق إحدى الوسائل المذكورة في المادة ٢٣ ، على وجود جريمة أو عدة جرائم مقترفة ضد الإنسانية كما تحددها المادة ٦ من قوانين المحكمة العسكرية الدولية الملحقة باتفاقية لندن ٨ آب/ أغسطس عام ١٩٤٥ ، سواء كان هذا الاحتجاج من طرف أعضاء منظمة تعلن أنها مقترفة لهذا الجرم باستخدام المادة ٩ أو تكون مقترفة من شخص يدان بمثل هذه الجرائم من خلال القضاء الفرنسي أو الدولي . آنذاك بإمكان المحكمة أن تعلن قرارها : ١- إعلان قرارها ونشره حسب المادة ١٥ من قانون العقوبات . ٢- نشر أو تسجيل القرار في الظروف المنصوص عليها في المادة ١-١٥ من قانون العقوبات ، شريطة ألاّ تتجاوز نفقات النشر نسبة الغرامة المستوجبة» .

* **المادة العاشرة :**

تستكمل المادة ٢٣ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة بالأحكام التالية : «في حالة الإدانة بدفع النفقات المنصوص عليها في الفقرة السابقة ، فإن المحكمة بإمكانها أن تقرر ما يلي :

١- إعلان قرارها في الظروف المنصوص عليها في الفقرة ١٥ من قانون العقوبات .

٢- نشر هذا القرار أو إدراج هذا البيان في الظروف المنصوص عليها في الفقرة ١-١٥ من قانون العقوبات ، دون أن تتجاوز نفقات النشر أو الإدراج نسبة الغرامة المستوجبة» .

* **المادة الحادية عشرة :**

تستكمل المادة ٣٣ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة بالأحكام التالية : «في حالة الإدانة بدفع النفقات المنصوص عليها في الفقرة السابقة ، فإن المحكمة بإمكانها أن تقرر ما يلي :

١- إعلان قرارها في الظروف المنصوص عليها في الفقرة ١٥ من قانون العقوبات .
٢- نشر هذا القرار أو إدراج هذا البيان في الظروف المنصوص عليها في الفقرة ١-١٥ من قانون العقوبات دون أن تتجاوز نفقات النشر أو الإدراج نسبة الغرامة المستوجبة» .

* المادة الثانية عشرة :

بعد الفقرة الأولى من المادة ١-٤٨ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة ، تضاف بعد عبارة «أن تكافح العنصرية» عبارة «أو تقدّم العون لضحايا التمييز العنصري المؤسسة على أصولهم القومية ، والأثنية ، والعرقية أو الدينية» .

* المادة الثالثة عشرة :

تدرج ، بعد المادة ١ - ٤٨ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٨٨١ حول حرية الصحافة ، المادة ٢-٤٨ المصاغة بالشكل التالي : «المادة ٢-٤٨ : كل جمعية معلنة بشكل منتظم منذ خمسة أعوام على الأقل من تاريخ التسجيل ، التي تقترح ، من خلال أوضاعها ، الدفاع عن المصالح الأخلاقية أو شرف المقاومة أو المنفيين والمبعدين ، يمكنها ممارسة الحقوق المعترف بها لدى فريق الادعاء بما يتعلّق بتقديم الاعتذار عن جرائم الحرب ، والجرائم المقترفة ضد الإنسانية أو الجرائم أو جنح التعاون مع العدو بما يخص المخالفات القانونية المنصوص عليها في المادة ٢٤ BIS» .

الباب الثالث
الأحكام القانونية

* **المادة الرابعة عشرة :**

تستكمل المادة ٦ من القانون المرقم ٢٥٦-٢٨ في ٢٩ تموز/ يوليو عام ١٩٨٢ حول وسائل الاتصال السمعية- البصرية بالفقرة ١١ المصاغة بالشكل التالي : «الفقرة ١١ : إن الجمعيات المستوفية للشروط المثبتة في المادة ١ - ٤٨ من قانون ٢٩ تموز/ يوليو حول حرية الصحافة ، تتمكن أيضاً من ممارسة حق الرد من خلال الفقرة الحالية في حالة تقصد الاتهامات الجارحة الإساءة إلى شرف أو سمعة فرد أو مجموعة أفراد ، بسبب أصولهم وجذورهم وانتماءاتهم أو عدم انتماءاتهم إلى جماعة أثنية أو أمة أو جنس عرقي أو دين معين ، وتنشر وتوزع في إطار نشاط الوسائل السمعية- البصرية ، وفي كل مرة ، عندما تخص الاتهامات المعتبرين بشكل شخصي ، فإن الجمعيات بإمكانها أن تمارس حق الرد فيما إذا قدّمت تبريراً باستلام موافقتهم ، وأية جمعية لا تستطيع أن تطلب قانونياً نشر حق الرد من خلال تطبيق المادة الحالية إلاّ بعد أن تنشر حق الردّ بناء على طلب الجمعيات التي تستوفي الشروط المبينة في المادة ١-٨٤ الآنفة الذكر» .

* **المادة الخامسة عشرة :**

١- تستكمل الفقرة الثانية من المادة ٨ من قانون ٩٩٦-٥٨ في ١١ تموز/ يوليو الهادفة إلى تأسيس أرشيف سمعي- بصري للعدالة ، بالعبارة التالية :

«في كل مرّة ، يتم إعادة إنتاج أو توزيع التسجيل الكامل أو الجزئي لجلسات المحكمة المخصصة للجرائم ضد الإنسانية ، يمكن أن ترخص منذ انتهاء المحكمة بقرار يصبح نهائياً» .

٢- إن المحكمة التي يرخص تسجيلها في يوم إلغاء القانون الحالي يمكن أن يعاد إنتاجها أو توزيعها من خلال اتباع الإجراءات المنصوص عليها في المادة ٨ المعدّلة من القانون المرقم ٩٩٦-٥٨ والمؤرخ في ١١ تموز/ يوليو عام ١٩٥٨ الآنف الذكر .

* **يُعدّ القانون الحالي بمثابة قانون الدولة .**

باريس ٣١ تموز/ يوليو ١٩٩٠ .

ظروف التصويت على هذا القانون وملابساته

كما هو واضح من ترجمتنا لبنود ومواد وفقرات قانون «غيسو - فابيوس» ، فإن هذا القانون اقترحه النواب الشيوعيون والاشتراكيون ، ولهذا سمي باسميهما . . غيسو وفابيوس ، ويتضمن القانون ١٥ مادة ، مصنفة في ثلاثة أبواب ناقشتها الجمعية الوطنية (البرلمان الفرنسي) في عام ١٩٩٠ .

وكانت الجلسة خاضعة لرقابة عليا ، كما حضر النقاشات حشد كبير من الصحفيين والمصورين ورجال الإعلام ، وكان يفهم أن مَنْ يصوّت ضد هذا القانون فإن ذلك يتضمن الإيحاء يرفض النضال ضد النظريات العرقية .

وقد أوضح السيد جاك توبون ، الذي أصبح وزيراً للعدل فيما بعد ، أن هذا القانون ليس قانوناً ضد العرقية بل هو تلاعب ، وأضاف : إن القانون الذي يمضون إلى التصويت عليه ، يهدف إلى توجيه ضربة ضد الصحافة فقط .

ولابد من الإشارة إلى أن قانون ١ تموز/يوليو ١٩٧٢ الذي يعاقب على التمييز العنصري ، يمنح بعض الروابط والجمعيات اليهودية مثل رابطة- ليكرا- التي رفعت الدعوى القضائية الأخيرة على المفكر الفرنسي روجيه غارودي ، الحق في تعيين ما هو ضد السامية وما هو معها ، وهي الوحيدة المكلفة ببيان ضرورة الملاحقة على خرق القانون المتصل بالتمييز العنصري أو عدم ضرورة ذلك ، ثم إن قانون- غيسو- يزيد هذه الصلاحيات اتساعاً . ويوضح السيد جاك توبون أن هذا الاقتراح قد صيغ بيد- أليكرا- وهي منظمة ضد العنصرية واللاسامية خلال أعمال اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان . وقد صوّت ضد قانون- غيسو- السادة التالية أسماؤهم : شيراك ، جوبيه ، سيغان ، أي وزراء العدل والداخلية ، وكذلك السادة توبون ودوبرية و٥٦٢ نائباً .

وعندما ناقشت الجمعية الوطنية عام ١٩٩١ قانون- غيسو- فابيوس وقف جاك توبون ، وزير العدل السابق ، قائلاً : «إن هذا خطأ سياسي وحقوقي كبير ، إنه قانون يعبّر عن وضع آني ، عن ظرف طارئ ، وهذا يعني أن ننزلق إلى مستوى يجعل الرأي جريمة . لأن هذا المبدأ يقوم على تثبيت الحقيقة التاريخية بالقانون بدلاً من تركها هي تتحدّث عن التاريخ . إن هذا القانون ، وأنا واثق مما أقول ، لن يجد أي مجال للتطبيق في بلادنا» . إن هذا القانون يدعو إلى التفكير في الحقيقة الرسمية التي تجمّد

التاريخ ، وقد صوّت عليه أيام الاعتداء على مقبرة كاربانترا ، وهو نوع من الابتزاز الضمني مُورس على رجال البرلمان ، وإن هناك جماعات ضاغطة قد هيّأت المناخ المناسب للتصويت عليه .

تفسير القانون.. سلاح ذو حدين

إننا بمواجهة قانون يتمتع بسمة بشعة يعاقب الناس على آرائهم ، فالمظهر الخارجي لهذا القانون القصد منه ردع كل أفعال (العنصرية) و(معاداة السامية) و(كراهية الأجانب) ، لكن الموضوعة الخفية لهذا النص هي أنه لا وجود لجريمة ضد الإنسانية إلا إذا كانت تمس اليهود! والمادة الأولى تنص على منع جميع أشكال التمييز العنصري المبنية على الانتماء أو عدم الانتماء إلى جماعة أثنية أمة أو جنس أو دين ، لكن لا توجد جماعة رفعت دعاوى قضائية باستثناء اليهود ، وكأن القانون شرّع في صالحهم فقط ، وأنهم الجماعة الأثنية والأمة والجنس والدين الوحيد الموجود على الأرض!

إذن نحن في مواجهة قانون ينشئ حقيقة رسمية ويجمّد التاريخ ، فهل هذا القانون جدير بالنظام الديمقراطي؟

إن الأحزاب السياسية ، وخصوصاً اليمينية ، التي عارضت التصويت ضد هذا القانون عندما كانت في المعارضة ، لم تشأ المساس به عندما أصبحت في السلطة لاعتبارات سياسية .

إن القانون يقف ضد من يطلق عليهم في فرنسا الـ Revisionniste أي الداعين إلى إعادة كتابة التاريخ اليهودي ، وNegasionistes أي الذين ينكرون وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية ، وبذلك يصبح القانون ضد إعادة كتابة التاريخ ، لكن كتابة التاريخ اليهودي فقط ، فلم نسمع بأحد قدم إلى المحاكمة الفرنسية بحجة إعادة كتابة تاريخ الهنود الحمر أو السلاف أو الأرمن! إن قانون أول تموز/ يوليو من عام ١٩٧٢ كان ينص على معاقبة التمييز العنصري ، إلا أن قانون غيسو منح بعض المنظمات اليهودية ، وعلى الخصوص المنظمة الشهيرة «ليكرا» ، الحق في تعيين ما هو ضد السامية وما هو معها ، وأصبحت هي الوحيدة التي تلاحق على خرق القانون المتصل بالتمييز العرقي .

والحالة هذه ، يصبح القضاة أداة لتسجيل ما يُتلى عليهم . وقد زاد قانون غيسو من الصلاحيات الممنوحة للجمعيات والروابط اليهودية ، وذات التوجهات الصهيونية ، بحيث تصبح فريق ادعاء وترفع القضايا على أي شخص أو مجموعة وتلوح له بعصا العقاب الصارم! إذن إن «ردع كل أفعال العنصرية ومعاداة السامية وكراهية الأجانب» باعتباره قانوناً يصبح سلاحاً ذا حدّين ، عندما تقرر المنظمات والجمعيات والروابط اليهودية صفة الجنحة .

إن كبار الحقوقيين الفرنسيين كتبوا ضد هذا القانون ، وأكدوا أنه شرع بشكل خاص جداً ، ولهدف معين ، بتقييد الحريات الأساسية ، وعلى الخصوص حرية الرأي والتعبير .

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو :

ألا يخلق هذا القانون حالة فصام خطيرة في بلد فولتير وديكارت؟!

وقائع محاكمة روجيه غارودي

في أربع جلسات ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، يناير/ كانون الثاني
قصر العدالة/ باريس

الجلسة الأولى ٨ يناير/ كانون الثاني

- المحكمة الجزائية/ الغرفة ١٧
- القاضي : جان- إيف مونفورا

* القاضي :

قضية المحكمة الحالية تناقش الدعوى القضائية المرفوعة ضد بيير غيوم ، ناشر ، وروجيه غارودي ، مؤلف كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ، هذا هو فريق المدعى عليه ، أما فريق الادعاء فيتألف من عدد من الروابط والجمعيات مثل رابطة- ليكرا- «الرابطة العالمية لمكافحة العنصرية ومن أجل صداقة الشعوب» و«رابطة Macabi inter» أي «رابطة الرياضة والثقافة» ، وجمعية «محامون بلا حدود» ، و«رابطة المنفيين والمبعدين» .

وقد وجّهت اتهامات ضد كل من الناشر بيير غيوم والكاتب روجيه غارودي ، منها «الاحتجاج على جرائم مقترفة ضد الإنسانية والقدح والقذف ذي الطبيعة العنصرية ، والاستفزاز والتحريض على الكراهية والعنف ضد مجموعة من الأشخاص بسبب جنسهم وعرقهم أو دينهم . ويقف بجانب المتهم غارودي مجموعة من الشهود أمثال الأب ميشيل ليلونغ ، والراهب بارمنتيير ، والسينمائي رينيه فوتييه ، والفلسطيني طاهر شكري . ويحاكم السيدان روجيه غارودي وبيير غيوم حسب قانون- غيسو- المادة ٢٤ Bis إذ تمنع بموجبه منعاً باتاً جميع أشكال التمييز العنصري ، المبنية على الانتماء أو عدم الانتماء إلى جماعة أثنية ، أمة أو جنس أو دين ، وأن الدولة الفرنسية تضمن احترام هذا المبدأ ضمن القوانين المعمول بها» . وتنص المادة ٢٤ Bis على معاقبة كل من يحتج ، عن طريق إحدى الوسائل المذكورة في المادة ٣٢ ، على وجود جريمة أو عدة جرائم مقترفة ضد الإنسانية ، كما تحددها المادة ٦ من وضعية المحكمة العسكرية الدولية الملحقة باتفاقية لندن ٨ آب/ أغسطس عام ١٩٥٤ . وحسب هذا القانون ، يعاقب هذا الشخص أو أولئك الأشخاص بالسجن عاماً كاملاً

وبدفع غرامة قدرها ٣٠٠ ألف فرنك ، ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن هذه المحكمة تضمن الحقوق وليس لها علاقة بالحكم على التاريخ ، لأنه ليس دور المحكمة إصدار القرارات التاريخية .

* محامو دفاع غارودي :

إنني أعترض على الوضعية القانونية لجمعية «محامون بلا حدود» إذ إنها لا تتمتع بالشرعية ، وهي ليست رسمية ، فكيف لها إذن أن ترفع الدعوى القضائية ضد غارودي .

* بيير غيوم :

لقد أدانتني المحاكم الفرنسية أربع مرات . . ودفعت غرامة قدرها ٥٠ ألف فرنك لأنني نشرت ووزّعت كتباً يقال إنها معادية للسامية ، وتحتج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، إنني لا أعمل حالياً ، أي أنني رب عائلة .

* روجيه غارودي :

إنني أستاذ جامعي متقاعد ، وكاتب ألفت ٤٥ كتاباً ، وترجمت كتبي إلى ٢٩ لغة ، وقدّمت عني ٢٢ أطروحة جامعية ، وقد قاومت النازية أثناء الاحتلال ، ونفيت طيلة ٣٣ شهراً في الجزائر ، وكنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، لكنني فُصلت من الحزب في عام ١٩٧٠ لأنني قلت إن الاتحاد السوفييتي ليس بلداً اشتراكياً ، كما عملت ٤١ عاماً كنائب في الجمعية الوطنية (البرلمان) ، ومن ثم اعتنقت الإسلام .

* القاضي :

ثمة اتهامات عديدة موجّهة ضدك منها معاداة السامية ، الاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، إنكار وجود غرف الغاز ، التشكيك بقرارات محكمة نورمبرغ والتهجم على المحرقة «الشواه» ، وهناك خمسة ملفات مرفوعة ضدك ، ذات أصول مختلفة ، إلاّ أنها تتركز على فقرات ومقتطفات وآراء جاءت في كتابك المعنون «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» .

* محامي دفاع غارودي :

نحن نعترض على شرعية «جمعية الرياضة والثقافة» ، ولا نعترف بأحقيتها برفع هذه الدعوى القضائية ، إذ لا يحق لها أن ترفع قضيتها لأن وضعيتها القانونية لا تسمح بذلك ، فهي غير رسمية أو مجازة قانوناً .

* محامي فريق الادعاء :

إن «جمعية الرياضة والثقافة» تهدف إلى الدفاع عن الثقافة اليهودية وتكافح ضد معاداة السامية ، كما تدافع بالدرجة الأولى عن ثقافة الأقلية ، أسسها رياضي تونسي مات في عمر الثلاثين عاماً .

* جاك فيرجيس :

اعتدنا أن يأتي المحامون هنا للدفاع وليس للهجوم .

* بيير غيوم :

لم أعد أتحمّل كل هذه الاتهامات المجحفة بحقي بعد أن دمرت القوانين حياتي ومهنتي كناشر .

* محامي دفاع :

قانون- غيسو- قانون مجحف . جئنا هنا للدفاع عن كاتب ، وثمة جمعيات لا تلتزم بالقوانين مثل رابطة - ليكرا - ، ومن لا يحمل الوثائق الكاملة لا يحق له التقدّم إلى المحكمة . كما لا توجد صيغة تفيد بتقديم الوثائق القانونية فيما بعد . هذه محاكمة سريالية/مادة ٢٤ Bis الملحقة بقانون ١٩٨٢ ، التمييز العنصري/حرية الصحافة/ حرية الرأي/ محكمة نورمبرغ/ كل ذلك في نظري إساءة إلى روح القانون نفسه ، إنني أطالب بالعدالة وأشعر بالقلق من تطبيق هذا القانون . إننا قانونيون ، ونص هذا القانون بمادته الجديدة يشكّل وضعاً استثنائياً . . مئات الآلاف قُتلوا في هيروشيما ، وإنني حرّ لأقول ما أشاء حولها أو حول عدد الضحايا . هل من الطبيعي أن نتعامل مع قانون غيسو بهذه الطريقة الحرفية والنصية؟

وهل يتفق قانون- غيسو- مع مبدأ حقوق الإنسان والاتفاقيات الأوروبية وحرية الرأي؟ هذا قانون استثنائي تقرر في ظروف معينة ولا يمكن تعميمه في كل الأوقات . ينبغي علينا النظر إلى قضية غارودي نظرة عميقة وخاصة . وفي الوقت الذي لم يكن النظر إلى الإنجيل نظرة علمية ، ناضل فوليتر من أجل حرية التعبير ، حتى لو اضطر إلى تغيير عنوان كتابه من أجل تجنب التعرّض للمحاكمة . لنا الحق في التعبير عن آرائنا .

* محامي فريق الادعاء :

إننا في ميدان الكتابة وليس في ميدان البحث العلمي ، جرى الحديث عن قانون- غيسو- والمادة ٢٤ Bis منه وكونه منافياً للاتفاقيات الأوروبية ، إلا أن ثمة

قوانين مشابهة في كل من بلجيكا وسويسرا ، وقد حُكم على موزّع كتاب غارودي «الأساطير . .» بغرامة مالية . لقد أنكر جان ماري لوبين ، رئيس حزب الجبهة الوطنية ، اليميني المتطرف ، هو الآخر وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية . أعتقد أن قانون – غيسو – ومادته ٢٤ Bis ، قانون عادل وحقيقي ومضاد للعنصرية ومعاداة السامية . إنه نص جيد ومكتوب بشكل جيد يطبق على الذين يخرجون عن نطاق احترام حقوق الإنسان . ولا يعني أي شيء أن يقف ضده بعض النواب أمثال جاك توبون ، وزير العدل السابق .

* ممثل فريق الادعاء الآخر :

ثمة مَنْ يقول كيف لنا أن نرتدي ثوب المحامين ، لكني أقول له إنني أدافع عن اليهود الذين تعرّضوا للإبادة في معسكرات الاعتقال النازية ، والمشكلة الجوهرية هي إنكار هذه المعاناة الإنسانية في التاريخ .

* جاك فيرجيس :

ثمة مَنْ يقول إن البلجيكيين أو السويسريين قرروا قوانين مشابهة للقانون الفرنسي في هذا المجال. ولماذا لا نأتي بمثال ألمانيا؟! هذا خروج عن موضوع المحاكمة . ولماذا لا نصدر فتوى بهذا الصدد؟ إنني أقول إن قانون- غيسو- لا يحمي الجميع بل يحمي بعض الأشخاص فقط ، إنني أتساءل : هل ماتزال في فرنسا حرية التعبير أم أنها اختفت؟ التاريخ تغيّر . وثمة رجال أُدينوا بسبب التسمّم ، ثم اكتشف الخبراء فيما بعد بأنهم ليسوا مذنبين! قانون- غيسو- يشكّل اعتداءً ضد فرنسا . . وأغلب رجال السياسة انتقدوا هذا القانون .

* القاضي :

هل يمكن أن تتحدّث إلينا كيف تمّت طباعة كتاب غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» . . وهل يمكن أن تقول لنا مَنْ أنت يا سيد بيير غيوم؟

* بيير غيوم :

اضطررت إلى إيقاف دار النشر التابعة لي في عام ١٩٩٣ بسبب الاعتداءات التي تعرّضت إليها ، على الرغم من أن شركة التوزيع الوطنية NN AP هي التي تقوم بتوزيع الكتب التي أنشرها . وقد فرضت الرقابة على هذه الكتب بحجة أنها ضد قانون- غيسو- ولا تستحق حتى الحوار . على الرغم من أنني نشرت كتباً عديدة لماركس وروزا لوكمسبورغ . وقد بدأت عملي كناشر في عام ١٩٦٥ . وقد نشرت

كتاب غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» في العدد الثاني من المجلة الفصلية التي أديرها ، وهي «حوليات التاريخ» ، وقد نشرت أيضاً وثائق الحركة العمالية اليسارية . إنني ضحية لسوء الفهم ، وقد استمرت المكتبة التي أنشأتها La Vieile Taupe من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٢ . وقد نشرت كتباً عديدة أخرى معروفة ، وهي لإسرائيل شاحاك وألبرتو دي أنزول وبول راسيتيه . وقد اتهمت اتهامات عديدة منها اتهامي بأني Revisionniste أي أدعو إلى إعادة كتابة التاريخ اليهودي وتقييمه ، بينما أجد أن العمل الطبيعي للمؤرّخ أن يقوم بإعادة كتابة التاريخ على الدوام ، لا بد إذن من تطبيق النقد التاريخي ، خصوصاً على المؤرخين ، وهكذا سيبدأ عمل التاريخ الآن . ولابد من التعبير عن التناقضات الإنسانية التي حصلت في التاريخ . وبإمكان اللاعبين أن يشهدوا . المؤرخون الذين يساومون لا كرامة لهم ولا يصبح التاريخ تاريخاً إلا عندما يعبّر الجميع عن آرائه . أما تهمة Negationnisme أي «إنكار وجود غرف الغاز» فهي كلمة مبتدعة لا معنى لها . مَنْ ينكر ماذا؟ ينبغي إما أن ننتهي مع هذا السلوك أو إنهائي شخصياً؟!

* القاضي :

أنت ناشر الطبعة الأولى من كتاب غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» . . يعني أنت المتهم الأول في هذه القضية . تريد المحكمة أن تعرف آراءك؟

* بيير غيوم :

إنني أرفض التعبير عن آرائي في هذه المحكمة ، لكنني مستعد على الرد على ما هو مكتوب .

* كيف التقيت روجيه غارودي؟ وهل تعرفه منذ مدة طويلة؟

* تعرفت على روجيه غارودي في عام ١٩٧٥ ، وقد أخذ مني بعض الوثائق التي تخص مسألة إعادة كتابة التاريخ . وفيما بعد تواصلت علاقتنا عندما ألّف كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ، ضمن سلسلة الكتب الموثّقة للمشتركين بطبعة خاصة .

* القاضي :

* كم هو عدد القراء الذين وجّه إليهم الكتاب؟

* بيير غيوم :

لا أكثر من ٣٥٠ قارئاً ، ولكن عدد المشتركين ازداد إلى ٢٠٠٠ قارئ . وقد وافقت المكتبة الوطنية على قبول ترقيم الإيداع القانوني لمجلتي ، إلاّ أنه منذ العدد الثاني ، أي منذ أن نشرت كتاب غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» رفضت الإيداع القانوني لها .

* القاضي :

لماذا بقيت كتبك سرية حتى عام ١٩٩٥ ، أي تاريخ نشرك كتاب غارودي؟

* بيير غيوم :

عندما قابلت غارودي كنت في وضع كارثي ، لكن نصه «الأساطير . .» كان يستحق النشر وطرح النقاش والجدل ، لكن البعض اعتبر فصلين منه ضد القانون .

* القاضي :

* هل أنت على وعي بالإدانة؟

* بيير غيوم :

كلا . . لديّ تجربة في تطبيق قانون- غيسو- وأنه يطبق بشكل عشوائي ، وبموجب هذا القانون يمكن إدانتنا بأي نوع من الإدانة . إنني أحتج ضد هذا القانون . وأعتقد أن الهدف من رسم هذا القانون هو منع التفكير وخنق حرية الفكر . ينبغي تحديد الجانب الآخر من الجريمة التي اقترفت لكي نحاكم عليها . .

* القاضي :

لو كان الكتاب يخص المشتركين فقط ، لماذا أخذ هذا الشكل في التوزيع؟

* بيير غيوم :

كان البعض يشترك بأسماء مستعارة ، وهناك روابط وجمعيات يهودية تراقبني مثلما تراقب أعمالي ومنشوراتي .

* القاضي :

هل تشارك آراء غارودي في عمق الموضوع وجوهره؟

* بيير غيوم :

نعم أشارك غارودي بكل آرائه ، وكنت على معرفة جيدة بكل تفاصيل كتاب «الأساطير . .» حتى إنني طبعت بعض فصوله بنفسي على الكمبيوتر ، المشكلة أنهم ، أحياناً ، يأخذون فقرة ويطبقون عليها قانون- غيسو- كيفما اتفق .

* القاضي :

السيد غارودي : هل يمكن أن تعرّفنا بنفسك من أنت؟ غارودي . . ! الفيلسوف الماركسي الذي اعتنق الإسلام ودعا إلى إقامة الحوار المسيحي- الإسلامي . . ما هي حياتك وكيف تحدّد نفسك؟

* غارودي :

أقول إنني مازلت مخلصاً لأحلامي عندما كنت في العشرين من عمري ، وأنا الآن في عمر الـ ٨٤ عاماً . يخيّل إلي أنني أحاكم على كتاب لم أؤلفه ، ذلك لأن كتابي يعالج الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية دون أن أتعرّض إلى الديانة اليهودية . هناك اتهامات عديدة تلصق بي ، منها معاداة السامية ، بينما تنتمي الديانتان اليهودية والإسلامية إلى السامية ، وإننا نشترك بعبادة الله الواحد ونتقاسم (إبراهيم) سلفنا المشترك . إلا أن قانون - غيسو - الذي أُحاكم بموجبه حالياً ما هو إلا قانون (توتاليتاري) وتعسفي . وهناك فلاسفة يهود كتبوا عن الصهيونية دون أن يتعرّضوا للمحاكمة ، مثل مؤلف كتاب «انحطاط اليهودية» على سبيل المثال . والمشكلة الأساسية تكمن في القراءة ، أي قراءة كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ، وفي عهد- فيشي- في فرنسا نُفيت إلى معسكر في الصحراء في الجزائر ، والجرائم لم تقترف في ألمانيا فقط بل في أماكن عديدة .

إن اليهودية دين أحترمه ، أما الصهيونية فهي أيديولوجية أحاربها . كما أنني أرفض إلصاق تهمة معاداة السامية بي ، لأنني أحارب بكل قواي الصهيونية التي هي في جوهرها الكولونيالية (الاستعمارية) . كما أنني أُدين كلمات مثل تجارة المحرقة والهولوكست . . الإبادة ، وهي كلمة لاهوتية ثيولوجية تفرّق بين الكلمات . فاليهود يجعلون من أنفسهم ضحايا من خلال التقليل من قيمة وأهمية الجرائم الأخرى المقترفة ضد الإنسانية . إن اللوبي الصهيوني يستخدم مفهوم «تجارة المحرقة» من أجل تبرير الاستعمار الإسرائيلي . وإنني لم أفكر أبداً أن أقيم تجارة على عظام أسلافي وأجدادي . إنني ألّفت كتاباً يتعلّق بالبحث العلمي ولم أقصد توجيه إهانة إلى أحد . وإن الجرائم لم تقترف فقط في ألمانيا بل في المغرب العربي أثناء سيطرة فيشي على الحكم في فرنسا ودعم النازية لهذا الحكم . ولكن لا أحد يذكر ذلك . إنني كتبت أربعة كتب عن التعصب في الأديان الثلاثة ، وعندما كتبت عن الصهيونية ثارت ثائرتهم . ثم أسست مركزاً ثقافياً إسلامياً في قرطبة في إسبانيا ، وحاولت على الدوام التقريب بين الأديان .

* ثم قرأ غارودي مقاطع من رسالة بعثها إليه الأب بيير ، وقال إنه لم يغيّر من آرائه ودعمه له كما روجت عن ذلك الصحافة الرخيصة على حد تعبيره . وأضاف : إن الأب بيير ينتظر ما يجري في هذه المحاكمة ، وإنني سأبعث إليه عن طريق الفاكس تفاصيل محاكمتي ووقائعها ، وأكد أنه استلم رسالة من الأب بيير منذ أسبوعين .

* القاضي :

ثمة اختلافات موجودة بين طبعتي الكتاب ، إذ إنك حذفت منها بعض الأسماء مثل روبير موريسون .

* غارودي :

لم أقصد من ذلك النيل من أحد . كما أنني لم ألبس القفازات عندما كتبت الحقائق ، ولهذا تم إقصائي .

* القاضي :

هل حذفت بعض الأسماء من الطبعة الثانية لكي يكون كتابك أكثر تقبلاً عند الجمهور؟

* غارودي :

كتابي «الأساطير . .» ترجم إلى ٢٩ لغة ، آخرها كانت اللغة الرومانية ، وكتبت عني ٢٢ أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، كما ألفت ٤٥ كتاباً ، وحتى المترجم الياباني لكتابي جاء من طوكيو لحضور محاكمتي وهو الآن في القاعة .

* القاضي :

لكن أفكارك تغيرت بـ ٩٠ درجة ، كيف تفسّر ذلك؟

* غارودي :

عندما مُنحت جائزة الملك فيصل قلت إنني دخلت الإسلام حاملاً بيدي الإنجيل وباليد الأخرى كتاب «رأس المال» لماركس . . وإنني أؤمن بالأديان التوحيدية الثلاثة ، فما معنى التحول في آرائي؟

* القاضي :

ألا تعتقد أن التسلح بالعداء للصهيونية يخفي وراءه العداء للسامية؟

* غارودي :

إن النضال ضد السياسة الصهيونية لدولة إسرائيل ، التي هي الغذاء الوحيد للموقف العدائي ضد السامية ، يؤلّف جزءاً من نضالي ضد اللاسامية . لقد قلت

وأكرر هنا : اليهودية دين أحترمه ، لكن الصهيونية أيديولوجيا أحاربها .

* القاضي :

أنت تشكّل أحد عناصر اتجاه دعاة إعادة كتابة التاريخ الناكرين لمحرقة اليهود .

* غارودي : إعادة كتابة التاريخ ضرورة من ضرورات التاريخ لكي ندفع النقاش إلى الأمام ، أما إنكار غرف الغاز فمصطلح لا وجود له في القاموس .

* محامي فريق الادعاء :

إن أهم ما في الكتاب هو «اللهجة الاستفزازية» التي ألّف بها غارودي كتابه . . إضافة إلى تضمينه «الحقد العنصري» على اليهود .

* شهود غارودي :

طاهر شكري/ فلسطيني ، سويسري الجنسية ، مدير شركة :

إنني أعرف السيد غارودي من خلال كتبه ومؤلفاته . إذا كان هذا الرجل العظيم المفكر لا يستطيع أن يقول ما يفكر فيه ويتلقى كل هذه التهم في المحكمة ، فإن هذا يعني أن محاكم التفتيش قد عادت من جديد . إنني كفلسطيني طُردت وسرقت أرضي ووطني ودُمرت بحجة أن اليهود تعرّضوا للمحرقة من النازي ، وقد استمر ذلك طيلة خمسين عاماً . ورغم ذلك لم نكن نحن ، كفلسطينيين ، مسؤولين بأي شكل من الأشكال عن مذابح اليهود .

الجلسة الثانية - ٩ يناير / كانون الثاني

في ظهيرة يوم ٩ يناير/ كانون الثاني افتتحت الجلسة الثانية من محاكمة المفكر الفرنسي روجيه غارودي ، حيث رفع فريق الادعاء ملفات أخرى ضد المفكر وناشر الكتاب . وقد اكتظت القاعة ١٧ من المحكمة الجزائية في الطابق الأول من قصر العدالة كاليوم الأول . وقد أعلن القاضي أن المحكمة استلمت مئات الرسائل من الجمهور المساند لغارودي ومواقفه الفكرية ، وعرضها على فريق الادعاء لغرض الاطلاع عليها .

وتضمنت الجلسة الثانية ملفات إضافية ضد غارودي ، ورأى القاضي ضرورة تقديم الشهود الثلاثة ، واحد من فريق الادعاء واثنين من فريق المدعى عليه ، على شهادة غارودي وبيير غيوم ناشر الكتاب . وقد احتج أحد المحامين التابعين لفريق الادعاء على إذاعة أخبار «مشوهة» عن المحاكمة ضد اليهود في إحدى الإذاعات الفرنسية المحلية التابعة لليمين المتطرف!

إلا أن محامي المدعى عليه أشار بوضوح إلى الوضعية اللاقانونية التي تتصف بها بعض الجمعيات والمنظمات اليهودية . وقال إنه لا أحد يمنع من كتابة الدعم لأي طرف . وقال المحامي الشهير جاك فيرجيس إن فريق الادعاء هو الذي أثار القضية ولا يحتكم إلى القوانين والتشريعات . وقد أوضح فيرجيس ذلك بسبب محاولة تبرير عدم حضور أحد الشهود من فريق الادعاء ومحاولة تأجيل المحكمة . وقال ساخراً : لننتظر أن يأتي هذا الشاهد من سنغافورة ولم يعثر على طائرة للمجيء! وأضاف : لا أرى في توسيع هذه القضية أي سبب ، خاصة أن المحاكمة تتعامل مع كتاب وليس مع شيء آخر .

بينما أجاب فريق الادعاء : إن المسألة تخص (التشكيك في جرائم ضد الإنسانية) و(الحقد العنصري) ، ومن ثم قررت المحكمة أنه لا حاجة إلى إحضار هذا الشاهد ، واكتفت بإفادات شاهد واحد ، وهو ينتمي إلى فريق الادعاء ، واسمه جاك تارديروم ، قدّم نفسه على أنه باحث في «المركز الوطني للدراسات والأبحاث» ، وهو من أصل يهودي . وأكد هذا الباحث أمام المحكمة أن غارودي استخدم صفة (الصهيونية) كقناع كما يستخدمها عدد آخر من الباحثين . إنها قناع لكلمة يهودي ، إنها «معاداة السامية الحديثة» . ولا يعني ذلك إدانة النظام السياسي لإسرائيل ، بل

تستخدم كخطاب لمعاداة السامية المعاصرة . وأضاف : إننا لسنا بصدد مناقشة الصراع في الشرق الأوسط ، بقدر ما نحن نناقش كيف يحاول هذا الخطاب تشويه الصهيونية التي هي الحركة التي حررّت اليهود! وساعدت على هجرة اليهود إلى إسرائيل . إن غارودي يشكك في شرعية دولة إسرائيل . . وهذه الحركة التي أسست إسرائيل . إن غارودي يستخدم ويشكّك في قضية إبادة اليهود الجماعية ، وهذا جزء من خطاب غارودي . وهو ، بمعنى من المعاني ، يهاجم الأسس التي قامت عليها إسرائيل ، وأضاف : لا أفهم كيف يتحالف اليمين المتطرف واليسار المتطرف والإسلاميون ضد اليهود . إن غارودي لا ينقد السياسة الإسرائيلية ، بل ينقد حق إسرائيل في الوجود . إنها اللغة المقنّعة . ومعاداة الصهيونية تعني معاداة اليهودية في منطق غارودي .

* القاضي :

إن وجود دولة لا تفرق بين العلمانية والدين شيء مثير للدهشة . كم من الإسرائيليين يتردّدون على المعابد؟ إنهم يعيشون في الأرض الموعودة ، هناك خلط بين الدين والسياسة . وهذا ما لا نفهمه في الغرب . . أليس ذلك هو الاستخدام الديني للسياسة؟

* جاك تارديرو من فريق الادعاء :

كل أمة تحاول أن تؤسس نفسها على أساطير معينة ، حتى فرنسا تلتف حول أساطيرها وتاريخها وتراثها . وكذلك الدول العربية ليست منعزلة عن جذورها . صحيح أن ثمة مزجاً بين العلمانية والدين في إسرائيل ، لكنها تعيش حالة طوارئ ، والاعتماد على الأسس اليهودية لا يعني أنها دولة ثيوقراطية! ثمة قوانين تستوحى من التوراة ، حتى إن ملكة بريطانية تمثّل الكنيسة . لماذا نرى التناقض في إسرائيل فقط؟ خطاب غارودي استفزازي وعدواني ضد إسرائيل . ويدعي غارودي أنه يحترم الدين اليهودي ، لكنه على العكس يقدّم قراءة غير تاريخية للتوراة .

وطلب القاضي من تارديرو أن يفسر ما تخفيه المصطلحات ، فأجابه : إن أطروحات غارودي وغيوم تثير إشكاليات أخرى ، مثل أن غرف الغاز لا وجود لها في المعسكرات النازية . الإبادة ليست موجودة في نظر غارودي . وذلك يعني أن اليهود خلقوا تاريخهم المزيّف ، أي أنهم محتالون ونصابون في التاريخ . هل خلقوا موتهم الخاص للحصول على ذهبهم من الألمان؟

* القاضي :

غارودي تعرّض لجميع أصناف التعصب في الديانات جميعها ولم يحتج عليه سوى اليهود!

* تارديرو :

غارودي يتصور الديانة اليهودية حالة استثنائية خارجة على جميع القوانين . إنني قمت بإدانة غولدنشتاين عندما قتل المصلّين المسلمين في الحرم الإبراهيمي . كما كتبت في صحيفة (اللوموند) عن كارلوس وبابون . لا أعتقد أنني أدافع بشكل غير مشروط عن السياسة الإسرائيلية . التهجم ضد إسرائيل يبدو لي غريباً . اليهود الضحايا هم عبارة عن رمز . وكما هو حال الإبادة في كل من رواندا وكمبوديا وأرمينيا . . لماذا لا تؤخذ قضية إبادة اليهود بالأهمية نفسها؟

* القاضي :

ألا تعتقد أن «إنكار وجود غرف الغاز» مصحوب بحالة نفسية؟

* تارديرو :

هل يمكن القول إن اليهود أنفسهم هم الذين خلقوا الإبادة ، لكن التاريخ والمؤرخين والوثائق أكدت ذلك ، وأثبتته الحقائق التاريخية .

(تدخل أحد المحامين من فريق الادعاء قائلاً : «في كتاب غارودي هجوم عنيف ضد اليهود من خلال نقد الصهيونية ، وهو يتحدّث عن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة . ويشير إلى أن كل يهودي مرتبط بإسرائيل ، وأن ٩٠ بالمئة من يهود أمريكا مرتبطون بالصهيونية) .

* تارديرو :

كل يهودي بالنسبة لغارودي هو صهيوني . هذا قناع .

* القاضي :

غارودي يعني أن الصهيونية عبارة عن قانون كولونيالي .

* تارديرو :

جذور الصهيونية أوروبية قبل كل شيء ، تكونت في الدياسبورا . لم يكن الشعب الفلسطيني موجوداً ، بل كان هناك شعب ضمن الإمبراطورية العثمانية ، الولايات المتحدة والأرجنتين والبرازيل استعمرت أراضي أيضاً . لماذا يعيبون على إسرائيل احتلال أرض كانت تعود إليهم تاريخياً؟ إننا ندين فرنسا أو الولايات المتحدة في حروبهما في أفريقيا وفيتنام ، ولكن لا ندعو إلى تحطيم هذين البلدين وتدميرهما .

غارودي وغيوم يشككان في شرعية الحركة الصهيونية التي أسست إسرائيل . غارودي يتحدث عن اللوبي/ الأقلية ، الذي يحرّك الخيوط بسرية . هذا خطاب ينتمي إلى فيشي . وكذلك جان ماري لوبين ، اليميني المتطرف ، يردّد الأطروحات ذاتها . . خصوصاً عن وجود مؤامرة يهودية لتدمير العالم بأكمله .

* القاضي : عندما نقول هناك (لوبي بريتون) أو (لوبي أو فيرنين) (نسبة إلى النشطاء من الفرنسيين في الأعمال في هاتين المنطقتين) لا يعترض أحد . . لماذا يحتج اليهود على تسمية اللوبي الصهيوني؟

* تارديرو :

ولكن أهالي بريتون أو فيرنين لم يكونوا ضحية قانون معين أو إبادة . وهذا النعت (اللوبي) يؤدي إلى معانٍ أخرى .

* القاضي :

أنت تعترض إذن على استخدام النعت؟

* تارديرو :

غارودي ظلّ على نغمته الاستفزازية ، وهو يتحول إلى الفكر الأحادي الجانب . وهو راديكالي ، بل متطرف في الراديكالية ، وقد تقلب بين الماركسية والمسيحية والإسلام ، وقد رفض بعض المفكرين العرب حضور ندوة أقامها غارودي في القاهرة وبيروت . أعتقد أن العالم العربي يستحق أكثر من ذلك . وغارودي لا يقع ضمن منطق التصالح والوفاق والسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين .

ونهض المحامي الشهير جاك فيرجيس صارخاً :

إنني أوجّه لك سؤالاً : هل يحق للمسلمين أن يدفنوا موتاهم في مقبرة يهودية؟

* أجاب شاهد فريق الادعاء :

لا أعتقد!

* فيرجيس :

- في فرنسا يدفن المسلمون موتاهم في مقابر المسيحيين .

* تارديرو :

- ولكن ثمة ديمقراطية في إسرائيل .

* فيرجيس :

- هل يمثّل اليهود إسرائيل في الخارج؟

* تارديرو :

- إنني لا أتفق مع ذلك .

* فيرجيس :

- أليس قتل الهنود الحمر في أمريكا إبادة؟

(ثم استدعى القاضي شاهدين من فريق المدعى عليه غارودي ، وهما الراهب بارمنتيير والسينمائي دينيه فوتييه . وبدأ الراهب بارمنتيير قائلاً : لا يمكنني إخفاء إعجابي بغارودي) .

* وسأله المحامي فيرجيس عن قراءته لكتاب غارودي وأسباب إثارته لكل هذه الضجة .

* فأجاب الراهب بامرنتيير : تعرفت على غارودي عندما كنا معاً في رابطة مسيحية في مرسيليا أثناء دراستنا على مقاعد المدرسة . وعائلتي أنقذت فتاة يهودية ، وقد رأيته في مؤتمر شيوعي يجري حواراً بين المسيحية والماركسية . وقال حينها إن للمسيحية إيجابيات وسلبيات ، ومن العجيب ، وصلت جرأة غارودي إلى أنه مدح المسيحية في جو لا يسمح له بذلك ، ومنه استوحيت نضالي ضد الاستعمار ، وقد قدمت خدمات لليهود الجزائريين أثناء الحرب العالمية الثانية ، يجب مساعدة الناس المهدّدين .

* القاضي :

- هل قرأت كتاب غارودي «الأساطير . . .؟»

* الراهب بارمنتيير :

أجل قرأته ، لكنني وجدت فيه بعض الصفحات الزائدة عن اللزوم ، ولكن موضوع الكتاب الجوهري هو السياسة الإسرائيلية ، واندهشت لقضية العداء لكل من غارودي والأب بيير ، وهل يعقل أن نضع غارودي والأب بيير إلى جانب النازيين لأنهما رفضا وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية أثناء الحرب العالمية الثانية ، كل فرد له الحق في فحص وإعادة تقييم التاريخ بشكل علمي ، وهذا مبدأ ديمقراطي لا بد من السير عليه وتطبيقه .

* القاضي :

- ماذا عن «إبادة اليهود»؟

* الراهب بارمنتيير :

السياسة الإسرائيلية استغلت أحداث عام ١٩٣٩-١٩٤٥ لصالحها ، ولم يكن ذلك ضرورياً ليناقشه غارودي في كتابه ، إلاّ أن له الحق في طرح الأسئلة التي يشاءها ، ومسألة negationnisme أي نفي وجود غرف الغاز ، موضوع قابل للدراسة العلمية .

* القاضي :

ولكن قانون غيسو يمنع مناقشة ذلك في فرنسا .

* الراهب بارمنتيير :

- هذه فضيحة تعقّد حياة المؤرخين والباحثين العلميين ، وهذا يقف ضد الحرية التي نمتلكها في فرنسا .

* القاضي :

- العنصرية والإجهار بها لا علاقة لهما بحرية الرأي . إن نفي وجود غرف الغاز يُعدّ نوعاً من العنصرية .

* الراهب بارمنتيير :

- لا أعتقد أن أحداً في القاعة يشك في أن غارودي عنصري .

* فيرجيس :

- عندما نقول لم تكن محرقة الأرمنيين موجودة لا أحد يعترض ، وحتى إن غيسو نفسه لا يعترض . .

* الراهب بارمنتيير :

- أنت قلت الجواب بنفسك .

* محام من فريق الادعاء :

- إذن ملاّحقة اليهود لم تكن أسطورة ، وأن عائلتك أنقذت فتاة يهودية .

* الراهب بارمنتيير :

يمكن استخدام الأسطورة بأشكال مختلفة . اليهود هم الذين كتبوا تاريخ اليهود عندما كانوا إمبراطورية ، وهذا شيء لا يمكن أن يقبل الآن ؛ استخدام اليهود الأساطير والقصص لتبرير سياسة معينة .

* محام من فريق الادعاء :

- إن أسطورة إبادة الستة ملايين أصبحت عقيدة بيد إسرائيل لتبرير كل ممارساتها في فلسطين . . ما هو رأيك بهذه الفقرة؟

* القاضي :
- الشاهد ليس متهماً .
* الراهب بارمنتيير :
- إنني جئت باليهود من ستراسبورغ إلى باريس أثناء الحرب العالمية الثانية .
* القاضي :
- الحزب الشيوعي ضحى بالكثير وقدّم التضحيات أثناء صعود الفاشية . إنهم يتحدّثون عن ضحاياهم . . هل ثمة تماثل بين الضحايا الشيوعيين وضحايا اليهود؟
* الراهب بارمنتيير :
- كان يطلق على الحزب الشيوعي «حزب المعدومين» .
* محام من فريق الادعاء :
- هل تعتّقد أن غرف الغاز غير موجودة؟
* بارمنتيير :
- لا أعتقد ، لكنها دعوة لإعادة تقييم التاريخ اليهودي لا أكثر ولا أقل .
* جمعية محامون بلا حدود :
- ألا ترون أن الحديث عن هيمنة اليهود على الإعلام يتفق تماماً مع النغمة ذاتها التي كانت شائعة أثناء صعود الفاشية؟
* الراهب بارمنتيير :
- إنها اتهامات غير عادلة ضد السيد غارودي . كما قال الجنرال ديغول لا يمكن أن أكون دكتاتورياً في عمر الـ ٦٨ ، كذلك لا أعتقد أن غارودي بإمكانه أن يصبح عنصرياً في عمر الـ ٨٤ .

وبعد ذلك تحدث غوتييه رينيه عن قانون غيسو عندما سأله المحامي الشهير جاك فيرجيس عن رأيه فيه . قال إنه تعرف على غارودي عندما صور حادثة فصل غارودي من الحزب الشيوعي الفرنسي . وأضاف : حاولت أن أفهم مَنْ هو هذا الرجل . قرأت ١٦ كتاباً لغارودي حول الإسلام والمسيحية والأساطير ، ومهنتي حتّمت عليّ أن أصور عدداً من الذين دخلوا معسكرات الاعتقال .

* القاضي :
- كتاب غارودي يؤكد مسألة نفي وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية . .
* غوتييه رينيه :

- عملت عاماً بأكمله مع غارودي ، وأدركت أن هذا الرجل يفحص كل شيء ، ويضعه موضع التساؤل . . ويحاول الذهاب إلى أبعد ما يمكن في شكوكه ، وقد تمت إدانتي في عمر الواحد والعشرين لتصويري فيلماً عن الاستعمار الفرنسي . . كان قانون الرقابة الفرنسي آنذاك لا يسمح بالتصوير لنا .

* القاضي :

- إلاّ أن قانون غيسو ١٩٩٠ يمنع فكرة نكران وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية .

* غوتييه رينيه :

- كنت شاهداً في إحدى المحاكمات ، وقابلت جزائريين عذبهم جان ماري لوبين ، هذا القانون من شأنه أن يمنع تطوّر التاريخ والمعرفة . علّمني غارودي كيف أشكّك في الأمور ، عملت إضراباً ضد قانون الرقابة .

* القاضي :

- وما هو رأيك في المحرقة؟

* فيرجيس :

- وهل تؤمن بوجود قانون مثل قانون غيسو في بلد ديمقراطي كفرنسا؟

* غوتييه رينيه :

- قانون غيسو رديء وغير مفيد على الإطلاق .

* محام من فريق الادعاء :

- وما هو رأيك في فكرة غارودي عن «الحل النهائي»؟

* غوتييه رينيه :

- لم يكن يطلب منا إلى أي دين ننتمي آنذاك .

* المحامي :

- وما هو رأيك في الصفحات الزائدة في كتاب غارودي؟

* غوتييه رينيه :

- كنت أفضل ألاّ يحتويها الكتاب .

ومن ثم انتقل القاضي إلى غارودي وطلب منه الامتثال أمام المنصة ، وقد طلب كرسياً للجلوس نتيجة آلام الروماتيزم التي تلازمه منذ فترة ، وأكد القاضي أن فريق الادعاء يلاحق مبدئياً الكتاب من عنوانه «الأساطير» ، وكذلك العناوين الفرعية ،

وبدأ يقرأ تعريفات كلمة الأسطورة في قاموس روبير الفرنسي ، واستعرض معانيها للجمهور ، وقد وجِّهت إليه في هذه الجلسة تهم عديدة . . الأولى : التشكيك في جرائم ضد الإنسانية ، والتهمة الثانية : معاداة السامية والعنصرية والتشهير باليهود ، الثالثة : نفي وجود غرف الغاز في المعسكرات النازية ، والرابعة : الدعوة إلى إعادة تقييم كتابة التاريخ اليهودي .

* بدأ غارودي ردّه كالتالي :

– كتابي عبارة عن كتاب سياسي بالدرجة الأولى ، وأريد أن أوضّح فيه أن الصهيونية هي هرطقة وبدعة في الديانة اليهودية ، كما تعبّر عن ذلك العبارة الأولى في الكتاب «الأساطير» . . إذن هذا الكتاب عبارة عن تاريخ هرطقة وبدعة ، والهرطقة والبدعة الصهيونية تعتمدان على استبدال إله إسرائيل بدولة إسرائيل ، وإن هذا الشيء تمّ تطبيقه منذ تأسيس إسرائيل على يد تيدور هيرتزل الذي قال : «إن المسألة اليهودية ليست بالنسبة لي مسألة اجتماعية ولا مسألة دينية بل هي مسألة قومية» .

* القاضي :

– ألا تعتقد أنك استخدمت هذا المصطلح بمعنى الكذب .

* غارودي :

– أجل إنني أنفي (ضخامة الجريمة) ، وهذا حق من حقوق حرية التعبير . إن رقم الملايين الستة الذين أبيدوا ، والذي أعطته السلطات السوفييتية في «محكمة نورمبورغ» مبالغ فيه ، ولهذا قاموا بمهاجمتي . . وأريد أن أوضح هنا أن «محكمة نورمبورغ» ليست محكمة عادية . لقد أنشأها بشكل أساسي المنتصرون ، ورئيسها كان رئيس المحكمة الأمريكية العليا السيد جاكسون ، الذي أوضح أن هذه المحكمة هي آخر فعل حربي للحلفاء . إذن إنها محكمة استثنائية لا يمكن أن تتشكّل ، شأنها شأن المحاكم العادية ، وثانياً تؤكد دساتير هذه المحكمة أنها لا تلتزم بالقواعد الأسلوبية للبراهين ، فالمادة (١٩) أو المادة (٢٠) تنصان على أن جميع التقارير التي يقدّمها الحلفاء ينظر إليها باعتبارها حقائق . على سبيل المثال ، المدعي العام السوفييتي «رودينكو» قدّم تقريراً يقول فيه : إن الألمان قتلوا ١١ ألف ضابط بولوني ، وقد ثبت فيما بعد أن السوفييت أنفسهم قاموا بذلك ، لكن المحكمة سجّلت ذلك لأنه جزء من تشريعها ولا يمكن الاعتراض عليه ، ولأن السوفييت هم أنفسهم الذين حرروا معسكرات «أوشفيتس» ، قالوا أيضاً إن هناك ٤ ملايين قتيل ، وقد تم تسجيل ذلك

أيضاً . ومنذ ذلك الحين أكد جميع المؤرخين الذين اشتغلوا على هذه المسألة أن الأرقام لا تعتمد على أسس علمية جادة . وقد انخفضت تلك الأرقام بشكل متواصل ، إلى اللحظة التي قال فيها «بينا ريدا» مدير مركز البحث العلمي ومدير مركز التاريخ المعاصر ، إن المصادر الوثيقة تحصر عدد الموتى بمليون شخص . وما تنفيه أيضاً هو مصطلح الـ «هولوكست» ، لأن هذه الكلمة لها معنى لاهوتي ، وهي عبارة عن تضحية تقوم بها من أجل الله ، وهنا فإن اليهود يعتبرون «شهداءهم» فوق الجميع . لقد كنا جميعاً مجرد مقاومين ، وهو فعل إنساني ، لكن بالنسبة لهم يجري ذلك ضمن إطار إلهي مثل صلب المسيح عند المسيحيين ، ولكن اليهود يضعون أنفسهم فوق الجميع ، وهذه إرادة الله ، وأنه لا يوجد ضحايا غيرهم ، الأمر الذي سعيت إلى نفيه . إنهم غاضبون لأنني قلت إن (الهولوكست) عبارة عن أسطورة لا تعني ضحاياهم . إنه لشيء أسطوري أن يعلنوا أنها من إرادة الله .

* القاضي :

– إننا لا نحاسبك على أفكارك ، بل على ما جاء في نصوص كتابك «الأساطير . .» إننا نحاسب الكتاب في كليته : الحرب العالمية الثانية/ التعصب/ إثارة الحقد والكراهية / الإرهاب الفكري/ استغلال الدين في السياسة/ أسطورة الأرض الموعودة وغيرها . . كيف تحدّد هذه الأفكار؟

* غارودي :

إن كل بلد مؤسس وقائم على مجموعة من الأساطير ، وهذا شأن الأمة الفرنسية أيضاً . لكن الباحث تارديرو قرأ كتابي خطأً ونسب إليّ الفقرات التي وضعتها في حروف مائلة ، وهي تعود إلى باحثين وكتّاب آخرين . وقد أخطأت حقاً عندما استخدمت مصدراً من كتاب هيرتزل عن النص الألماني ، وكان عليّ أن أستخدم النص الإنجليزي . كان هيرتزل ذكياً في خدمة قضاياه ، وهو لم يطالب سوى بوضع ختم دولي على الخريطة الصهيونية . سياسة هيرتزل لا علاقة لها بالدين اليهودي . والدليل على ذلك أن عدداً من الكهنة اليهود وقفوا ضده . إسرائيل تتكلم باسم (الشعب المختار) وبأصوات المدافع .

* وأضاف غارودي :

– أعتقد أن الاعتراضات التي وجّهت إلى كتابي تتهمني بأنني ألّفت كتاباً في التاريخ يناقش عدد اليهود الذين ماتوا وطريقة موتهم . إنني في الحقيقة لم أبتدع شيئاً

جديداً في هذا الميدان، فقد اقتبست الأرقام من المؤسسات العالمية المختصة، فليس هدفي هو ذلك، بل هو في الجوهر شرح أبعاد خطورة السياسة الإسرائيلية، ليس ما يخص الماضي اليهودي بل استخدام هذا الماضي لرسم سياسة خطيرة وبشعة يقوم بتنفيذها الآن بنيامين نتانياهو.

* القاضي:

– هل يمكن لك أن توجز لنا الأطروحة الأساسية في كتابك، لأننا لا نريد أن نناقش أفكارك بصورة عامة.

* غارودي:

– الأطروحة الأساسية في كتابي هي توضيح كيف تتصرف إسرائيل منذ زمن مؤسسها تيدور هيرتزل، الذي كان يقول إن إسرائيل لا يمكن أن تتطوّر إلاّ من خلال الحضارة الغربية ضد بربرية الشرق.

* القاضي:

– وما هو رأيك في التهمة الموجّهة لك بخصوص «التمييز العنصري» واستخدام مصطلح «التطهير العرقي»؟

* غارودي:

– أقول: هل يوجد تمييز عنصري ظاهري كما هو موجود في الصهيونية، انطلاقاً من الحديث عن «شعب مختار»، فهو يتمتع بحق السرقة وتدمير الآخرين، والأمريكيون أبادوا الهنود الحمر كما يبيد الإسرائيليون الفلسطينيين في الوقت الحاضر.

إن (عنصرية الصهاينة أسوأ من عنصرية هتلر) لأن عنصريته كانت ذات مسحة بيولوجية تخص الجينات، بينما عنصرية الصهاينة لاهوتية. ونأتي على مسألة أخرى، الزواج لا يعترف به في الدولة الإسرائيلية إلاّ إذا كان زواجاً دينياً. هناك تمييز واضح حتى في مسألة الزواج.

* القاضي:

– ذكرت أن هناك اتفاقيات بين منظمات صهيونية وبين النازية على ترحيل اليهود إلى فلسطين أو أية بقعة أخرى؟

* غارودي:

– أولاً إن الصهاينة كانوا يرفضون اندماج اليهود مع الطوائف الأخرى.

* القاضي :

– ما هي الوثائق التي تقدِّمها على عدم صحة محكمة نورمبورغ وتقييماتها؟

* غارودي :

– لا توجد وثيقة تؤيد أن هتلر وقَّع على إبادة اليهود . ريمون آرون أستاذي أكّد ذلك . . وباحثون آخرون . . وقد شرحت ذلك .

* القاضي :

– تتحدّث عن ظاهرة اللوبي الصهيوني ، سواء في فرنسا أو في الولايات المتحدة في كتابك . .

* غارودي :

– ظاهرة اللوبي الصهيوني في فرنسا أو الولايات المتحدة تظهر بشكل ملموس ، ويصرح القادة الإسرائيليون ، على الدوام ، بأن «كل يهودي في فرنسا يمثّل إسرائيل!» والدليل الآخر على وجود اللوبي الصهيوني في فرنسا أن لا أحد يستطيع مراجعة قانون غيسو ، فاللوبي الصهيوني الفرنسي عبارة عن جهاز من أجهزة الدولة الإسرائيلية .

ولا بد من الإشارة إلى أن الجلسة الثانية استمرت إلى ساعة متأخرة من الليل . . يضاف إلى ذلك أن الجمعيات والمنظمات اليهودية ، التي اتخذت جانب فريق الادعاء ، كانت تقوم ببعض الاستفزازات أثناء محاكمة غارودي ، وتقاطع أحاديثه ، مما أثار سخطه ، وأجاب على أحد هؤلاء المحامين قائلاً :

«أنا لا أقيم محلاً تجارياً على حساب عظام أجدادي» .

وذلك في إشارة إلى استغلال اليهود لتاريخهم في تفكيرهم الحالي ، بحيث دفع أحد محاميهم ، أن يقول للقاضي : يجب إدراج هذه السبّة في المحضر لإدانة غارودي ، وظل غارودي على رأيه في عدم الاعتراف بـ «أحواض الحمامات المكهربة» و«أفران المحرقة» و«غرف الغاز» .

وأجّل القاضي المحكمة إلى يوم الخميس المصادف ١٥ يناير/ كانون الثاني .

الجلسة الثالثة - ١٥ يناير / كانون الثاني

في بداية الجلسة الثالثة (١٥ يناير/كانون الثاني) ، افتتحها القاضي بترحيبه بممثلي وفد اتحاد المحامين العرب ، المغربي علي السفياني ، والمصري علي حامد الغتيت ، للدفاع عن المفكر الفرنسي روجيه غارودي . وأعلن القاضي أن بيير غيوم ، ناشر كتاب غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» رفع رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية . وأشار القاضي إلى صعوبة سير هذه المحاكمة وعدم تقدّمها ضمن النقاش المرجو ، إذ إن المحاكمة قامت ليس من أجل محاكمة كتاب «الأساطير . .» بل مقاطع منه احتجّت عليه المنظمات اليهودية ، وهي- ليكرا- «الرابطة العالمية ضد العنصرية واللاسامية» و- مراب - الحركة المعادية للعنصرية ، ومن أجل صداقة الشعوب ، و«رابطة الرياضة والثقافة» ، و«محامون بلا حدود» ، و«رابطة المنفيين والمبعدين» . . وكلها متفقة ضمنياً على جملة التهم المرفوعة ضد غارودي .

ثم أورد محامي رابطة- مراب- فقرة من كتاب «الأساطير . .» تشير إلى Shoah Business أي تجارة المحرقة- وهي تعني بالعبرية الإبادة- بالاعتماد على فيلم لأنزمان الذي موّله مناحيم بيغن وخصص له ٨٥٠ ألف دولار باسم «المصلحة الوطنية» ، واعتبر أن هذه الفقرة تتضمن الكراهية وروح العنصرية إزاء اليهود أو إزاء جماعة معينة حسب قانون غيسو ، وأن غارودي أخفى الحقائق وروّج الأكاذيب حول هذا الفيلم . ونفى أن يكون اليهود تاجروا بشرف ضحايا الهولوكست ، وأن الحديث عن هذا الفيلم بطريقة سيئة إنما يدعو إلى التشهير باليهود .

* روجيه غارودي :

قبل توجيه الاتهام لي ينبغي تعريف الصهيونية وتمييزها عن اليهودية ، لكن البعض يسعى- على الدوام- إلى إلصاق معاداة السامية بيّ كلما ذكرت كلمة صهيونية ، ولابد لي أن أقول هنا ، إن أسوأ أعداء الإيمان اليهودي النبوي هو المنطق الوطني العرقي الاستعماري للصهيونية القبلية ، الناشئة عن العصبية الوطنية ، وعن الشعور العرقي والسلوك الاستعماري لأوروبا خلال القرن التاسع عشر . إن الصهيونية السياسية ، التي ابتدعها تيودور هيرتزل ، كانت في نظره «حصناً متقدّماً للحضارة الغربية في مواجهة بربرية الشرق» . ولم تكن المسألة اليهودية بالنسبة له مسألة دينية

أو اجتماعية بل مسألة قومية . ولم يكن الهم الوحيد للمنظمات الصهيونية آنذاك إنقاذ اليهود ، بل بناء دولة يهودية بالدرجة الأولى . كما لم يكن هم بن غوريون إنقاذ اليهود في أوروبا ، بل إنقاذ الأرض المخصصة لهم ، وهو جوهر المشروع الصهيوني في فلسطين»

* القاضي :

– نحن نستمع باهتمام شديد إلى تعريفك للصهيونية وأبعادها وتاريخها ، لكننا نريد أن نوضح سوء الفهم في هذه المحكمة ، إننا لا نريد مناقشة الكتاب بأكمله ، موضوع المحاكمة ليس الصهيونية ، بل تخص الحقد العنصري والاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، خصوصاً فيما يتعلق بوجود غرف الغاز والستة ملايين يهودي الذين أُبيدوا على يد النازية .

كما نفهم أيضاً أن شعوب العالم الثالث يقدّمون لك الدعم في نضالك ضد الصهيونية . والموضوع لا يتعلق بنقد الدين اليهودي ، وينبغي عدم المزج بين الصهيونية واليهودية كما تفضّلت ، لكن المسألة هي مسألة أخرى : الصفحات الزائدة في الكتاب هي ما يثير المشكلة ، إن استعراض تاريخ الصهيونية شيء جيد ، لكنه لا يصب في صلب النقاش في هذه المحكمة .

* غارودي :

– إنني أعتبر معاداة السامية ليس عنصرية فقط بل جريمة ، ولا يشرفني أن أكون معادياً للسامية .

* القاضي :

– تحدّثت عن الـ shoah Business أي «تجارة المحرقة» وتمويل بيغن للفيلم وجني الأرباح التجارية من معاناة اليهود . . ألا تجد في ذلك إساءة لليهود؟ رغم أن ماضيك يدلّل على أنك كنت من المعادين للتمييز العنصري .

* غارودي :

– لقد ناضلت ضد التمييز العنصري طيلة حياتي ، أما الـ sohah Business فلست أنا الذي ابتدعت هذا المصطلح ، وعندما استخدمته في سياق كتابي فإنه لا يعبّر بالضرورة عن الإساءة للشعب اليهودي ، ولكن يبدو أن من يقول : إذا كان أحد اليهود يغني بصوت ناشز فلتلصق به صفة معاداة السامية .

* القاضي :

- إنك باستخدامك هذا المصطلح ، أي (تجارة المحرقة) إنما تحتقر اليهود ، وتربط كل تطلعاتهم بالأموال والتجارة والأعمال ، وهذا يشكّل في حد ذاته جزءاً من معاداة السامية .

* غارودي :

- عندما قلت إن بيغن موّل فيلم لانزمان بـ٨٥٠ ألف دولار ، فإنني أعبّر عن حقيقة ولا أسيء بالضرورة إلى اليهود ، كما أنني لا أقول اليهودية النازية/ بل أقول الصهيونية النازية .

* القاضي :

- إن شهرتك كفيلسوف محترم يا سيد غارودي لا يمكنها أن تحميك من ترديد مقولة إن غرف الغاز غير موجودة ، وإن اليهود ابتدعوها لكي يحصلوا على التمويل المالي . . تماماً كما أن شهرة بريجيت باردو لا تحميها من عقوبة التمييز العنصري .

* غارودي :

- كلمة تجارة المحرقة sohah Business هي معلوماتٍ جاءت في الصحافة الإسرائيلية ، وترجمها لي المفكر اليهودي إسرائيل شاحاك .

* القاضي :

- إن كون المرء يهودياً لا يحميه من معاداة السامية ، كما أن كون المرء أسود اللون لا يحميه من تهمة العنصرية إذا كان حقاً هكذا .

* غارودي :

إن مجرد البحث عن الحقيقة أدى إلى اتهام كتابي بالتمييز العنصري ، ذلك لأن قراءة كتابي تمت «بنظارات ملوّنة» ، وأتحدى مَنْ يجد في كتابي إساءة واحدة إلى اليهودي ، بصفة سيكولوجية أو بيولوجية أو تاريخية . كل ذلك ينبع من التبريرات السياسية . وإذا عدنا إلى غرف الغاز ، فما من مرة نفيت فيها جرائم النازية ولا الاضطهاد العرقي للجرائم المرتكبة ضد الإنسانية ، وما يخص غرف الغاز لست مؤهلاً للبت في هذا الموضوع ، بل قلت إن هناك أشكالاً صناعية أخرى استخدمت مثل وضعهم في حمامات كهربائية . إنني أعالج جرائم النازية التي اقترفتها إزاء الجميع ، وليس إزاء اليهود فقط ، فلماذا لا نتحدّث عن الآخرين ، ونركّز الحديث على الضحايا اليهود فقط ، وهكذا عندما أتحدّث عن ذلك يتهمني الآخرون بأنني أهاجم اللوبي .

* القاضي :

– فريق الادعاء يؤكد أن قولك «إن الجالية اليهودية تشكّل ٢٪ من السكان الفرنسيين ، لكنها تهيمن على ٨٠ بالمائة من وسائل الإعلام والتليفزيون ودور النشر» يتضمن عداءً للسامية ، وأن اليهود في فرنسا يشكّلون لوبيًا ، وهذا يبعث على التمييز العنصري .

* غارودي :

– أجل لقد سيطرت الصهيونية من خلال عقد خمسة مؤتمرات . إن قانون ٤٢ أكتوبر– تشرين الثاني ١٩٥٢ المتعلّق بالمنظمة الصهيونية توضح فيه المادة الخامسة : إن دولة إسرائيل تعتمد على مساهمة كل اليهود ، في كل المنظمات اليهودية ، في إنشاء دولة إسرائيل ، وهذا اللوبي القوي معترف به رسمياً في الكابيتول . رأينا منظمات بكل اللغات ، ولا تستطيع أي حكومة أن تقف ضده . كل منظمة صهيونية ينبغي عليها أن تساعد دولة إسرائيل بشكل مطلق .

* القاضي :

– تقصد أن لليهود ولاءً مزدوجاً . . أليس كذلك؟

* غارودي :

– يقول إيلي فيزيل في عام ١٩٨٢ : «إنني كيهودي أساند كل ما يحدث في إسرائيل . وإن كل ما يحدث في إسرائيل إنما يحدث باسمي» . أجل أقول ليس نفوذ اللوبي الصهيوني في فرنسا بأقل قوة ، لكنه أقل ظهوراً من الولايات المتحدة ، ومثال ذلك في إسرائيل أن الحاخام سيتروك الأكبر يصرّح لإسحاق شامير : «إن كل يهودي يعتبر ممثلاً لإسرائيل ، وتأكد أن كل يهودي في فرنسا يدافع عمّا تدافع عنه» ، لكنه عندما عاد إلى فرنسا في ١٦ تموز/يوليو عام ١٩٩٥ أضاف مصححاً : «ولكن من غير أن يعني ذلك ولاءً مزدوجاً . .» . ولا يخفي القادة الصهاينة في الولايات المتحدة دورهم . اليهود يسيطرون على الكونغرس الأمريكي ، حتى إن الجنرال ديغول استخدم مصطلح اللوبي وحذّر من مخاطره على فرنسا وسياستها . وناحوم غولدمان نصحنا باختراق هذا اللوبي الصهيوني .

* القاضي :

– لعلك تتذكّر يا سيد غارودي أن تارديرو أحد شهود الادعاء العام أكد أن وجود لوبي صهيوني لا يعني شيئاً .

* غارودي :

- لكن كلما تحدّثنا عن اللوبي اليهودي ألصقت بنا تهمة التشهير.

* القاضي:

- التشهير يتم عندما نقول إن هذا اللوبي يتصرف بشكل سرّي. ولكن في نظر القانون فإن مجموعة منظمة تعمل لصالح جماعة أو طائفة بشكل اقتصادي أو اجتماعي أو ديني لا يشكّل مخالفة قانونية، لكن كتابك لا يتحدّث عن اللوبي اليهودي في فرنسا بل يتعرّض للعمل السياسي لهذا اللوبي. ورابطة «مراب» ترفع ضدك قضية مزجك بين اللوبي الصهيوني واللوبي اليهودي. ثمة غموض في آرائك. أي أنك تأخذ من هذا اللوبي الصهيوني ذريعة للتهجم على اليهود، وتؤكد أن ٢٪ من اليهود يسيطرون على ٨٠٪ من الإعلام والتليفزيون ودور النشر، وتستشهد بما قاله الجنرال ديغول..

* غارودي:

- أقول إن الآخرين يقرأون كتابي بـ «نظارات ملوّنة».

* القاضي:

- في كتابك ثمة إدانة للوبي. ولو قارنا بين الحكم الذي صدر بحقّك في عام ١٩٨٧ في المحكمة والآن.. فأنت تقول الشيء ذاته، وهو أن اللوبي الصهيوني يسيطر على معظم وسائل الإعلام ويحوّل اللامقبول إلى مقبول.. والحكم الذي صدر بحقك آنذاك بأنك انتقدت السياسة ولا علاقة لما كتبته بالعنصرية. إلاّ أن (تارديرو)، شاهد من فريق الادعاء، أوضح لنا في هذه المحكمة أن المصطلح قد تغيّر. وفي يومنا هذا عندما تقول الصهيونية فأنت تقصد به اليهودية.. هذا هو السياق لو عقدنا مقارنة بين عام ١٩٨٧ والآن.

* غارودي:

- إن قانون (غيسو- فابيوس) ما هو في جوهره إلاّ جهل بالتاريخ واللغة الفرنسية. قلت آنذاك إن سياسة نتانياهو هي سياسة حرب، وإن غزو لبنان يقع ضمن المنطق الصهيوني.

* القاضي:

- لم تتغير المصطلحات عندك خلال عشرة أعوام، هل ثمة جديد وأنت تغيّر المصطلحات التي تقول الشيء ذاته.

* غارودي:

- إن اتهـامي بـ «مـعـاداة السـامـيـة» نابع من القـراءة المغـرضـة لكتـابي «الأساطير . .» ، وكما قلت إن البعض قرأ كتابي بـ «نظارات ملوّنة» .

* القاضي :

- القضية التي ترفعها ضدك رابطة- ليكرا- هي أنك تضع الجميع موضع الشك وتميز بين اليهودي الجيد واليهودي السيئ ، وبين اليهودية النبوية والصهيونية القبلية . يفهم من كل ذلك أنك تستهدف اليهودية وليس الصهيونية . عندما تقول إن إسرائيل تستخدم اليهودية في خدمة مصالحها السياسية ، إضافة إلى أنك تقول إن إسرائيل تعتبر نفسها فوق كل قانون ، وتحاول إزالة القداسة عن ضحايا الهولوكست وإبادة ستة ملايين يهودي ، كما تتحدّث عن (الإرهاب الفكري) . . واستخدام عبارات معينة عن اليهود تصب في مجال الإساءة إلى اليهود .

* غارودي :

- إنني لا أتهم الجالية اليهودية ولا الدياسبورا . هناك مَنْ يقول أشياءً أكثر جرأة حتى في إسرائيل ذاتها دون أن يتعرّضوا للمحاكمة ، أحدهم يشبه الشبيبة اليهودية بالشبيبة النازية ، ويطالب بطرد الفلسطينيين من إسرائيل ، كما طالبت النازية بطرد اليهود من ألمانيا آنذاك ، إنني لم أُسيء إلى اليهود بل استشهدت بأقوال مؤرخين إسرائيليين حول كتاب يوشع .

* القاضي :

- تعتقد الـ- ليكرا- أنك أهنت قدسية الهولوكست/ إبادة اليهود/ وشككت في محكمة نورمبرغ وقراراتها التي تحدّد الضحايا اليهود ، وكذلك انتقاد قانون غيسو . . هذه التهم موجّهة إليك من قبل- ليكرا- ومراب- في آن واحد .

* القاضي : لماذا فصل الأب بيير من رابطة- ليكرا-؟

- ممثل رابطة- ليكرا- :

قابلت الأب بيير لمدة ساعتين ونصف الساعة ، وقال لي إنه لا يتقبل مقاطع معينة من كتاب غارودي ، وقال في إحدى رسائله إنه سيسأل غارودي عن ذلك ويطرح عليه السؤال ، وطلب من غارودي أن يعقد مؤتمراً ، فقلت له إنك تخالف رأيك وتغيّره ، ولهذا السبب فقد عضويته .

* محامي الادعاء : من السخرية أن يقوم محام من بلد غير ديمقراطي بالدفاع عن الديمقراطية ، وبالتالي عن غارودي . .

* ممثل محامي الدفاع المغربي ينهض غاضباً ، ويقول :

- المغرب دولة ديمقراطية ، وهناك ممثلون يهود في البرلمان ، وإن مستشار الملك الحسن الثاني يهودي .

* ممثل «جمعية المنفيين والمبعدين اليهود» :

- (سرد ذكرياته عن معتقل أوشيفتز ٣) : لقد رأيت بأم عيني كيف كان الألمان يقودون اليهود إلى غرف الغاز والمحارق . يروى عنا أن البعض منا يحمل نظارات ملونة ليرى اللون الأصفر ، لكنني أقول إنني تجولت في متحف الهولوكست في نيويورك ، وتعرفت على أخ أو قريب أو رفيق مدرسة . (انفجر في البكاء) .

* غارودي :

- لم يقل الأب بيير بعدم وجود غرف الغاز ، بل قال لابد من الديمقراطية ، وإن معاداة السامية ليست خرقاً بل جنحة .

* ممثل رابطة الرياضة والثقافة :

- أتمنى أن يكون غيرك قد كتب لك هذا الكتاب ، أعتقد أن غارودي أراد أن يصبح أحد المفكرين المهمين في هذا البلد ، إلاّ أنه لم يحقّق هذا الهدف وفشل مشروعه الثوري «الشيوعية» ، وشعر بأن فشل ذلك التنظيم هو فشله الشخصي . كان له أصدقاء كثيرون من أمثال الأب بيير . مَنْ هو على حق ، غارودي أم العدالة الفرنسية؟ أعتقد أن مَنْ يعطي الحق للجرائم المقترفة إزاء الإنسانية فهو يعطي الحق لهذا الكتاب . بعد كل ما كتب سيكون ذلك مؤثراً . غارودي يذكر الحاخامات الأمريكيين ، فهم جيدون ورائعون إذا وقفوا ضد الصهيونية . باسم الصهيونية يبرّر كل شيء . غارودي يقول إنني أشك ، ولكن غرف الغاز لم تكن موجودة في عهد ديكارت . أما ما يتعلّق بقانون «غيسو- فابيوس» الذي يتهجم عليه غارودي فإنه قانون صوّت عليه النواب ، وأصبح قانوناً جمهورياً . لا أعتقد أن هناك شكوكاً حول غرف الغاز . والمسألة لا تتعلق فقط بقضية غرف الغاز بل بالنظام النازي بأكمله .

اتهم غارودي اليهود بأنهم ابتدعوا المحرقة ، يجب أن يخجل من هذا . إنه مثل بابون الذي أرسل الآلاف إلى المحرقة ، يقول أثناء محاكمته : ماذا يعني أنني أوقع على مثل هذا القرار . ويقول إنني صديق اليهود!

* القاضي :

- حرية الرأي موجودة في هذه القاعة ، ولا نريد أن تحوّل المحاكمة إلى نقاش

فكري وأيديولوجي وتاريخي .

* محامي فريق الادعاء :

- ماذا تعني «ديانة السوق التوحيدية»؟

* ممثل رابطة- ليكرا-

- تحدّثت عن «النظارات الملوّنة» في قراءة كتابك ودعم الأب بيير ، إلا أن الأب بيير لم يقرأ كتابك ، وقد أوضح إذا كان صديقه غارودي كتب ذلك فيرجى منه سحب ذلك . وقد ربطت بين- ليكرا-والصهيونية ، وتقول إنك مع استقلال الشعوب . لقد كافحنا من أجل تأسيس دولة إسرائيل ، وكذلك نناضل من أجل إنشاء الفلسطينيين لدولتهم . إننا نريد دولة فلسطينية بجانب دولة إسرائيل . كما وقفنا مع استقلال الجزائر . إننا نناضل ضد العنصرية ومعاداة السامية ، ومن أجل يهود العراق والدول العربية واليهود الروس ، وهل كان لك أنت موقف إزاء هذه الشعوب؟ لا أتذكر مواقفك ضد معاداة السامية . إننا ندين جميع أشكال العنصرية . اصطدمت بأقوالك حول الأموال التي لا تصنعها من عظام أجدادك! هناك الكثير من اليهود ممن كانوا يفكرون بعوائلهم وأطفالهم ونسائهم وليس بالأموال! آراؤك وأقوالك متحاملة . رأينا اثنين من شهودك الذين وجدوا في كتابك صفحات زائدة عن اللزوم . إننا لا ندعم السياسة الإسرائيلية ، بل نطمح إلى تحقيق السلام . في دولة إسرائيل تصويت وانتخابات . إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يوجد في برلمانها ممثلون عرب .

* غارودي :

- وهل في انتقاد قانون- غيسو- إساءة للديانة اليهودية؟!

* القاضي :

- عرّف لنا الهولوكست .

* غارودي :

الهولوكست كلمة دينية مثل الصلب في الديانة الكاثوليكية ، وهو يأخذ معنى الضحايا والتضحية في المراسيم والاحتفالات ، والذي أنفيه وأحاربه هو إرادة قصر التضحيات على عرق بعينه وغض النظر بصورة ما عن الضحايا الآخرين ، احتقاراً لهم .

* محامي فريق الادعاء :

- إن المحرقة sohah لم تكن تفرّق وتختار في معسكرات الاعتقال النازية ، وأنت

لا تتحدّث عن الذين اختفوا في معسكرات أوشيفتز ودرانسي .

* غارودي :

– لا ريب أن عدداً كبيراً من اليهود قد ذبحوا بصورة ما ، ولكن لم تستخدم كلمة الإبادة Genocide ، التي تعني إبادة الجنس البشري ، التي استخدمتها الصهيونية لخدمة مآربها السياسية التوسعية على حساب الشعوب الأخرى .

* القاضي :

– ما هو رأيك في السلوك الهتلري؟

* غارودي :

– إن ما أنفيه هو الحق الذي يزعمه الصهاينة في تصغير جرائم هتلر بردها إلى قمع لليهود ، إن هناك قضايا لا نقاش حولها . أما إرادة هتلر في التوسع فقد كلفت أوروبا ٥٠ مليون قتيل ، منهم ١٦ مليوناً من السلاف . لاريب أن اليهود كانوا أحد الأهداف الأكيدة لدى هتلر ، بحكم نظريته العرقية وتأكيده لفوقيه العرق الآري . ولا يعني أن يكون المرء يهودياً أنه أكثر إنسانية . وكانت الفكرة النازية تتركز في أنهم إذا لم يقتلوهم وهم صغار فإنهم سيصبحون جنوداً . . هذا ما أردت قوله بـ «الاختيار» .

* القاضي :

–إنك تختار مقاطع تتفق مع أطروحات كتابك . .

* غارودي :

– ثمة مراجعات متتالية من قبل المؤرخين بصدد عدد القتلى اليهود . محكمة نورمبرغ ذكرت وجود أربعة ملايين من القتلى في أوشفيتر تبعاً للتقرير السوفييتي ، وقد أحصى مؤرخ صهيوني آخر ، وهو راؤول هيلبرغ ، أن هناك مليوناً وربع المليون من الضحايا فقط . إن القول بأربعة ملايين لا يقوم على أي أساس جديّ . وإذا عدنا إلى المراجع الأكثر جدارة بالثقة وصلنا إلى ما يقرب إلى المليون من الموتى ، والمختصون يذكرون العدد ٩٥٠ ألفاً و٢٠٠ ألف ، لكن قانون غيسو يحاسب فقط من يشكك في الضحايا اليهود .

* محامي فريق الادعاء :

– كما ذكرت ، فإن كتابك وزّع مليون نسخة ، وتُرجم إلى ٢٩ لغة . . هذا عدد كبير يسمّم الرأي العام بصدد ضحايا اليهود .

* غارودي :

– ولكني لم أستلم أي حقوق نشر جراء نشر الكتاب وتوزيعه ، كما لم أوقع أي عقد مع دار نشر ، بل طبعت الكتاب على نفقتي الخاصة .

* محامي فريق الادعاء :

– إنك تؤثر بذلك على أحاسيس الأطفال . تصور أن أطفال ضحايا اليهود يقرأون كتابك وأنت تذكر لهم أن آباءهم وأسلافهم ، الذين تعرّضوا إلى المحرقة ، لم يكونوا سوى تجار محرقة . . ألست أنت الذي تتاجر بعظام أجدادك من خلال هذا الكتاب؟

* غارودي :

– إنني أتعاطف مع أحاسيس الأطفال اليهود ، وكذلك أتعاطف مع جميع الضحايا الآخرين ، وليس اليهود فقط ، وأفهم مشاعرهم . لماذا نفصل بين الضحايا اليهود والضحايا غير اليهود ، ونفرّق فيما بينهم ، ليس هناك ضحية أفضل من الآخر ، فكلهم ضحايا؟

* محامي فريق الادعاء :

– لكنك تتجاهل التعذيب والجوع والبرد التي تعرّضت لها العوائل اليهودية في قطارات الموت . . كما تتجاهل غرف الغاز والمحرقة ، هناك شهادات في ذلك .

* غارودي :

– رأيي واضح في هذه المسألة كما ذكرته في كتابي . . وعندما تذكر لي بعض الشهادات لا أريد أن أشكك في شهادة هذا الجنرال أو ذاك .

* محامي فريق الادعاء :

– قلت أيضاً إن «التطهير العرقي» أصبح ممارسة عادية في إسرائيل لكي يمنعوا خلط اليهودي بدماء الآخرين . . وقلت أيضاً إن إسرائيل تتبع سياسة يشوع . .

* غارودي :

– أجل مادام هذا البلد يستثني وجود الآخرين . . وسياسة نتنياهو نموذج لذلك .

* القاضي :

– هل تقصد بـ «التطهير العرقي» القتل أم الطرد؟

* غارودي :

– الاثنان معاً .

* محامي فريق الادعاء :

– هذا هروب من الإجابة عن السؤال .

* غارودي :

– لقد طرحت في كتابي تأويل «الحل النهائي» وغرف الغاز ، فالنظرية الرسمية تقول إن هتلر قد أصدر أمره باستئصال اليهود ، لكن رايمون آراون وجاك فوريه صرّحا في ندوة في السوربون حول «المراجعة» بقولهما : «على الرغم من كل المحاولات العملية الواسعة ، ما من أحد استطاع أن يجد أمراً صادراً من هتلر بالقضاء على اليهود» .

* محامي فريق الادعاء :

– في المقاطع التي أوردتها من إدانة الأمم المتحدة لإسرائيل ، وما يخص الصهيونية باعتبارها عنصرية ، تخلط بين كلامك وبين المقتطف وكأنك تدين إسرائيل .

* غارودي :

– يحق لي أن أكرر الشيء ذاته ، هذه حقيقة يعرفها الجميع ، ومنصوص عليها في وثائق الأمم المتحدة .

* القاضي :

– لأن العرب لم يتوحدوا بعد لكي يؤسسوا هذا اللوبي .

* محامي فريق الادعاء :

– ألا تعتقد أن مليون قارئ لكتاب «الأساطير . .» ، عدد هائل عندما يقرأون رأيكم بعدم وجود غرف الغاز؟

* غارودي :

– لست مؤهلاً للإجابة عن هذا السؤال .

* محامي فريق الادعاء :

– من يطلع على كتابك سوف يشكّك في وجود غرف الغاز . ما فائدة وضع مثل هذا الكتاب إذا كنت لا تتدخل جوهرياً في كتابك ، بل تعرض مقتطفات الآخرين وآراءهم؟ يبدو أن شغلك الشاغل هو طرح الأسئلة وإثارة الشكوك . .

* غارودي :

– قلت إنني لم أبتدع شيئاً .

* شهادة ممثل رابطة «مرآب» :

– إذا تركنا قتلة أبناء المهاجرين العرب يمضون دون عقاب ، فإننا نسمح بذلك

بنبش قبور اليهود . يكافح الفلسطينيون من أجل الشعب الفلسطيني ، كما يكافح العراقيون من أجل الشعب العراقي ، لا يمكن أن [ننفي] ذلك [استخدام النفي هنا يشير إلى مصطلح نفي وجود غرف الغاز] . إن إجراء نقاش تليفزيوني حول معاداة السامية/ ونفي وجود غرف الغاز ، من شأنه أن يعمل على تقسيم الناس/ ونفي معاناتهم/ وحذف ذاكراتهم بأكملها . تحدّثنا عن قراءة كتابك بـ «النظارات» . لا يمكن أن نتقدّم في بحث هذا الموضوع بعصا أعمى . إن غارودي يروّج لروبير فيرسون عن أكاذيب غرف الغاز . . وهذا لا يأتي عن طريق الصدفة .

تيودور هيرتزل شهد قضية دريفوس . ومن هنا جاءت فكرة تأسيس إسرائيل . وُلدت نتيجة معاداة السامية . دريفوس/ هيرتزل ، وقد رأى بيرنار ليكاش ، الذي رأس رابطة– ليكرا– مئات اليهود يبادون في أوكرانيا . إذن ، ارتبطت إسرائيل بفكرة معاداة السامية ، وغارودي كمثقف يعرف ماذا يقول ، وهو يسيطر على مصطلحاته وعباراته وكلماته . وأنا لا أعمل تجارة على عظام أسلافي . غارودي يمنح حضوره وكيانه إلى معركة عنصرية ومعادية للسامية و– ليكرا– كرابطة لا تستطيع أن تتسامح مع مَنْ ينكر وجود غرف الغاز ومع مَنْ يحتج على الجرائم التي اقترفت ضد الإنسانية ، وهؤلاء يعملون على الحفاظ على الدعاية العنصرية والاستفادة من معاناة الشعب اليهودي بأكمله . إننا لا نشكك في معاناة الأرمنيين والهنود الحمر ، ولا نسخر من أية إبادة لأي شعب . إن معاداة السامية في فرنسا أخذت شكل إنكار وجود غرف الغاز . ونحن لا نحتج ضد الجرائم المقترفة ، وغارودي لم ينتقد الفقرات التي ضمّها في كتابه ، وكذلك سعى إلى محو ذاكرة اليهود ، وإذا مرّ غارودي دون حكم قضائي فسيقول الناس ، بعد مرور مائة عام ، انظروا . . إنه كان على حق!

* محامي رابطة– ليكرا– :

– الاتهام بالعنصرية شكل جديد من أشكال معاداة السامية ، أرى أن في هذه المحكمة روحية العداء للسامية بطريقة منظمة . كما أوضحت رسالة بيير غيوم ، وهي ضد الدولة التي زودتنا بالقوانين التي تقدّم حماية ضد العنصرية ، هذا هو معنى هذه المحاكمة . إننا نخوض هذه المعركة ، وإنهم ، أي المعادين للسامية ، يتحالفون مع اليمين المتطرف ضد إسرائيل ، وهذه أطروحات السيد جان ماري لوبين ، أية مصادفة عجيبة أن تتزامن هذه المحاكمة مع الذكرى المئوية لوقوف الكاتب أميل زولا ضد معاداة السامية في قضية دريفوس ، ويأتي غارودي ليشهر سلاحه في معاداة السامية .

* محامي فريق الادعاء :

- غارودي لا يتمتع بثبات فكري ، فهو انتقل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية إلى الشيوعية ، ثم إلى الإسلام . وقام بخداع التاريخ وتحريفه فيما يتعلق بالنازية والشيوعية . إن نفي وجود غرف الغاز مسألة ألمانية صرفة . كما أنه غير واع لسلوكه ، البروستانتية اللوثرية وقفت إلى جانب معاداة السامية . والإسلام يرفض وجود إسرائيل ، وناشره بيير غيوم أُدين مرات عديدة لمعاداته السامية ، وهو من الطراز الأول في هذه المعاداة ، كما أنه يطبع كتبه بطريقة غير مشروعة ، ويتحدّث عن أسطورة الستة ملايين من الضحايا اليهود ، والحل النهائي بطريقة معروفة .

* القاضي :

- يرجى الإحاطة علماً بأننا هنا لا نحاكم غارودي ، بل نحاكم كتابه ، وبالأحرى متقطفات من كتابه ، إذن لا يحق لفريق الادعاء الدخول في تفاصيل حياة غارودي .

* ممثل رابطة «مرآب» :

- الكتاب يشكل خطوة على طريق صراعنا ، فقد استخدم كلمة شك . . ثمة أطفال بعض المدارس قالوا إن غرف الغاز لم يكن لها وجود ، لأن الأب القس بيير قال ذلك . إذن ثمة تأثيرات لهذه الأفكار على الأطفال . ومهما يكن من أمر ، فإن الشك يؤدي إلى الإنكار . حرية التعبير حق مقدّس ورابطة «مرآب» تدافع عن ذلك ، إلا أن نفي وجود غرف الغاز لا يمثل بحثاً تاريخياً . إذن هدف الكتاب أيديولوجي وسياسي . إنه نموذج فاشي جديد/ نازية جديدة/ وهذا لا يخدم حرية الرأي ، واجبنا أن نقاوم ونحذر بألا يخفي انتماءاته إلى النازية الجديدة ، فقد اشترك في مؤتمرات خاصة بين ١٩٩١ و١٩٩٥ . غارودي شخصية قلقة ورجل خطير على الصعيد الثقافي ، وهو كأستاذ ومفكر ، يستخدم سلطته الثقافية . كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» هو من أسوأ كتبك يا سيد غارودي ، تسمّم به عقول الأطفال ، وتحشو عقولهم بأفكار كاذبة . هناك ناس يرضعون من أفكارك كالحليب . لقد استهدف غارودي مليون قارئ ، وهذا في حد ذاته اتهام . وعلاوة على ذلك يقول غارودي إن لا أحد يوقف الحقيقة . أي حقيقة تتحدّث عنها يا سيد غارودي؟! وحتى شهوده كأنهم تلامذة مدرسة تعلموا الدرس جيداً ، لكن هؤلاء الأصدقاء الأقرباء هم الذين خانوه في هذه المحكمة . وشاهدان أكدا أمام المحكمة أن كتابه يتضمن (صفحات زائدة) .

قانون- غيسو- قانون عادل وثبتت فاعليته منذ عشرة أعوام .

* محامي فريق الادعاء :

- إن العنصرية ومعاداة السامية جريمة ، أنت اقترفت هذه الجريمة . الهجوم على إسرائيل ما هو إلا ذريعة لمعاداة السامية . إن الذين رموا المهاجر العربي في نهر السين هم أنفسهم الذين نبشوا قبور اليهود . ليس المهم ما جاء في الكتاب بل سياق الكتاب وظروف كتابته وأصدقاء اليمين المتطرف الذين دافعوا عنه . إنني أتساءل عن الرجل غارودي أيضاً . لأنه يحاول تجاهل معنى المحرقة ، أي إنكار وجود غرف الغاز ويحاول أن يتجاهل أيضاً أن اليمين المتطرف استفاد من كتابه .

الفيلسوف والكاتب الجامعي لا يمكن أن يتجاهل ذلك . ليس من الغريب أن يتعاون مع بيير غيوم في نشر كتابه . إن عوائل يهودية اختفت بكاملها ولم يكن خطأهم الوحيد سوى أنهم يهود . أطفال ونساء وشيوخ أُبيدوا . كانت ألمانيا تمثل صناعة الموت . هذه حقيقة «الشواه»- المحرقة- يا سيد غارودي : ماذا تعني لك عوائل الضحايا؟ من الممكن إنكار وجود غرف الغاز ، ولكنه لا يمكن إنكار معاناة اليهود . ماذا يعني كتابك لفرد فقد عائلته وأهله؟ وهو يرى ذلك في متحف نيويورك؟ سيحفر اسمك يا سيد غارودي إلى جانب أولئك الذين أنكروا الجرائم المقترفة ضد الإنسانية . إذا كنت تدافع عن القضية الاجتماعية فإن الشعب الفلسطيني يدافع عن قضية عادلة ، أما كتابك فمن شأنه أن يثير الحقد والعنصرية ، إن الخطأ الوحيد لملايين الناس أنهم وُلدوا يهوداً .

* ممثل «محامون بلا حدود» :

- إذا قلنا إن قانون- غيسو- استثنائي فإننا لا يمكن أن ننكر قنبلة هيروشيما . إننا في محكمة جزائية ، لذلك يمكن محاسبة الشخص . كان غارودي يدعو ، على الدوام ، إلى إعادة كتابة تاريخ اليهود . فإبادة اليهود موجودة لا يمكن إنكارها . لكن غارودي كان ينكر حتى [الإبادة الستالينية] . كما أن إنكار وجود غرف الغاز لا يعني بالضرورة تحويل الضحية إلى جلاد! غارودي غير متناقض بل منسجم مع نفسه تمام الانسجام منذ أن كان شاباً ، وفي أحد تصريحاته لمجلة «بلاي بوي» آنذاك قال إن غرافشنكو قد انتحر . آنذاك لم يكن أحد يتجرأ أن ينكر وجود غرف الغاز . وقد دافع غارودي أيضاً عن آية الله الخميني ، وذهب لزيارة إيران مرات عديدة ، وهنا نتساءل : هل إن غارودي أصولي إسلامي أم أنه يحب هواية السفر؟! لقد تحوّل إلى باحث

منعزل يدافع عن بعض دول الخليج التي يستعبدون فيها الفلبينيين والآسيويين الفقراء ، ويحتجزون جوازات سفرهم ، وهم الذين جمعوا له تبرعات تقدّر بـ ٢٠٠ ألف دولار ، وهو يتهمنا بـ «تجارة المحرقة» وأننا نتاجر بعظام أسلافنا . إنني أحضر المحكمة من أجل كل ذلك . معاداة السامية لم تتغير أبداً . وأنا أتساءل : إن قنبلة كوبرنيك التي انفجرت في المعبد اليهودي في باريس استهدفت الصهاينة أم اليهود؟ وكذلك تفجيرات بوينس آيرس . . هل سال دم الصهاينة أم دم اليهود؟ جميع الذين يطالبون بإعادة كتابة التاريخ اليهودي يدعمون السيد غارودي . ومن أولئك مصطفى طلاس في دعوة الحق والخبث ، ونحن ضد إبادة الخمير الحمر أو شعب- الأبوجين- في أستراليا . إلاّ أن المعادين للسامية يستخدمون ذلك كقناع ، وكسلاح من أسلحة الحرب لإزالة نص قانون- غيسو- والفقرة ٢٤ Bis منه . ولماذا تطلق تسمية اللوبي الصهيوني ، وما هو معناها؟ بهذه التسمية يمكنهم التخلص من المسؤولية .

ويتساءل القارئ : مَنْ هو صهيوني ومَنْ هو غير صهيوني من اليهود؟ أنا يهودي روحاني ولست يهودياً قبلياً . والقارئ أيضاً لا يستطيع التمييز بين اليهودي الجيد واليهودي السيء ، ثمة قلق متزايد أمام الوجه الجديد لمعاداة السامية ، إنه الدعم الذي يعطيه غارودي إلى جان ماري لوبين ، إنه استخدام سياسي لتهديد ديمومتنا ، أتمنى أن تأخذ العدالة طريقها في إدانة غارودي .

* محامي فريق الادعاء :

– لا أعتقد أن لنا مشروعية الاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية . إن «رابطة الرياضة والثقافة» ذات مفهوم ثقافي انفتاحي ، هدفها واضح ، وهو التبادل الثقافي وتعريف الثقافة اليهودية للآخرين ، لكن غارودي اختار الاستفزاز والاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، وهذا شيء عنصري ، وكتابه طبع بآلاف النسخ ، وقد قرأه مليون قارئ في مختلف اللغات . . هذا كثير . وغارودي حين كان يستلم الدعم من خارج حدود فرنسا ، انطلقت تظاهرة تسانده في القاهرة . كما يستلم دعماً مالياً وثقافياً . دولة الإمارات العربية المتحدة قامت بجمع تبرعات علنية له ، كما أن الشيخة فاطمة بنت مبارك ، زوجة رئيس الإمارات العربية المتحدة تبرعت له بـ ٥٠ ألف دولار . ورغم ذلك يقول غارودي إنه لم يستلم أي أموال من كتابه ، وحاول أن يحصل على دعم فرنسي . تكلمنا عن الأب بيير ، لقد وضع غارودي له فخاً لأنه لم يقرأ الكتاب وقدّم له الدعم . كما أراد غارودي أن يوقع كاردينالاً آخر في الفخ . . هذا

ما أسميه الاحتيال الثقافي . وبما أن غارودي لم ينجح مع الروس ، فإنه نجح مع اليهود ، ونجح كذلك مع الأديان الأخرى .

* محامي فريق الادعاء :

– يخيّل إليه أننا في جلسة غريبة من نوعها . يأتي محامون من بلدان تفتقر إلى الديمقراطية مثل المغرب للدفاع عن غارودي ، يأتون هنا إلى قاعة المحكمة للدفاع عن القضية الفلسطينية ، علماً أن موضوع المحاكمة لا علاقة له بالقضية الفلسطينية ، هذه شهادات استثنائية كأننا نشهد احتفالات القوس والقزح .

الجلسة الرابعة - ١٦ يناير/ كانون الثاني

* محامي دفاع غارودي :

- إننا ندعم سلمان رشدي لأن قضيته تقع خارج حدود فرنسا! نعتبر ذلك جزءاً من حقوق الإنسان ، وماذا يحدث لدينا . أميل زولا يكتب «إني أتهم» بعد مرور مائة عام . ماذا فعل؟ زولا يحتج! إنني أيضاً أخرج القاموس وأبحث عن معنى كلمة (الاحتجاج) ، إنني أتحدى أي قانوني أو صحفي بإمكانه أن يفهم محتوى الفقرة ٢٤ Bis من قانون- غيسو- ويفرق بين ما هو ممنوع وما هو مسموح . لا نعرف تفاصيل قرارات محكمة نورمبرغ . لا يوجد قانون لا ينشر في الجريدة الرسمية في فرنسا .

محكمة نورمبرغ تخص الناس الذين أُدينوا فيها ، وقانون- غيسو- يغتصب حقوقنا في التعبير عن آرائنا ، أولاً إننا لا يمكن أن نطبق قانون- غيسو- على شيء أجنبي مثل محاكمة نورمبرغ! وثمة قانون صدر في عام ١٩٧٩ يمنع الباحثين والصحفيين من الاطلاع على المحاكم العسكرية . الجنرال ديغول عفا عن كلوس باربي ونحن نصر على محاكمته! لم تتم إدانة القادة في الاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية . إذا أردنا أن نطلّع على الحقيقة كاملة يجب أن نطلّع على الملفات العسكرية . لقد حُوكم غاليلو لأنه لم يحترم قرار الكنيسة وقانون الفلك في المسيحية ، محاكمة غاليلو كانت فضيحة . . هل تريدون أن تتحدّث عن فضيحة محاكمة غارودي بعد مرور سنوات؟ إن بيير غيوم نشر كتاب غارودي لكي يفتح النقاش ويتبين الصحيح من الخطأ ، والمضبوط من غير المضبوط . لماذا لا يحق لنا أن ننتقد «المؤتمر اليهودي العالمي» الذي لم يتم اختباره لا من الله ولا من البشر . غارودي درس هذا الموضوع ، وحاول أن يقيم توازناً ، ولهذا تهجمت عليه جميع وسائل الإعلام ، وقد فحص تقرير لوشتر ، وهو ليس مهندساً على حد علمنا ، لكنه هو الذي يعرف غرف الغاز في أمريكا . لماذا نعتمد على تقرير لوشتر باعتباره يجسّد حقيقة . واقعة هذه المحاكمة تشبه [مطاردة الساحرات] . المؤرخ الفرنسي مارك بلوك ، الذي مات في الحرب العالمية الثانية ، وهو ينتمي إلى الديانة اليهودية ، أكد في كتابه أنه لا يمكن صناعة التاريخ من ركام الشهادات . قانون غيسو لا يعترف بالبحث لأن البحث أصبح مهدداً . . نحن في بلد فولتير وديكارت ، وكل شيء يقاس بالإثباتات والبراهين . بدون قانون- غيسو- نكون أكثر حرية . وإيلي فيزيل يقول إن جميع الأنهار

تصب في البحر! والتقاليد اليهودية تعدّ الموت ميزة من ميزات تاريخها ، وينبغي ترك الموتى نائمين دون طرح الأسئلة عليهم! إن مصادر دراسة غرف الغاز تكاد تكون نادرة . وعندما تمت ترجمة كتاب أرنو ميللر عن «الحل النهائي» فيما يخص اليهود ، فالعبارات الصحيحة تم حذفها في الطبعة الفرنسية . وفي ذلك إنكار لطبيعة العلوم . إنهم يرفضون التحقيق العلمي . أقصد بهم أعداء غارودي . لو قلنا إن الفلسطينيين يبادون على يد الإسرائيليين كما يقال إن اليهود أُبيدوا على يد الألمان لقامت القيامة! ماذا يعني تعبير «رابطة المحامين اليهود» ، وهل يمكن أن نقول «رابطة المحامين غير اليهود» . . لكننت قد مثلت أمام محكمتكم في هذه القاعة . إن ناشر كتاب غارودي بيير غيوم قال كلمة حكيمة : «إن اليهود كالآخرين لكن بعضهم لا يعرف ذلك» . الشك/ الاحتجاج/ البحث العلمي/ غاليلو/ أصبحت كلمات وأحداثاً ساخرة الآن . أصبح لا يحق لنا أن نشكّك في أشياء كثيرة . لكي أقول : يعيش الشّك/ يعيش الاحتجاج/ يعيش فولتير .

* ممثل «اتحاد المحامين المغاربة» :

لم نأت إلى هنا بإيعاز من أحد ، بل جئنا طواعية لكي ندعم غارودي باسم حقوق الإنسان ، ولا نريد أن نعالج جوهر الموضوع لأن زملاءنا المحامين الفرنسيين قاموا بعملهم على أتمّ وجه . لقد اندهشت كثيراً من رابطة- مرآب- التي وقفت للدفاع عن قضية المهاجرين العرب ضد السيد جان- ماري لوبين و«الجبهة الوطنية» اليمينية المتطرفة ، وهي ترفع اليوم دعوى قضائية ضد روجيه غارودي ، وضد حرية الفكر . واتحاد المحامين العرب يجد هذه المحاكمة غير قانونية ، ولا يمكن أن يكون غارودي معادياً للسامية لأنه يؤمن بأن العرب واليهود هم أبناء إبراهيم . ولا يمكن أن نكون ضد أنفسنا . إنها الأديان التوحيدية التي لا يمكن أن نقف ضدها . عندما تكون مسلماً يجب أن تتقبل الديانتين الأخريتين . لقد انصب الهجوم على غارودي عندما اعتنق الإسلام ، لا أرى كيف يمكن لجمعية حقوق الإنسان أن تتقبل قانوناً مثل قانون- غيسو- قد يمكن أن يطبق هذا القانون في العالم الثالث ، ولكن ليس في فرنسا . لا يمكن أن نتخيل قانوناً من هذا الطراز . لماذا لا يعترض هذا القانون على التشكيك في مجازر أخرى مثل الكمبوديين أو الهنود الحمر أو مجزرة قانا . مئات من الأطفال والشيوخ والنساء ماتوا دون أن يهاجموا الإسرائيليين بالحجارة . هاجموهم بالقنابل ، وبمعرفة سابقة . هؤلاء الناس أُبيدوا لا لشيء إلا لأنهم فلسطينيون عرب ،

أليس هذا عملاً إجرامياً وعنصرياً؟ أليست هذه جرائم ضد الإنسانية؟ ولكن عندما نحاول البحث في تفاصيل التاريخ سرعان ما نتحوّل إلى مجرمين! الإسرائيليون يكسرون أذرع الأطفال أمام شاشات التليفزيون . الجرائم تقترف بحق الشعب الفلسطيني كل يوم . وهل تعتقدون أن قانون- غيسو- ينسجم مع حقوق الإنسان؟ يجري تدمير كل التقاليد الإنسانية في القدس حالياً . وهذا لا يُعدّ جريمة ضد الإنسانية . عندما نتقبل عنصرية واحدة نتقبل جميع أشكال العنصرية . يمكن الاحتجاج على كل الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، وضد جميع أجناس البشر ، وضد جميع الأديان دون تفريق ، ثمة استخدام إعلامي وسياسي للأحداث ، وكل ذلك من أجل إخفاء ما يحصل في فلسطين وما يحصل ضد السلام ، لا يمكن أن نكسر أذرع الأطفال أمام شاشات التليفزيون في بلد ديمقراطي . ليس صحيحاً ما يروّج عن الخلط بين الصهيوني واليهودي . ثمة مستشارون يهود يعملون مع ياسر عرفات . اليهود يعيشون بحرية كاملة في الوطن العربي ، سواء في مصر أو سوريا أو العراق ، ويتمتعون بالحقوق ذاتها كالآخرين ، ولكن ثمة لعبة سياسية تُحاك وراء كل ذلك . نطالب باسم «جمعية المحامين العرب»- فرع المغرب- بإقرار العدالة في قضية غارودي .

* ممثل «اتحاد المحامين المصريين» :

أتقدّم بشكري الجزيل إلى العدالة الفرنسية التي شرفتني بالتعبير عن آرائي . كما أتقدّم بالشكر الجزيل لجاك فيرجيس الذي وافق على مساهمتي .

ولا أريد الدخول في صلب هذه المحكمة الاستثنائية ، بل أريد التعبير عن دعمي لغارودي . لقد أصبحت حرية الفكر ضحية . . وأين؟ في فرنسا! وهل يمنعنا هذا القانون من التشكيك في كل شيء؟ الحقائق التاريخية تتمتع بالنسبيّة ؛ وقد أمضت فرنسا سنوات طويلة في تأسيس قواعد الفكر الحر . غارودي رجل مهم في نظر العالم بأكمله ، لا يمكن أن نكون مسلمين دون تقبّل الديانتين الأخريين : اليهودية والمسيحية . الهجوم الذي تعرّض له غارودي نابع من حقيقة اعتناقه الإسلام ، وهذا في حد ذاته موقف عنصري . إنه الرجل الذي وهب نفسه للبحث عن الحقيقة ، والحقائق نسبية وغير مطلقة ، تقبّل مخاطر هذه المغامرة الفكرية ، وهو يهدف إلى أسمى من ذلك ، وجرأته وصلت إلى أنه انتقد بعض الجوانب والممارسات في الإسلام الذي اعتنقه ، لذلك هاجمه الأصوليون الذين لا يؤمنون إلا بحقيقة واحدة ، فلماذا لا ينتقد بعض الجوانب في اليهودية مادام همه هو البحث عن الحقيقة .

* محامي دفاع غارودي :

– حضرة القاضي ، أشدُّ على يدكم للخوض في تفاصيل هذه المحاكمة صعبة المراس المليئة بالاتهامات العديدة : قانون غيسو/ الاحتجاج على جرائم مقترفة ضد الإنسانية/ الهولوكست/ وغيرها . إننا أمام تأسيس حقائق تاريخية . تعلمت في هذه المحكمة أشياء طريفة من قبل فريق الادعاء العام ، منها أن أفريقيا تقع وراء الأطلسي/ والهنود أُبيدوا في أفريقيا/ والإسلام دين مسيحي- يهودي/ ورابطة «محامون بلا حدود» تكافح ضد العنصرية/ والنساء العرب يعشن في عبودية .

يبدو أن المبعدين والمنفيين يعيشون ذاكرتهم بشكل آخر . إننا نحترم هذه الذاكرة ، لكننا لسنا بحاجة لتقديمها في هذه المحكمة ، ويبدو أن فريق الادعاء كان يحاول اقتناص كلمة أو سطر أو عبارة يشم منها رائحة معاداة السامية . ثمة خلط تاريخي وجغرافي وثقافي خطير في هذه المحاكمة . إن فريق الادعاء لم يعبّر عن أي احترام لعمر غارودي ، ومهما كانت أفكاره فإن الرجل قد يكون بمثابة الجد بالنسبة لبعض المترافعين . المفترض الحديث مع هذا المفكر باحترام كبير وليس بسوقية كما حصل في جلسة الأمس . وفجأة يظهر لنا في المحكمة كلاوس باربي الذي لا علاقة له بهذه القضية . إنها مقارنة غير محققة . أريد أن توضحوا لي الفقرات التي تعبّر عن العنصرية والاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، إنهم يعتقدون أن القانون يحميهم ويسمح لهم بأن يتكلموا . ولكن أنتم لستم فوق القانون . هذه هي ظروف المحاكمة . يجب التوقف هنا وتقديم البراهين والإثباتات . أكد غارودي أننا لسنا أحراراً في ظل هذا القانون ، ولكننا أحرار في الكتابة . القاضي هنا ليس حاكم التاريخ . . والماكينة التي تحكم . كل فرد له رأي في التاريخ ويحاول تفسيره كما يشاء . ويكون المؤرخ ذاتياً أحياناً ، يحلّل عناصر غير معاشة . كيف يمكن أن نبعد أفكارنا عن التاريخ؟ دعونا نكتب نصوصاً عالجها العالم بأكمله . أين الحقوق في كل ذلك؟ نحن نريد أن نحتكم إلى القوانين لكنكم لا تفعلون . إنني لا أريد أن أهاجم أحداً هنا .

إن رابطة- ليكرا- تسخر من الآخرين وتعدّ نفسها فوق جميع القوانين ، ينبغي النظر إلى غارودي في كليته لا في جزئياته . تعتبر رابطة- ليكرا- أن كتاب «الأساطير . .» يحرّض على العنصرية ، وتحاسب على كلمة يهودي . ذكرت في الكتاب . وهل يتضمن قول غارودي إن ٩٠٪ من اليهود الأمريكيين يدافعون عن الصهيونية توجهاً عنصرياً؟ إضافة إلى أنه أراد أن يفرّق بين مفهومي اليهودية

الروحانية والصهيونية القبلية ، إذن والحالة هذه يجب أن نحذف كلمة (يهودي) من القاموس ، وإلاّ يجب سن قانون يحرّم على غير اليهودي استخدام كلمة (يهودي) . لا توجد براهين وإثباتات علمية على وجود العنصرية . إنها مجرّد كلمات خارجة عن سياقها التاريخي . ولذلك لا يمكن إجراء هذه المحاكمة . عندما نتكلم عن عمل فكري نطالب الحكم عليه بكليته ، مهما كانت حساسية الموضوع ، ولا بد من إجراء نقاش جدلي . رابطة «مرآب» أوردت أربعة مقاطع من كتاب «الأساطير . .» لتعدّه عنصرياً ، مثل shoah Business وتمويل بيغن لفيلم بـ ٨٥٠ ألف دولار ، وليس لفريق الادعاء أي براهين ، وعلى غارودي أن يثبت براءته . والاتهامات مثلما أنت تقول صهيوني ، لكنك تقصد شيئاً آخر .

لا يمكن محاسبة اللاوعي . المحكمة مدعوة لمحاكمة نصه وليس محاكمة غارودي وتاريخه بأكمله . هذا يقع ضمن دائرة القوانين الجزائية ، أوقفوا محاكم التفتيش . ليست هذه عدالة التاريخ . وكلما جرى الحديث عن إسرائيل نتهم بمعاداة السامية ، ولأننا لسنا يهوداً إذن لا يمكن المساس بقانون غيسو . وكذلك قرارات محكمة نورمبرغ التي لا ينبغي المساس بها ، والغاية تبرّر الوسيلة ، والهدف هو إدانة غارودي . هذا ما يطمح فريق الادعاء إلى تحقيقه . بإمكاني أن أكون ضد كتاباته لكنني لا أعترض عليه .

إن إلغاء قانون- غيسو- ضرورة لإطلاق حرية الفكر وحرية التعبير ، ليس هناك أي مبرّر قانوني لتطبيق ذلك ، ولابد من وضع هذا القانون وفقرته ٢٤ Bis على طاولة التشريح . هذا القانون يعارض قوانين حقوق الإنسان العالمية والاتفاقيات الأوروبية . يجب أن ترفض محكمتكم هذا القانون .

غارودي يحاكم على أشياء لم يقلها . وهو لا يحتج على الجرائم التي اقترفت ضد الإنسانية مطلقاً ، بل لا يريد أن يقصر هذه الجرائم على فئة أو جنس معين ، بل إنها اقترفت بالفعل ضد الإنسانية جمعاء . كتاب غارودي سياسي بالدرجة الأولى ، أفهم أن أفكاره قد تصدم البعض لكن ذلك لا يعني تقديمه إلى المحاكمة . نص غارودي يتطلب تفسيراً آخر . وقد بتّت محكمة التمييز في القضية التي رُفعت ضد غارودي ، واعترفت بأنه قدّم نقداً واضحاً للسياسة الصهيونية لدولة إسرائيل . كل أفكاره الموجودة في كتابه «الأساطير . .» كانت موجودة في مقالته عام ١٩٨٢ ، لذلك حذرت المحكمة من عدم السير في هذا الطريق . إنني أشعر بالافتخار والشرف أن

أقف إلى جانب غارودي . إنني أُدين هذه المحكمة . لو كنت أشعر ، ولو للحظة واحدة ، بأن غارودي يضمر مشاعر معاداة السامية لانسحبت من الدفاع عنه فوراً .

* فيرجيس ، محامي الدفاع :

– أثبت فريق الادعاء أنه على قدر كبير من الصلافة . إنه يطالب بمحاكمة غارودي على بعض فقرات من كتابه . وقد أثبت غارودي أنه غير معادٍ للسامية ، وهي لا تعدو أن تكون تهمة ألصقت به جوراً تماماً مثل اتهامه بالعنصرية التي هو براء منها ، إذ لا شيء يثبت ذلك . إن قانون غيسو ، والمادة ٢٤ Bis منه ، قانون إشكالي الغرض منه فرض رقابة على حرية الرأي والتعبير . هذا القانون لا يمكن تطبيقه كما قال جاك توبون وزير العدل السابق ، فالكلمات باللغة الفرنسية لها ميزات وخصوصاً في الدقة ، وهي تفرق بين المسموح والممنوع سواء بالاستعانة بالقاموس أو غيره . غارودي يتهم بالاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، ولابد لنا هنا من التساؤل : ما هو تعريف الإنسانية؟ وما هو المقصود بها؟ قد يتهمني البعض بالعقلية الرجعية . ما المقصود إذن : هل تعني الإنسانية جميع البشر أم فئة معينة منهم؟ إذا نظرنا إلى قاموس– غيسو– نراه يختزل كل الإبادات والعبوديات ويذهب إلى حد حماية اليهود وهتلر .

إذن إن قانون– غيسو– يعطي تعريفاً ومفهوماً مغايراً للإنسانية . ينبغي ضمن هذا المفهوم إبعاد قضية كل الإبادات وكل الأمم وقصرها على الأمة اليهودية فقط ، لقد ألغى اليسار العبودية قبل اليمين . ما هو تعريف العبودية في جزيرة «رينيون» التابعة . الأب غراغوار في رواية ستندال عرف العلاقة الجنسية بأنها ذات طبيعة حيوانية مع الأسود . هل هذا مقبول؟ قانون غيسو يحمي البعض ولا يحمي البعض الآخر . المؤرخ ادغار موران ، معروف بأنه ليس معادياً للسامية ، أكد أنه لا ينبغي أن نقصر المعاناة على شعب معين من دون الشعوب الأخرى . لم يتحدّث أحد عن الثوار السود أو شعب «الأبورجين» المواطنين الأصليين الذين كانوا يسكنون في أستراليا ، ويمثلون أقدم ثقافة في العالم . عندما يتحدثون عن محكمة نورمبرغ يفكرون في الآخرين . آخر جثة «للتاسماني» حنّطت في متحف عام ١٩٧٧ ، الضحايا الإثيوبيون الذين ذهبوا ضحايا في الحرب العالمية الثانية لم يتحدّث عنهم أحد ، لأنهم ذوو شعور مجعّدة ، وبشرة سوداء ، وكذلك ضحايا هيروشيما وناكازاكي . مَنْ يفكر في أولئك الضحايا؟ والكتيبة اليابانية ١٣٧ التي أبادت الصينيين . ومائة ألف ماتوا في مدغشقر

والجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية لم يتحدّث عنهم أحد .

يذكرون shoah (المحرقة) ويهملون الآخرين الذين ماتوا في المعسكرات النازية ، وماذا عن ضحايا «إعادة الأمل» في الصومال؟ رابطة «مرآب» لم تحتج على أية جريمة من تلك الجرائم ، والسبب في ذلك أن ذاكرتهم مختارة ، ألا تتذكرون قصة الضابط الإيطالي الذي اغتصب المرأة الصومالية؟ هل يحتج قانون- غيسو- ضد مذابح الصومال؟ كلا إنه يحمي ضحايا اليهود في ألمانيا فقط ، ولا يذكر مجازر الأرمن وغيرهم . أليس هذا تمييزاً عنصرياً في حد ذاته؟ فريق الادعاء يستخدم «اللغة المزدوجة» المؤرخون الشرفاء ، ومن بينهم الأمريكيون يتفقون مع سرد تاريخ اليهود لكن جميع اليهود ، وأين مذابح لبنان والبوسنة والشيشان؟ لماذا لا نتحدّث عن جميع المذابح؟

قانون- غيسو- تعسفي ضد حرية الرأي . جاك توبون أعلن هذا الخطأ السياسي على الصعيد السياسي والقانوني . من العجيب أن بإمكاننا أن نناقش جميع المحاكم إلا محكمة نورمبرغ . والآن يقام مهرجان زولا . . لماذا؟ لأنه احتج على العدالة . نحن نحارب الكليانية (الشمولية) ، أصبح لدينا نوع ما نطلق عليه «مركزية المحرقة» shoah Centrisme ليس ريمون آرون معادياً للسامية . رجال السياسة لا يتجرأون على الوقوف ضد قانون- غيسو- المؤرخ بولياكوف قال إن عدد الضحايا كان يقدر بمليونين ، لكنه لم يلاحق قضائياً لأنه يهودي ، والمؤرخ الآخر راوول هيلبرغ ، الذي يحصي عدد الضحايا اليهود بمليون وربع المليون ، لم يلاحق قضائياً أيضاً . وغارودي يلاحق لأنه فرنسي ومسلم . ولوشتر ليس مهندساً بل جلاداً لم يلاحق أيضاً فيما قاله بصدد غرف الغاز . وكذلك الخبراء البولنديون لم يلاحقوا أيضاً . غولداغن اليهودي الأمريكي كتب عن هتلر لكنه لم يلاحق . ثمة تخمينات تفوق الحقيقة ، هذا هو الوضع الذي نصل إليه مع قانون غيسو . اليوم نشهد نوعاً من «مطاردة الساحرات» . كلود كلاين ، البروفيسور في القدس قال : إن الدولة الإسرائيلية أُنشئت على الأسطورة ، لكنه لم يلاحق . ثمة أزمة ديمقراطية في إسرائيل . على سبيل المثال فإن قانون العودة يحرم منه الفلسطينيون . وقد سألت في جلسة أخرى أحد شهود فريق الادعاء : هل يسمح اليهود بدفن المسلمين في مقابرهم في إسرائيل؟ لم يجب أحد عن هذا السؤال . قانون الدم يطبق ولا أحد يعترض عليه ، الفلسطينيون يُعدّون مواطنين من الدرجة الثانية . إننا نكافح التمييز العنصري في جنوب أفريقيا لكننا لا نحاربه في إسرائيل ،

حتى زوجة رابين اعترفت بأن الأصوليين اليهود هم الذين قتلوا زوجها . يتحدّثون عن اللوبي ويلصقون ذلك بغارودي . هذا هو قانون غيسو ، وهذا القانون يعترض على الحقائق التاريخية ، ويدعم النظرة الرسمية للتاريخ . تكمن أهمية المحاكمة في أنها وضعت الثقافة الفرنسية موضع التساؤل . عندما تتشكّك فأنت مذنب كما يوحي لنا ديكارت ، ويؤكد كلود بيرنارد أن الحرب ينبغي أن تسود الطب وكل شيء ، والشّك ليس جريمة بل على العكس يؤدي إلى مواطن الضوء ، ما معنى الاحتجاج على الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، وكذلك إنكار وجود غرف الغاز؟ دون أدنى شك فإن قاموس روبير الذي استخدم في هذه المحكمة لا ينفعنا في شيء ، وما ينفعنا هو تفسير هذه الكلمات ، سمعت بالأمس مَنْ يقول «القانون هو القانون» ، ولكن يحق لي أن أقول إن هذا القانون عنصري وفاشي ، كان ذلك يتكرر في عهد فيشي النازي ، ماذا يعني أن نقول «القانون هو القانون» . . هذا هراء ، يجب ألا يخضع غارودي لهذا القانون . غارودي لا ينكر الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، بل يناقش الوسائل التي تم بها تنفيذ هذه الجرائم ، وغارودي لا يحتج على هذه الجرائم بل يدينها . هذا القانون وصمة عار على وجه فرنسا ، ومهما كانت نتائج محكمتكم فإننا لن نتراجع عن معركتنا . لم يحدث أن رأينا في غير فرنسا ولادة مثل هذا القانون .

* غارودي :

- أود أن أقدّم شكري إلى المحامين المدافعين عني . تعاطفت كثيراً مع السيد بالون الذي سرد ذكرياته الأليمة في معسكرات النازية! لكنني أجد أن ذلك لا علاقة له بالمحكمة ، إضافة إلى أن هذه الشهادة لم تضف شيئاً جديداً إلى القضية . تارديرو ، الذي قدّم شهادته من طرف الادعاء العام ، يقتطف مقطعاً من كتابي وهو : «أن تكون يهودياً يعني أن تنتمي إلى إسرائيل» . . هذه العبارة لا تعود إليّ بل هي لباحث يهودي . وثمة محام آخر يتحدّث عن تفاصيل اتصالي بأحد الرهبان من أجل إقناعه بتأييدي كما يدعي ، وأنا أتساءل : «هل كانت اتصالاتي الهاتفية الخاصة تخضع للإنصات التليفوني؟» وثمة محام آخر من فريق الادعاء قال إن العرب رفضوا وجود دولتين في إسرائيل ، إلا أنني قلت- كما أكدت ذلك في كتابي- إن أرض الميعاد لا وجود لها ، بل هناك قوانين صادرة من الأمم المتحدة ، وآخر ذكر أن تظاهرة تأييد لي انطلقت أمام السفارة الفرنسية في القاهرة ، والحقيقة أن وفداً من الكتّاب قام بتلك التظاهرة . وقال نجيب محفوظ ، صديقي ، إن هذه المحاكمة تسيء إلى وجه فرنسا ،

وقد قلت مراراً إن كتابي «الأساطير . .» ترجم إلى ٢٩ لغة أجنبية دون أن يجد مشكلة تذكر إلا في فرنسا وإسرائيل . أي أن الكتاب لم يجد أي اعتراض في ٢٩ بلداً . إنني أحارب جميع أشكال الأصولية . وفي عام ١٩٧٢ فُصلت من الحزب الشيوعي لأنني صرّحت بأن الاتحاد السوفييتي ليس بلداً اشتراكياً . وفي كتبي الثلاثة الأخيرة حلّلت الأصولية الكاثوليكية الرومانية ، وفي كتابي «هل نحن بحاجة إلى الله؟» قلت إن يسوع المسيح لا يمكن أن يكون مؤسساً للهيمنة السائدة اليوم ، وفي كتابي «عظمة الإسلام وانحلاله» أدنت النزعة الإسلاموية المريضة . أما في كتابي «الأساطير . .» فحلّلت الهرطقة الصهيونية التي تحل دولة إسرائيل محل الله ، والتي تنفي ، بالاعتماد على القبلية القومية ، ذلك الإيمان الشامل والعالمي لكبار أنبياء بني إسرائيل . ولما لم يجدوا أية حجة استعانوا برجال الشرطة وقدّموني إلى العدالة .

أما ما يخص محكمة نورمبرغ فاعتمدت على تعريف رئيسها المدعي العام للولايات المتحدة ، روبرت جاكسون ، حيث قال : «إن الحلفاء مايزالون من الناحية الفنية في حالة حرب مع ألمانيا ، ومن حيث أن محكمتي هذه محكمة عسكرية ، فإنها تمثّل متابعة واستكمالاً للجهود الحربية للأمم المتحالفة» ، قلت إنها محكمة استثنائية . لا أعتقد أن التشكيك في محكمة نورمبرغ يُعدّ تجريحاً .

وفي كتابه عن الأيديولوجيا الفرنسية ، يحاول برنار هنري ليفي أن ينفي إثبات أن الفرنسيين أنشأوا أيام فيشي نظاماً فاشياً على الطريقة الفرنسية ، وعنده أن فيشي ثمرة للثقافة الفرنسية : «إنها الثقافة الفرنسية كلها ، التي تبرهن على أصالتنا في الدناءة والنذالة ، والتي تجعل من فرنسا وطناً للاشتراكية الوطنية» ، وهذا الرأي من شأنه أن يسيء إلى صورة فرنسا . إنني أرى علامات المكارثية وآثار محاكم التفتيش .

ويتهمني أحد محامي فريق الادعاء بأن الشيخة فاطمة بنت مبارك تبرعت لي بمبلغ قدره ٥٠ ألف دولار ، أريد بهذه المناسبة أن أقدّم جزيل شكري لسموها ، وأتمنى أن تكون نموذجاً يحتذى به ، كما أريد أن أوضح أن هذه المنحة لا تذهب إلى جيبي الخاص ، بل تذهب إلى المركز الثقافي الإسلامي الذي أنشأته في إسبانيا . وكذلك سمعت بأنباء منح أخرى جاءت من تشيلي والهند . ومنذ أيام صدر كتاب عن «دور اليهودية في فرنسا» يوضح حقائق كثيرة ، إلا أنه سحب من المكتبات . ومما يذكره من حقائق ، أن للصهيونية مكاتب تمثلها في عواصم العالم ، وسفير إسرائيل لا ينفصل عن عمل هذه المكاتب . ولا أريد هنا تكرار ما قاله جاك فيرجيس . إن رابطة- ليكرا-

التي رفعت ضدي هذه الدعوى القضائية تتناسى احتلال إسرائيل للقدس والجولان وجنوب لبنان . إنها تصمت أمام هذا الاحتلال الاستعماري . إن عدد أفراد الجالية اليهودية في فرنسا لا يتجاوز الـ ٦٠٠ ألف نسمة تقريباً ،لكن ٢٠٪ منها فقط ممثل في المنظمات اليهودية .

وفي نهاية المحاكمة ، قال ناشر كتاب غارودي «الأساطير . .» الطبعة الأولى : «إن الحكمة محمّلة بالمشكلات العديدة ، ولا أريد أن أضيف إليها مشكلات أخرى» ، ثم اختتم القاضي المحكمة قائلاً : إن قرارات الحكم في قضية غارودي ستصدر في ٢٧ شباط/ فبراير .

خاتمة

دفاعاً عن غارودي..

ليست هذه هي المرة الأولى التي يحاكم فيها المفكر الفرنسي روجيه غارودي ، بل سبقتها محاكمة أخرى عندما كتب مقاله الشهير ، مع الأب بيير والراهب إيتين ماتيو ، في صحيفة «اللوموند» بتاريخ ١٧ حزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢ عندما كان جاك فوفيه رئيساً لتحريرها . ومنذ ذلك الحين بدأت الحركة الصهيونية تشن حملتها المسعورة ضد هذا المفكر ، وكانت وراءها رابطة- ليكرا- أي الرابطة العالمية لمكافحة العنصرية ومعاداة السامية ، وهي المركز اللوبي الصهيوني في فرنسا . وقد رفعت ضده دعوى قضائية متهمة إياه بالعداء للسامية والعنصرية . وقد استطاع المفكر الفرنسي أن يدحض تلك الدعوات ثلاث مرات . وقد اعتبر القاضي آنذاك أن نقد سياسة دولة ما والأيديولوجية التي تستوحيها ، أي الصهيونية ، ليس له علاقة بمعاداة السامية والعنصرية .

واليوم يكرّر التاريخ نفسه ؛ لأن كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» والذي تُرجم إلى ٢٩ لغة عالمية ، كتاب سياسي محض لا يسعى إلى مهاجمة الديانة اليهودية ، وقد أوضح المفكر أن الصهيونية هي هرطقة وبدعة في الديانة اليهودية . وقد قال غارودي أثناء المحكمة الجزائية/ الغرفة السابعة عشرة في قصر العدالة في باريس ، بصريح العبارة : «إنني أحترم الديانة اليهودية ،لكنني أحارب السياسة الصهيونية» . لقد كشفت هذه المحاكمة أن الصهيونية ماتزال تستخدم كل أقنعتها ودينها وتراثها وضحاياها ومآسيها ، وتستوحيها من معاناة الشعب اليهودي لتنفيذ مخططاتها . فقد قال غارودي لأحد محامي فريق الادعاء عبارة بليغة ، أراد الآخرون أن يعتبروها خرقاً آخر ينبغي تسجيله في ملفات الدعوى ضد هذا المفكر ، وهي : «إنني لا أصنع محلاً تجارياً على عظام أسلافي» ، وقد استشهد غارودي بعبارة لتيودور هيرتزل ، مؤسس الصهيونية : «إن المسألة اليهودية ليست بالنسبة لي مسألة اجتماعية ولا مسألة دينية بل هي مسألة قومية» .

وقد أفحم غارودي فريق الادعاء ، وكان رأيه مقنعاً ومنطقياً في نظر أغلبية الحاضرين في قاعة المحكمة بقوله : «إنني انتقدت الأصولية والتعصب في جميع

الأديان . . دار اليسوعيين دعتني لمناقشة ذلك في الدين المسيحي ، أما بالنسبة للأصولية الإسلامية فقد وجّهت لي الدعوة لمناقشتها من طرف ثمانية بلدان إسلامية ، وفي كلتا الحالتين فإن السجال الذي أثارته أطروحاتي فتح المجال أمام حوارات مثيرة كانت غنية لي للغاية . وعندما كتبت عن الأصولية الصهيونية تمّ استدعاء رجال الشرطة وقدّموني إلى العدالة ، وباشروا بحملة تشهيرية ضدي على الصعيد الإعلامي» .

لقد كانت المحكمة الحالية دقيقة للغاية ، لأن القاضي استعرض القضية من جذورها ، من الكلمة الأولى التي ابتدأ بها عنوان كتاب غارودي «الأساطير . .» ليكون دقيقاً قرأ تعريفات هذه الكلمة ، استخداماتها ومعانيها المختلفة .

أما التهم الموجّهة إلى غارودي في هذه المحكمة فهي كالتالي :

١- الـ Negationisme ومعناها [نفي وجود غرف الغاز أثناء الحرب العالمية الثانية] .

٢- الـ Revisimnniste ومعناها [الدعوة إلى إعادة تقييم كتابة التاريخ اليهودي] .

٣- التشكيك في إبادة هتلر لستة ملايين يهودي ، ومن ثم التشكيك في الجرائم ضد الإنسانية . . والهولوكست!

٤- استخدام مصطلح «الحل النهائي» للمسألة اليهودية .

٥- التشكيك في قرارات محكمة نورمبرغ .

٦- قراءة التوراة .

٧- الذهاب إلى أبعد من نقد الصهيونية والسياسة الإسرائيلية الحالية .

٨- التهجم على اللوبي الصهيوني في فرنسا .

٩- الادعاء بتعاون الصهيونية مع النازية .

١٠- «التمييز العنصري» واستخدام مصطلح «التطهير العرقي» .

١١- التشكيك في مصطلح «الشعب المختار» و«الأرض الموعودة» .

١٢- التهجم على التراث والماضي اليهوديين .

١٣- اللهجة الاستفزازية التي ألّف بها غارودي الكتاب .

١٤- الإساءة إلى «قانون غيسو» .

لقد أجاب روجيه غارودي عن جميع الاتهامات التي وجّهها إليه فريق الادعاء ، الذي يتكوّن من المنظمات والجمعيات اليهودية سالفة الذكر ، وأبدى تماسكاً فكرياً فائقاً في جميع ردوده ، خصوصاً ما يتعلّق بالأطروحات التي عرضها في كتابه

«الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ، موضوع المحاكمة .

أكد غارودي أنه لا يرفض المعتقدات الدينية التي جاءت بها التوراة ، وإنما يرفض القراءة الصهيونية القبلية والقومية لنصوص التوراة ، كما رفض في المحكمة الاعتراف بفكرة «الشعب المختار» الذي اختاره الربّ لتبرير جميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح . وذهب غارودي إلى تفسير فكرة انتقاده لاسرائيل ، لا تدميرها كدولة بل إبطال صفة القداسة عنها ، وأن إسرائيل ليست أرضاً «موعودة» بل مغتصبة .

كما انتقد أسطورة الهولوكست والاستغلال السياسي لها ، وإضفاء القداسة على الضحايا ، وقد استفاد الصهاينة من معاناة اليهودي من أجل إنشاء دولتهم على ركام العظام . وقال غارودي إنه لا توجد وثائق يقينية بأنه تمت إبادة ستة ملايين يهودي في معسكرات الاعتقال النازية . وألقى الضوء على مسألة التواطؤ بين الصهيونية والنازية ، واستشهد بآراء تثبت تلاقي الهدف العنصري عند كلا الطرفين ، إذ لم تكن مسألة إنقاذ اليهود من أولويات الحركة الصهيونية بقدر ما كانت تسعى إلى تأسيس دولة .

وأكد غارودي أن إعادة تقييم كتابة التاريخ اليهودي أو أي تاريخ ، لا يقوم بها إلا العلماء ، وهو ، أي التاريخ اليهودي هو ككل علم من العلوم ، قابل للمراجعة والتنقيح طبقاً لاكتشاف عناصر جديدة . وانتقد «الارهاب الفكري» الذي حاول البعض من اليهود فرضه على الآخرين . فلا يمكن الوصول إلى أية نتائج دون القيام بالبحث .

كما أكد ضرورة إزالة «القداسة» عن نصوص محكمة نورمبرغ ، وأن أرقامها عن الضحايا اليهود ليست معصومة من الخطأ . فقد أغفلت المحكمة موت ١٧ مليوناً من السوفييت و٩ ملايين من الألمان ، وأضفت القداسة على الضحايا اليهود (الهولوكست) ، وأنكرت إضفاء القداسة ذاتها على الآخرين .

كما أشار إلى أن الصهيونية كانت ، وما تزال ، تلوّح بشبح معاداة السامية للإقناع بأنها تهديد مستمر ضد إسرائيل لغرض تقديم العون لها بشكل دائم .

واستشهد غارودي بحاخام فرنسا الأكبر ، جوزيف سيتروك ، الذي قال أمام رئيس وزراء إسرائيل الأسبق إسحاق شامير «إن كل يهودي فرنسي هو ممثل لإسرائيل ، وتأكدوا أن كل يهودي في فرنسا يدافع عما تدافعون عنه . . رغم أن فكرة الولاء المزدوج لم تدر في خاطري . .» وهذا ما يؤكد وجود اللوبي الصهيوني وتحكمه في وسائل الإعلام . وأكبر دليل على ذلك أن المحاكمة الحالية لم تجد لها أصداء

حقيقية في وسائل الإعلام الفرنسية المرئية والمسموعة ، واكتفت الصحف الفرنسية بتنويه مختصر لا يجسد بأي شكل من الأشكال فداحة الفضيحة ، وتعسف قانون غيسو ، الذي أضاف المادة ٢٤ إلى قانون حرية الصحافة لعام ١٨٨١ وجاء فيها : يعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ . . أي بالسجن عاماً كاملاً وغرامة قدرها ٣٠٠ ألف فرنك فرنسي ، كل مَنْ ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية . من الواضح جداً أن اللوبي الصهيوني يمتلك الوسائل كلها وقد تمّ الاعتداء على المكتبة التي توزّع كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية» ، والكائنة في شارع مالبرانش في الحي اللاتيني ، وأخبرني مديرها بذلك مع إعطائي عدداً من الوثائق التي تخص الاعتداءات وتهديدات حرق المكتبة ، والتهديد بالاغتيال عن طريق التليفون . ومنذ ذلك الحين ، أي منذ صدور كتاب «الأساطير . .» ، وقبل ذلك منذ نشر غارودي مقاله ضد الغزو الإسرائيلي للبنان ، بدأت عملية خنق أنفاس هذا المفكر في وسائل الإعلام ، ولم تجد مقالاته طريقها إلى الصحافة ، وأغلقت جميع أبواب النشر في وجهه بعد أن نشر أكثر من ٥٠ كتاباً في كبريات دور النشر الفرنسية . وبدأ ينشر كتبه اللاحقة على نفقته الخاصة . كما حُرِّم عليه الظهور في التليفزيون! هذه حقائق نوردها للتذكير ويعرفها القاصي والداني . ومن المعروف أن السكان اليهود في فرنسا لا يشكلون سوى ٢ في المائة من الشعب الفرنسي ،لكن الصهيونية تهيمن على أغلبية متخذي القرار السياسيين في أجهزة الإعلام والتليفزيون والإذاعة والصحافة ، كما ذكر غارودي ذلك في أكثر من مرّة .

لم يكن دفاع فريق الادعاء يتمتع بأية مصداقية ، سواء في توجيه اتهاماته إلى غارودي أو في الدفاع عن «قضيته» ، وظل متشبثاً بالأطروحة الكلاسيكية ، وهي معاداة السامية ، التي لم يكن لها أي أثر في كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» . ولم يتقدّم من فريق الادعاء سوى شاهد واحد ، وهو الباحث جاك تارديرو ، الذي كرّر الأطروحة ذاتها ، على أساس أن غارودي يمثّل «معاداة السامية الحديثة» ، وأن «استخدامه كلمة أو صفة الصهيونية لم يكن إلا قناعاً»! واعتبر التشكيك في شرعية دولة إسرائيل «تهمة» في حق غارودي يحاسب عليها القانون ، وذهب إلى أنه لم ينتقد السياسة الإسرائيلية ، بل ينتقد حق إسرائيل في الوجود!

ولم يتطرق الشاهد– الباحث الوحيد في المحكمة – إلى حق الشعب الفلسطيني

في أرضه ووطنه وبلد أجداده، وكأنه شعب لا وجود له، وكرّر الأطروحات الصهيونية «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

كان فريق الادعاء لا يمتلك أي منطق يؤهله للخوض في حوار فكري- جدلي سواء مع «المتهم الأول» المفكر غارودي أو شهود المدعى عليه، الذين كان لهم وزن فكري مشهود من أمثال: الأب ليلونك، والراهب بارمانتيير وبيبيرغيوم، والسينمائي غوتييه رينييه، والمناضل الفلسطيني طاهر شكري، ولم يكن أولئك الشهود طارئين في هذا المحفل، بل تمتد معرفتهم بغارودي إلى سنوات طويلة، عرفوه مناضلاً ومكافحاً ومفكراً وشهدوا على تاريخ نضاله الناصع، ابتداء من اعتقاله في معسكر التعذيب في- جلفا- في عام ١٩٤٠ في الجزائر، مروراً بنضالاته في الحزب الشيوعي الفرنسي، وصولاً إلى مرحلة الوقوف مع الشعب اللبناني أثناء غزو إسرائيل، والشعب الفلسطيني في كفاحه العادل. وفي صدد تدعيم موقفه، أصدر روجيه غارودي كتاباً أطلق عليه «شهودي» يستعرض فيه رسائل الدعم والتأييد الفكري لكبار المفكرين الكتّاب والمفكرين الفرنسيين، أمثال رومان رولان، جان بول سارتر، غاستون باشلار، سان جون بيرس، ايلوار، آراغون، بيجار، والأب بيير، الأب شينو، سنغور، فرانسوا مورياك، دوم هيلدر كامارا، مواتسيبيه، موريس توريس، وحتى الجنرال ديغول وغيرهم.. ولا يعقل أن يكون جميع أولئك الكتّاب والمفكرين والقادة على خطأ في تقييمهم لهذا المفكر الفذ. يقول غارودي بصدد أولئك: «إذا ما أقدمت اليوم على نشر رسائل هؤلاء، الذين يمثّلون ثقافة هذا القرن باعتبارهم «شهوداً» لي، ذلك لكي أبيّن أنني لست بحاجة للدفاع عمّا يلصق بي من «معاداة السامية» التي اعتبرها بمثابة جريمة. لقد برهنت طيلة حياتي (كما توضح هذه الرسائل) بأنني أسعى إلى تنظيم حوار الحضارات».

إن فريق الادعاء، الذي يتكوّن من المنظمات اليهودية ذات التوجّه الصهيوني، لم تفهم غارودي أو بالأحرى إشكالية هذا المفكر. على أية حال إن فريق الادعاء، الدوغمائي المنغلق، لا يمكن أن يفهم عبارة غارودي القائلة: «إنني أدخل إلى الإسلام ماسكاً بيد الإنجيل وباليد الأخرى- رأسمال- ماركس» كما لا يفهمون عبارة أخرى قالها ملخصاً هذه الإشكالية كالتالي: «لقد حاربت نزعة التطرف الديني لدى المسلمين والمسيحيين واليهود، إلاّ أن اللوبي الصهيوني تظاهر بأنه يتكلّم باسم جميع اليهود، واستدعى عليّ رجال الشرطة وقدّمني للعدالة». وقد توضحت أبعاد

ذلك أثناء المحاكمة والمرافعة ، إذْ ظل فريق الادعاء يراوح مكانه دون أن يتوصل إلى نتائج ملموسة في اتهاماته . كما لم يفهم فريق الادعاء التحوّلات الفكرية عند غارودي ، والتي يعتبرها طبيعية في منطق التغييرات الحاصلة في العالم .

وتظهر ، بين الحين والآخر ، شائعة أو دعوى تفيد أن المفكر غارودي قد ارتد عن الإسلام الذي اعتنقه في عام ١٩٨٣ ، الغرض منها تشويه مواقف هذا المفكر الذي يدعم الحق العربي الفلسطيني . إنه يربط الإيمان الإبراهيمي [اليهودي- المسيحي- الإسلامي] بالفعل السياسي ، وفي أحسن مناهجه التحليلية العلمية . ومن هنا يفهم البعض خطأ العبارة التي قالها المفكر إنه لم يتخل عن المسيحية والماركسية ، إذ غالباً ما يتم قطع ذلك عن معنى السياق .

إن تأمل قضية غارودي يبين لنا أن محاكمة الفكر واحدة ، منذ محاكم التفتيش الإسبانية إلى مطاردة الساحرات أثناء المكارثية ، وصولاً إلى المحاكم المعاصرة التي تفرض قيودها على حرية البحث والتنقيب والمراجعة ، وعلى الخصوص عندما يتعلّق الأمر بتاريخ واحد فقط هو تاريخ اليهود!

غالباً ما تطوي التهم الموجّهة إلى «المذنبين» في أحشائها أقنعة من التهم . . أنذاك يتولد بين القاضي و«المذنب» نوع من العلاقة النفسية المتوترة باتجاه غارودي (٨٤ عاماً) في عام ١٩٩٨ فهي «معاداة السامية» التي هي عند غارودي تعني نقد الصهيونية والسياسة الإسرائيلية القائمة عليها ، إذ إن غارودي حُوكم على استخدام حتى لفظة (أسطورة) . . كيف يتجرأ مفكر في زمننا أن يقول «أسطورة أرض الميعاد» و«أسطورة الستة ملايين في المحرقة» و«أسطورة عدالة محكمة نورمبرغ» وغيرها من الأساطير .

عندما سأل القاضي ، بكل سذاجة ، من أنت يا سيد غارودي . . أذكر لنا اسمك وعملك ومكان إقامتك . . وهو سؤال تقليدي يتم طرحه في المحاكم ، كان القاضي يتصاغر فيما يكبر المفكر . من هو غارودي؟ مؤلف ٤٥ كتاباً في جميع ميادين المعرفة لا مجال لذكرها هنا . . لم يكن فريق الادعاء يتمتع بأية لياقة أو احترام ، لا لسن المفكر غارودي ولا لعلمه وثقافته . . أحدهم قال له ، وهو يمد إليه يد الاتهام على طريقة المحاكم الأمريكية أو المصرية : هذا الماثل أمامكم مجرّد نازي جديد . . ألا تخجل أن تؤلف كتاباً مثل هذا؟ أتريد أن تقوم بمحو الذاكرة اليهودية؟ إذهب إلى متحف الهولوكست في نيويورك . . أنت تتاجر بكتابك وتتهمنا بالمتاجرة

على عظام أسلافنا . . إلى آخر القائمة .

أحد محامي الدفاع طرح فكرة طريفة قائلاً : لماذا نسمح بحرية البحث في الطب ولا نسمح بحرية البحث في التاريخ؟ لم يجب أحد . إن ذنب غارودي أنه كان من الأصوات القليلة بين المثقفين الفرنسيين الذين أدانوا الغزو الإسرائيلي للبنان ومجازر صبرا وشاتيلا في عام ١٩٨٢ ، ومنذ ذلك التاريخ تغيّر كل شيء بالنسبة لهذا المفكر .

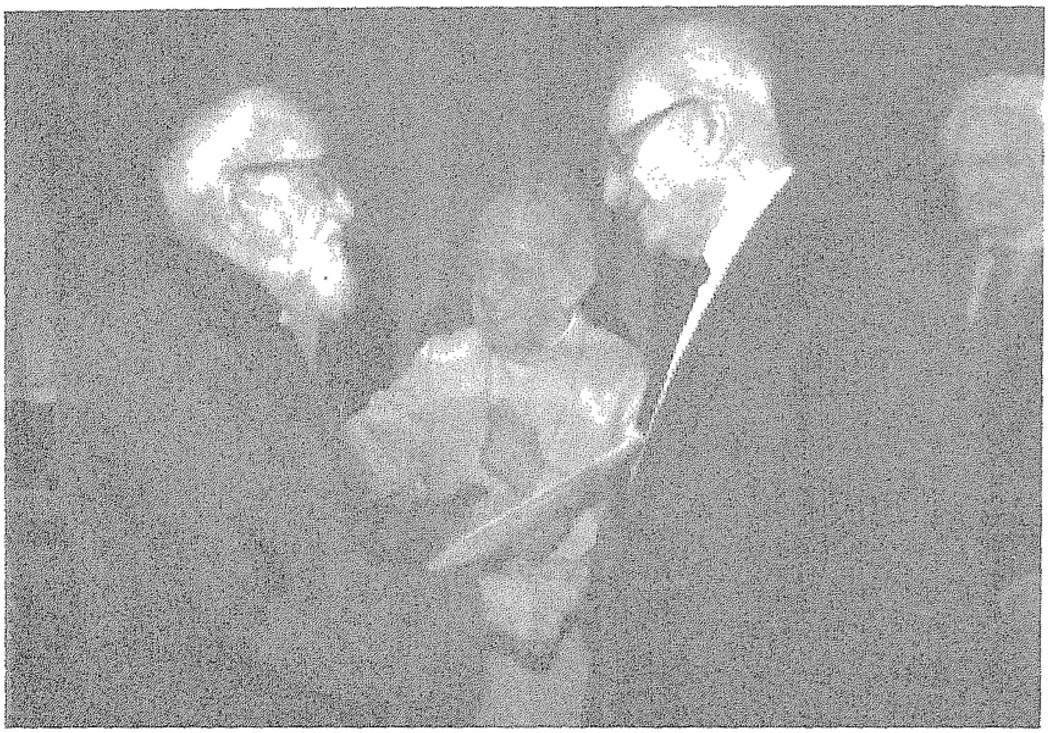
وبدأت الدور الشهيرة ، أمثال (غاليمار) و(سوي) و(فلاماريون) وغيرها من الدور العريقة التي نشرت معظم كتبه ، تغلق أبوابها في وجهه ، ومنذ ذلك الحين بدأت صناعة المذنب . ألم يحاكم غارودي بموجب قانون غيسو- فابيوس ، الذي سنّه الشيوعيون والاشتراكيون؟

غارودي حُوكم لأنه وقف ضد العقلية التي تساند جمود التاريخ والقهر واغتصاب الأرض . . إنه لم يقل سوى إن إسرائيل تستخدم كل آلامها وكل مآسي الشعب اليهودي من أجل تبرير سياستها القائمة على تضخيم عقدة الاضطهاد . . لغرض فرضه على شعب آخر لا مسؤولية له فيما جرى .

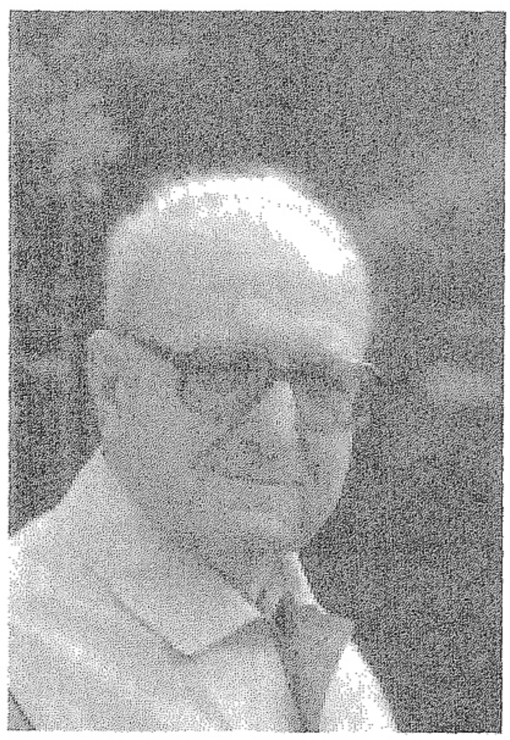
غارودي ثار ضد مسار التاريخ الجامد الذي كتبه المنتصرون ، واتهم بـ «معاداة السامية» . . ثمة من لم يحضر تفاصيل محاكمة غارودي ، ويحاول تقديم نظريات التبرير . . لا أحد يستطيع أن يفهم معنى هذه المحاكمة لأنها كانت تتجسّد في إيماءات فريق الادعاء ، وصراخه ، ونظراته المزدرية ، وحركاته ، وتأليبه للقاضي حتى ينزل بالمفكر الفرنسي الشهير أقصى العقوبات . . أشياء كثيرة ترتبط بالأحاسيس داخل القاعة لا يفهمها من كان خارجها!

شاكر نوري

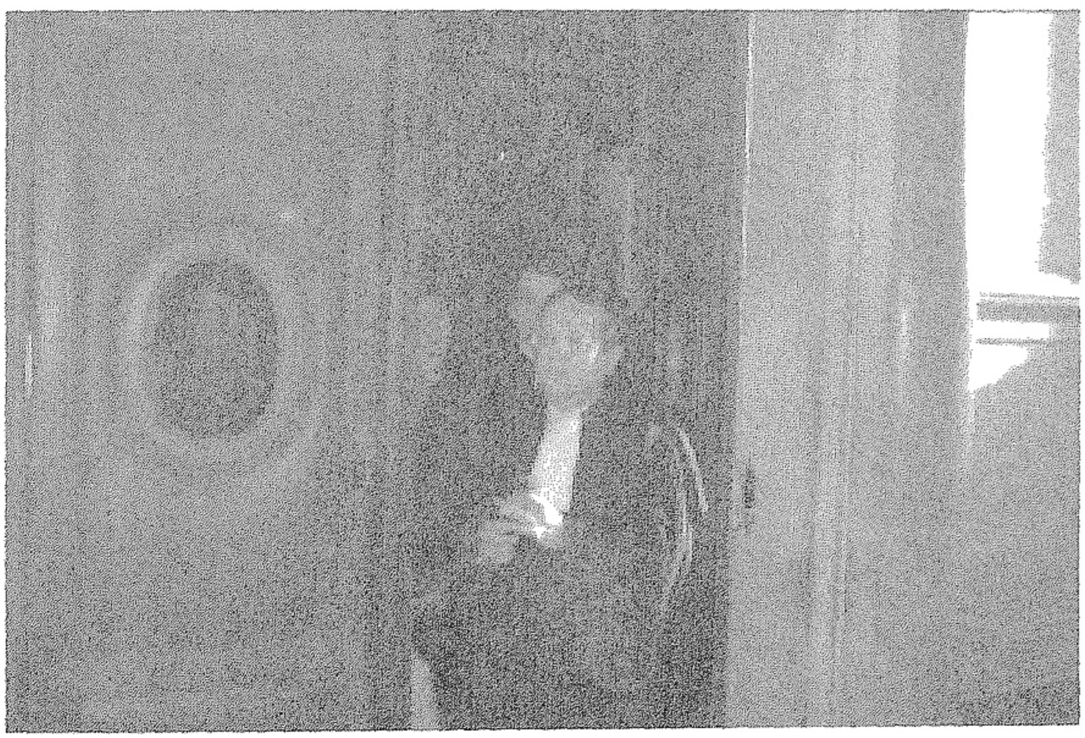
باريس ١٩٩٨-٢٠٠٥









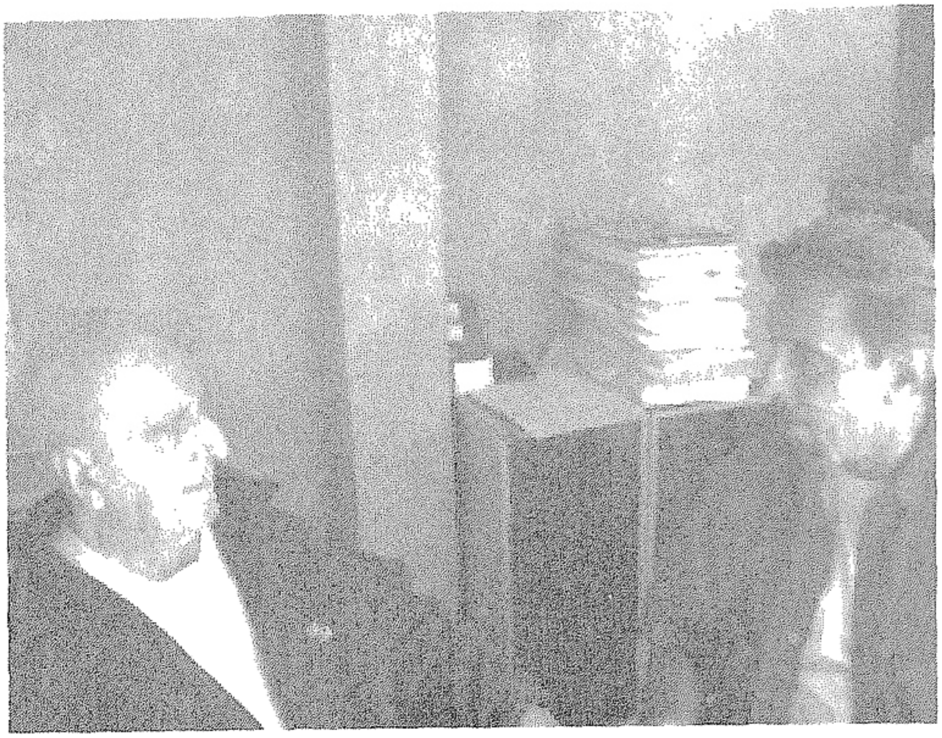




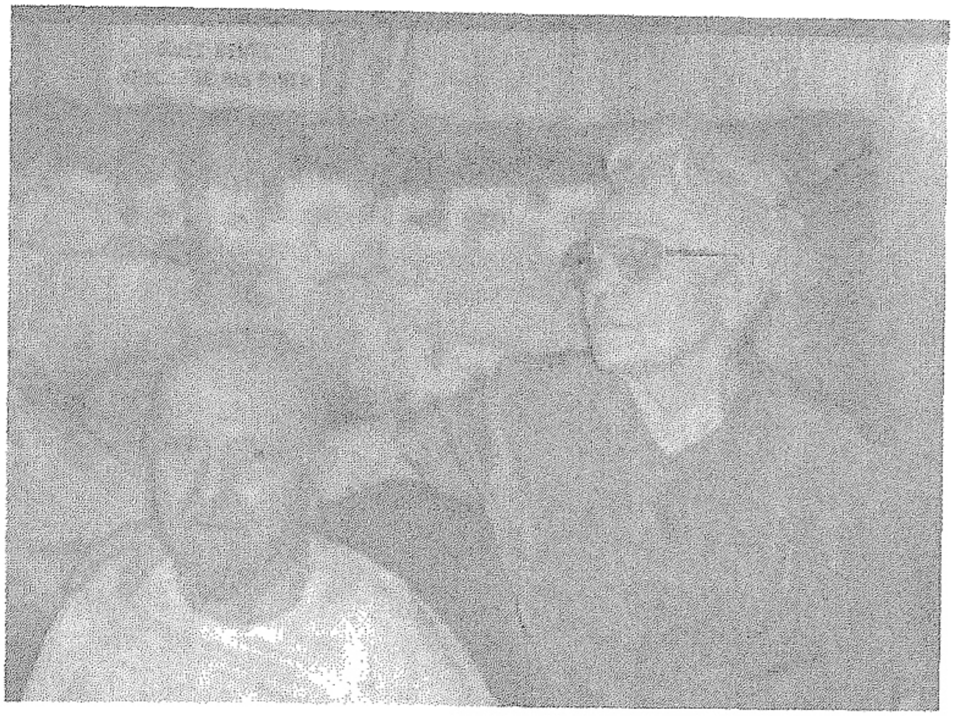


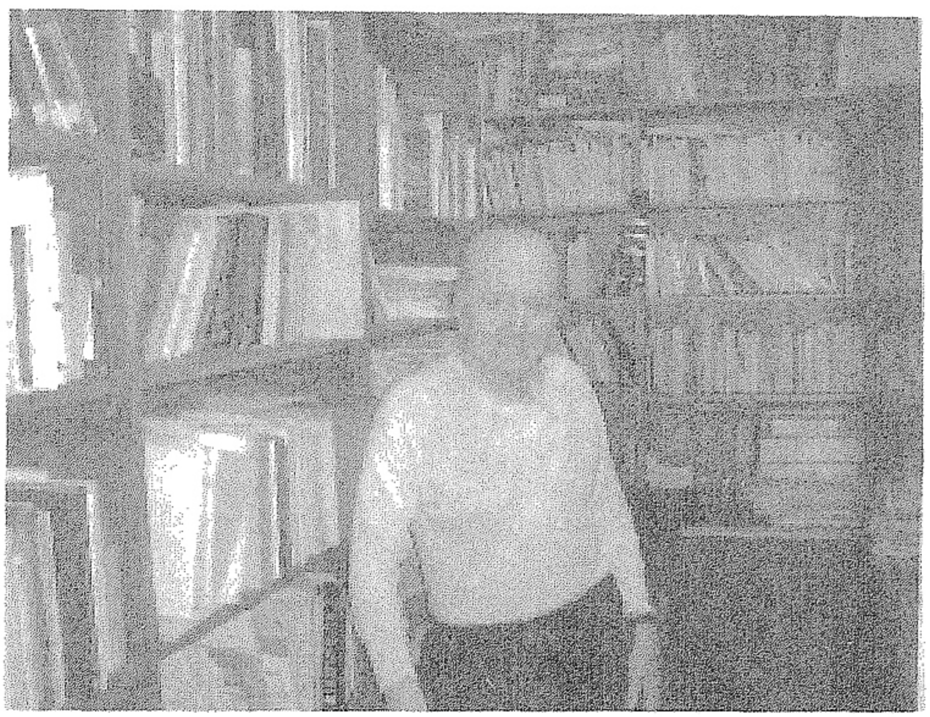


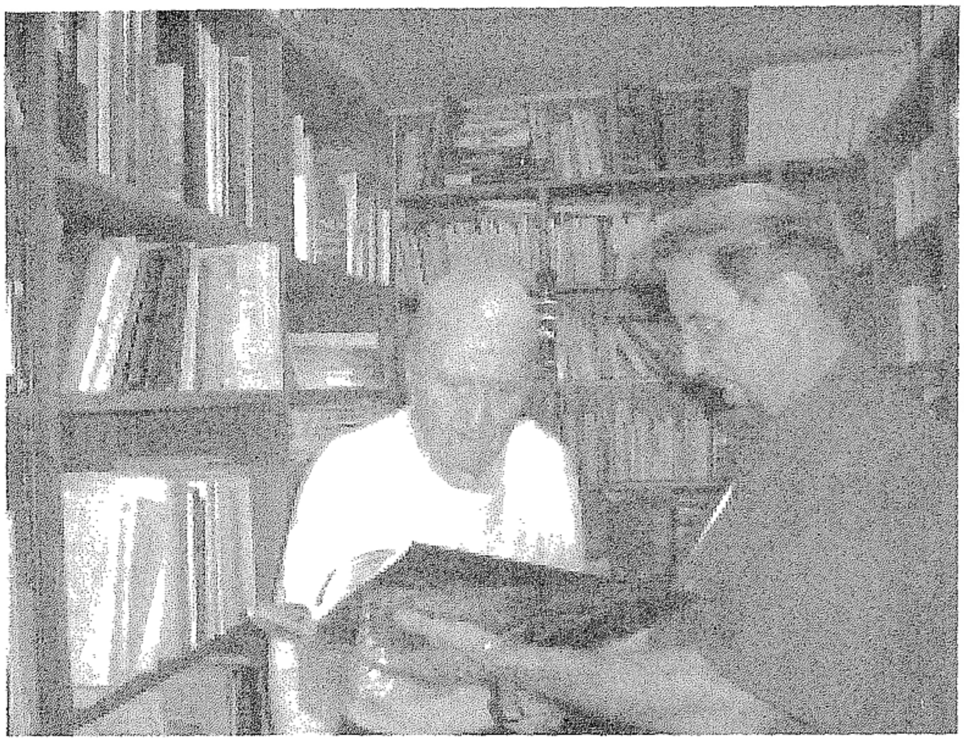


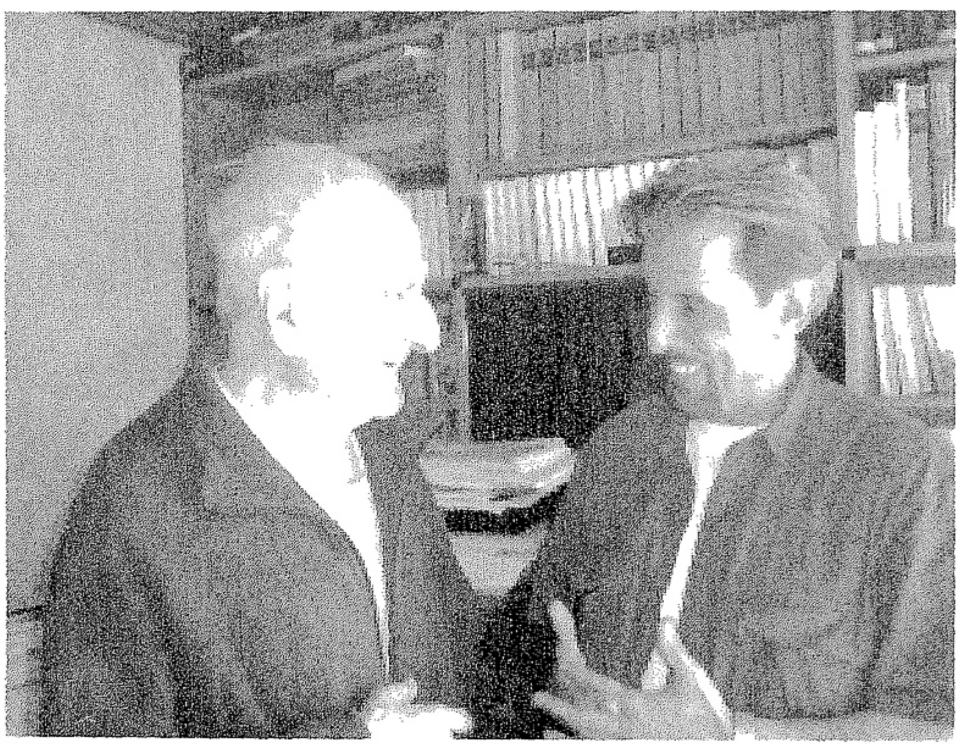


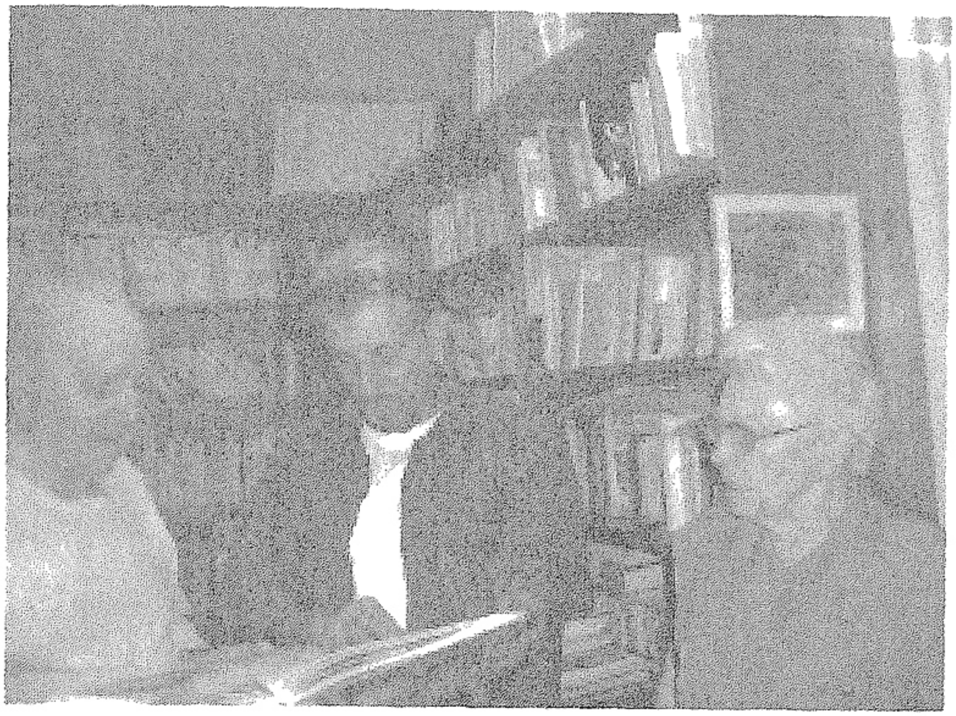






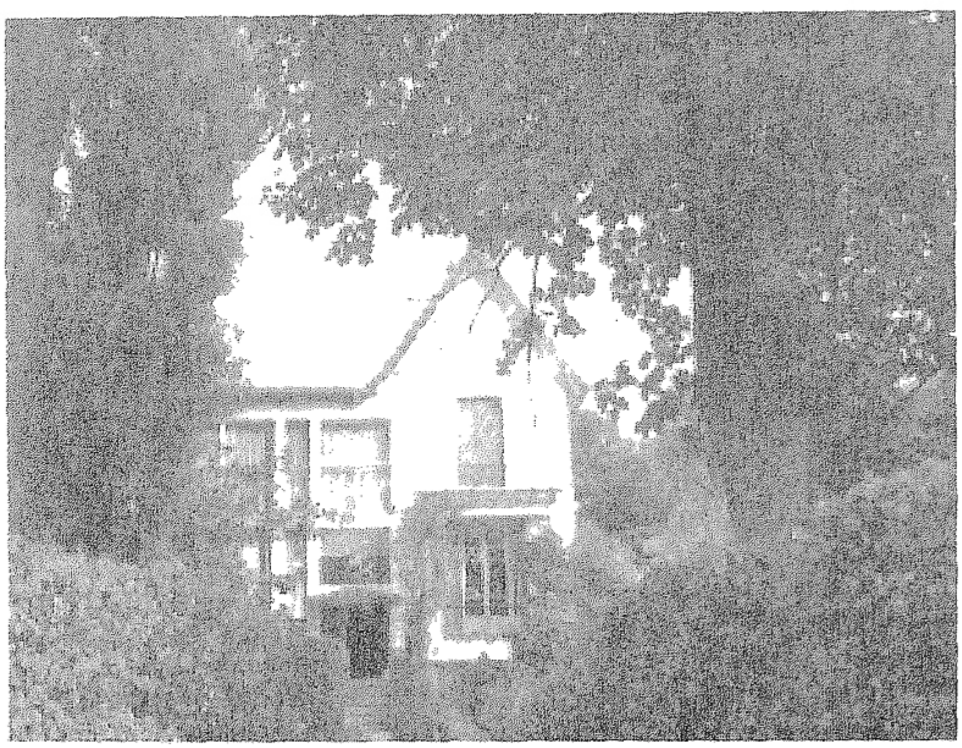






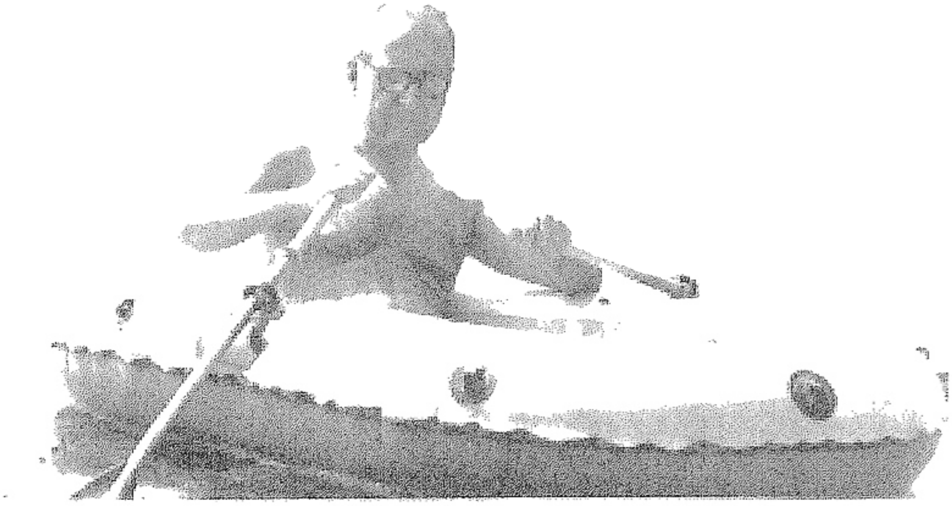


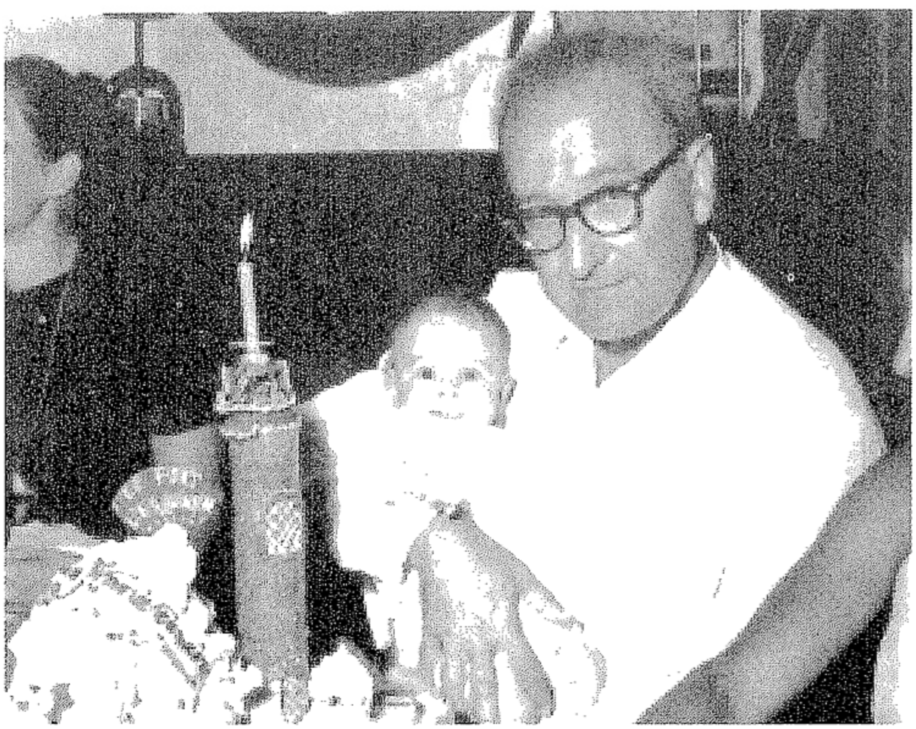


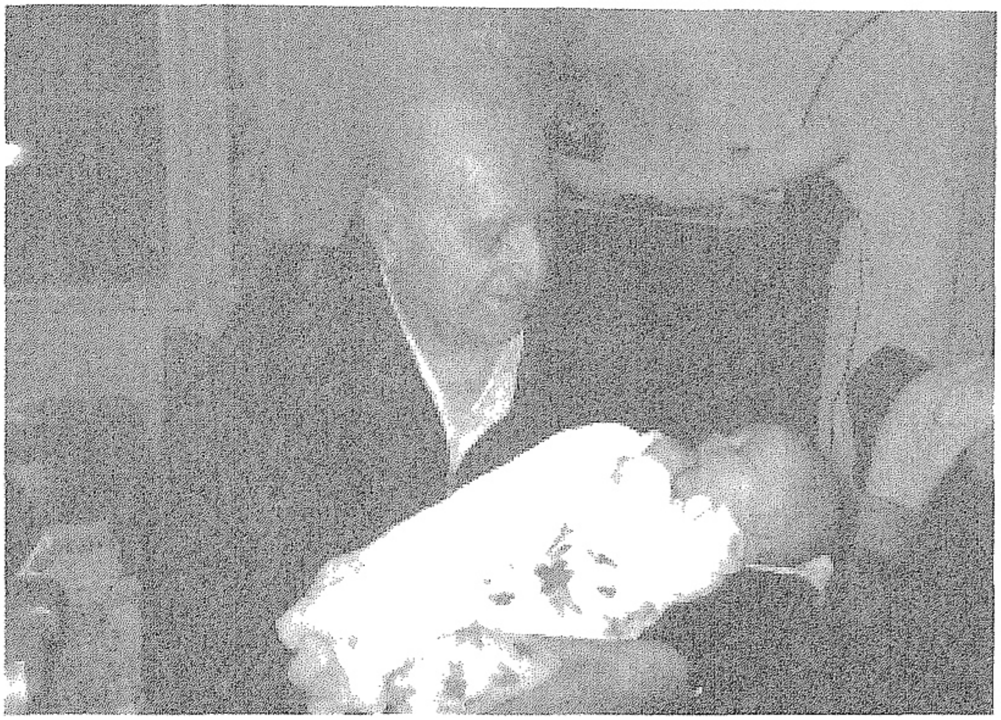






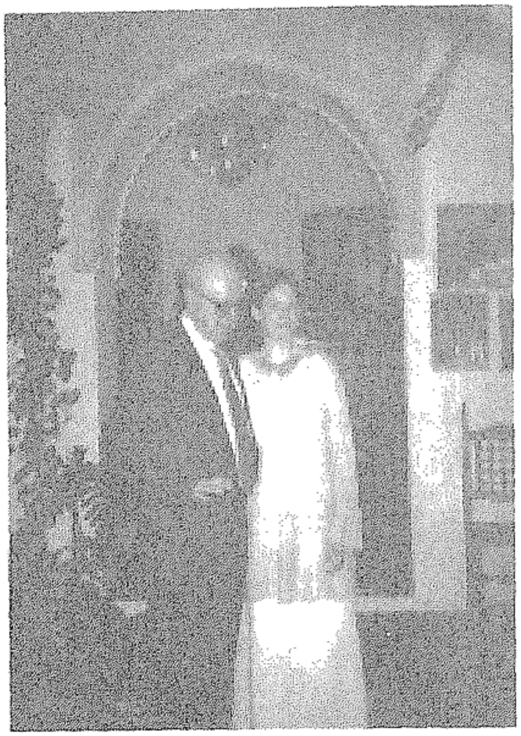






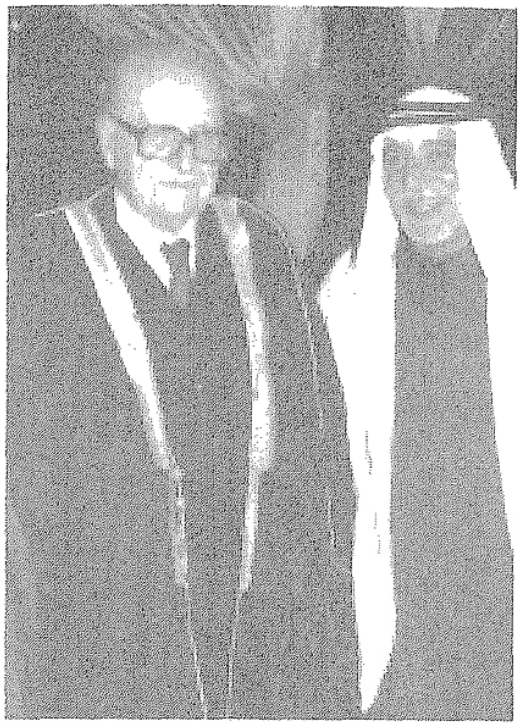


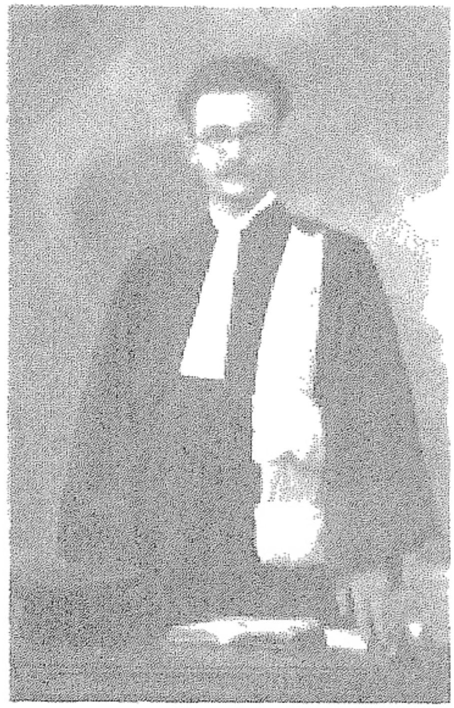


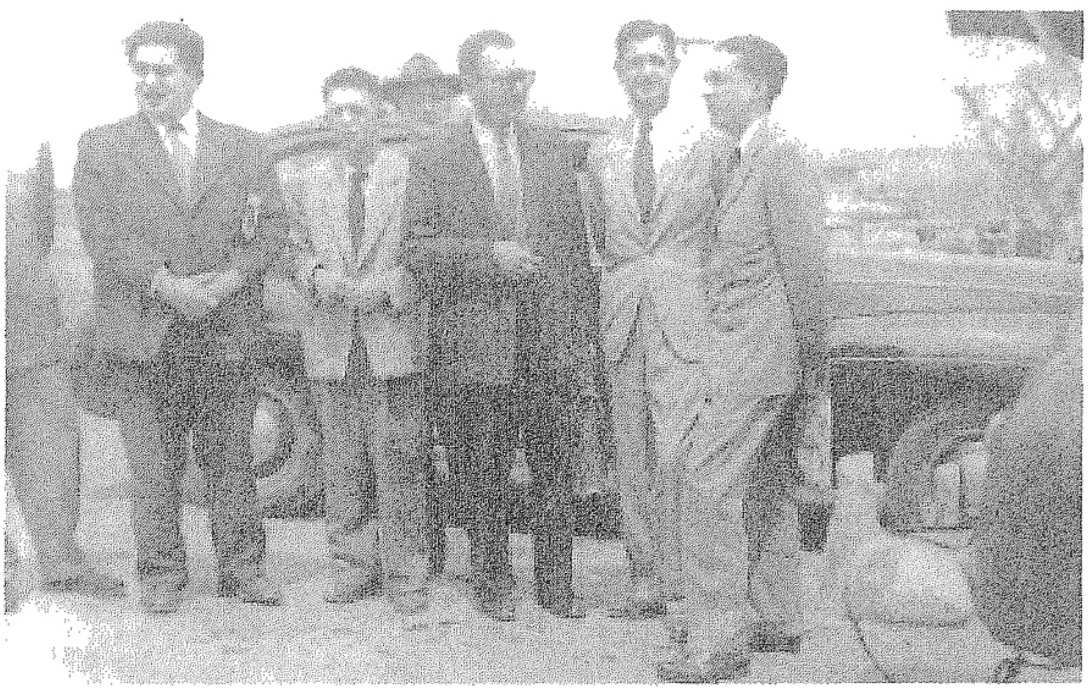












عن المؤلف

شاكر نوري:

- مواليد ١٩٤٩ ، العراق ، متزوج وله ابن ، يقيم في أبو ظبي .

الشهادات:

- دكتوراه في الإعلام ، الدراسات السينمائية والمسرحية ، من جامعة السوربون ١٩٨٣ .
[طبعت الأطروحة في كتاب باللغة الفرنيسية عن دار لارمتان - باريس] .
- دبلوم دراسات عليا في «علوم الاتصال : الصورة والصوت» من المدرسة العليا في العلوم الاجتماعية ، باريس ١٩٧٩ .
- ماجستير في الأدب الإنكليزي من جامعة السوربون ١٩٧٨ .
- بكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة بغداد ١٩٧٢ .
- يعمل حالياً سكرتير تحرير في صحيفة «الإمارات» / دبي .

المؤلفات:

- المقاومة في الأدب ، دار الفارابي . بيروت ، ١٩٧٩ .
- الحركة الصهيونية في فرنسا ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- حوارات مع ألن روب غرييه ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- أصيلة . . أصيلة ، رحلة ، دار الحوار ، باريس ، ١٩٨٥ .
- جنائن دجلة ، قصص ، دار بابل ، باريس ، ١٩٩١ .
- فنارات ملتهبة ، رحلات في مدن المغرب العربي ، دار بابل ، ١٩٩١ .
- لا تطلق النار . . إنها قلعة أور ، دار لارمتان ، باريس ، ١٩٩٦ .
- غارودي في المحرقة ، محاكمة تفكيك الأساطير ، دار الرافد ، لندن ، ١٩٩٨ .
- نافذة العنكبوت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- نزوة الموتى ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٤ .
- حوارات مع روجيه غارودي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
- العطر الأفريقي الأبيض - رحلات في الشمال الأفريقي ، دار السويدي ، ٢٠٠٥ .

الحوارات الفكرية والأدبية:

غابرييل غارسيا ماركيز / بولو كويليو / بولو كويليو / اسماعيل قادري / فيرناندو آرابال / دوناتيلا بيزوتي / جان روبير / خوان غويتسيلو / تيتيوس باتريكيوس / توني موريسون / بول باولز / جاك دريدا / البير قصيري / عمر ازرا باوند / يان غيفيلك / لوكينات بتاشاريا / لطفي اوزوك / يوجين يونسكو / فكتور غارسيا / انطونيو غالا / يوجين يونسكو / أحمد كوروما / أندريه شديد / بوعلام صنصال / رشيد بوجدرة / ليلة صبّار / ياسمينة خضرة / أدمون عمران المليح / عبدالحق سرحان / سليم باش / أدورار غليسان / نديم غورسيل / الطاهر بن جلون / أمين معلوف / البير قصيري / جيسيل بينو / جوليا كريستيفا / أندريه ماكين / جوتد بديش / عمر مبير / عبدالوهاب المؤدب / ايتيل عدنان / أدوار مونيك / عثمان سمين / صلاح ستيتيه / مالك شبل / عبدالكبير الخطيبي / غسان فواز / ماحي بينيبين / فؤاد العتر / جورج شحادة / أندريه فاتبر / بيرنار نويل / ميشيل ديغي / دومنيك كلاندرمون / ألن جوفروا / أدوار جاكير / جاك داراس .

فهرس الكتاب

DIALOGUES WITH ROGER GARAUDY

حوارات
INTERVIEWS

هذه وصيّتي للقرن 21

حوارات مع وقائع جلسات محاكمة روجيه غارودي

كما تفرّد بتسجيلها شاكر نوري

◆ يلخّص هذا الكتاب ، الّذي ألّفه الكاتب والصحافيّ العراقيّ شاكر نوري ، مسيرة المفكّر الفرنسيّ المعروف روجيه غارودي وكفاحه ضدّ الصهيونيّة ، وهو المتابع لهذا المفكّر منذ سنوات الغليان الماركسيّ في السبعينات أيّام كان يقرأ (واقعيّة بلا ضفاف) و (النظريّة الماديّة في المعرفة) في ترجمتها العربيّة . وفي باريس ، وعلى مدار عشرين عامًا ، كان المؤلّف يزوره باستمرار في منزله ، ويحاوره على فترات متقطّعة ، وقد نشر جزءًا من هذه الحوارات في الصحافة العربيّة . وقد تنوّعت محاور الحوار في القسم الأوّل من الكتاب على الموضوعات التالية : الإرهاب الغربيّ ، أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر ، النظام العالميّ الجديد ، الإرهاب الفكريّ في فرنسا ، العلاقات الفرنسيّة ـ الجزائريّة ، تغييب الأمريكيّين للثقافات الأخرى ، اتّساع الفوارق بين الشمال والجنوب ، فجر الألفيّة الثالثة ، الهولوكوست ، نشاط اللوبي الصهيونيّ ، السلاح النوويّ الإسرائيليّ ، فرض الهيمنة الأمريكيّة ، ولادة الاتّحاد الأوروبيّ ، غزو العراق وتدميره ، العلاقة بين الولايات المتّحدة وأوروبّا ، أفلام العنف الأمريكيّة ، الكتابة النسويّة ، خطر الموت في القرن الـ ٢١ ، تمرّده ضدّ الحزب الشيوعيّ واعتناقه الإسلام ، وغيرها من محاور الكتاب . أمّا القسم الثاني من الكتاب فهو عبارة عن تسجيل قلميّ مباشر لمحاكمة هذا المفكّر ، على مدى أربعة أيّام ، إثر نشر كتابه (الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيليّة) في قصر العدالة بباريس حيث تعرّض للاستجواب والاستنطاق من فريق ادّعاء المحكمة القضائيّة ، وغرّم بمبالغ ماليّة حسب قوانين غيسو في تجريم التعرّض للمحرقة اليهوديّة وليس حسب قوانين الثورة الفرنسيّة ، وهو في الرابعة والثمانين من ... أن وضع ٤٥ كتابًا فكريًّا وسياسيًّا وفلسفيًّا نشرتها كبريات دور النشر الفرنسيّة . وتأت... ب الجديد من نوعه ، بالنسبة للقارئ والمثقّف العربيّ ، في الوقت الّذي تتقلّص فيه ح... ا ، وتتصاعد الاتّهامات ضدّ المفكّرين والأدباء والعلماء ، وتصل إلى حدّ الاغتيالات كما ... ق ، تكون قراءة وقائع محاكمة روجيه غارودي بالغة الأهمّيّة في إعادة البحث في مسأ... يد الأفكار وتجريم المعارضة ◆

ISBN 9953-36-959-3
9 789953 369594

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس : ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨
http://www.airpbooks.com